

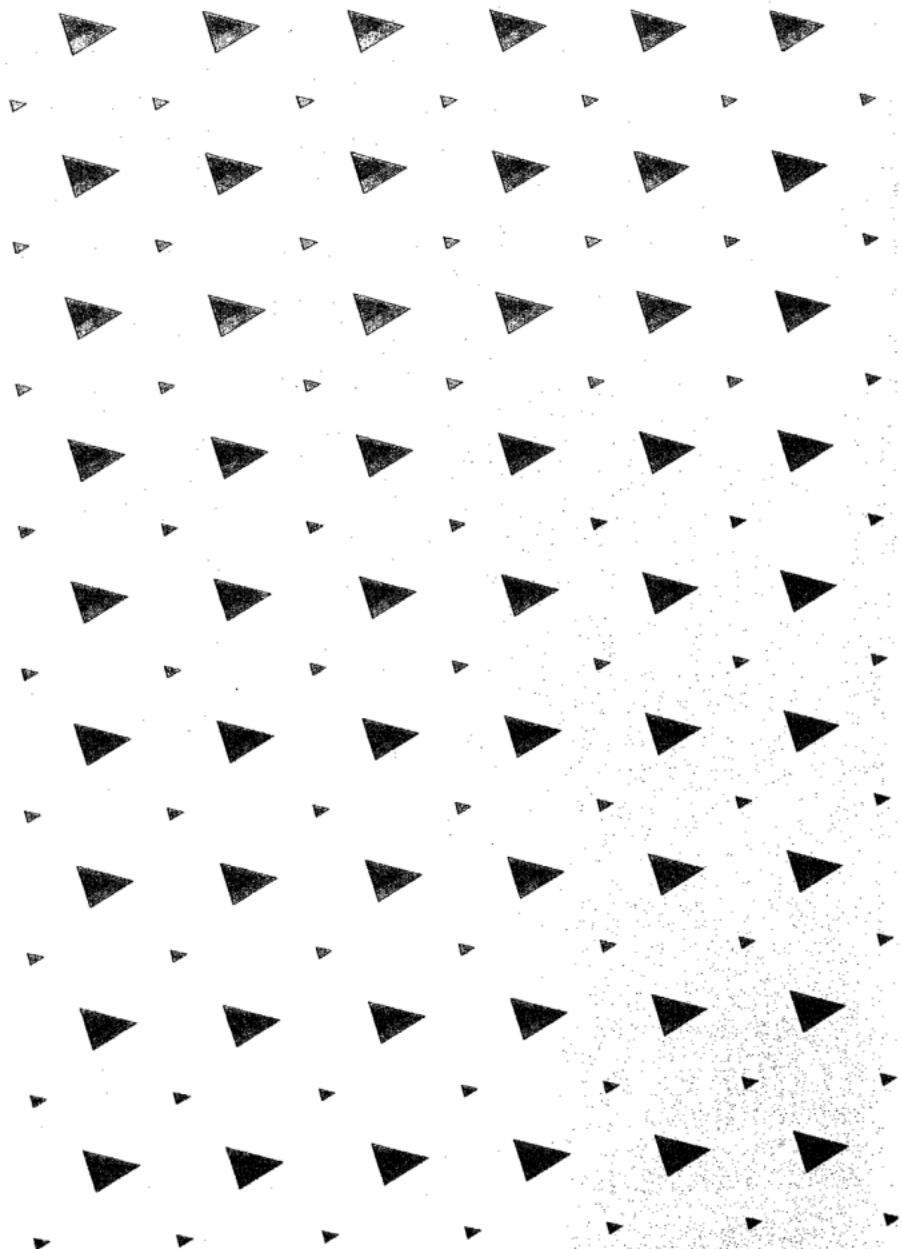
مَقْصُدُ وَعَهْدِ

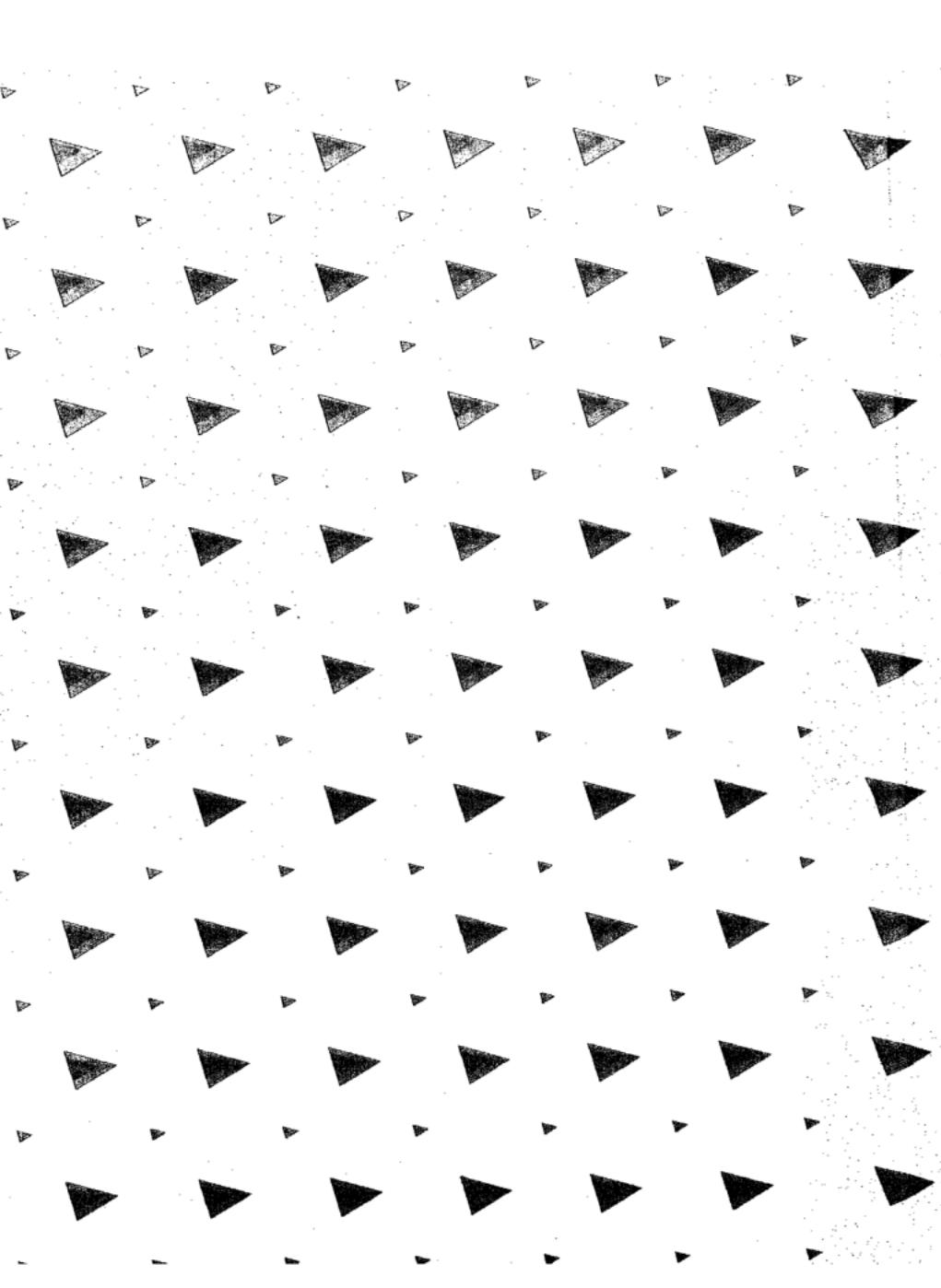
الدَّكْتُورِ

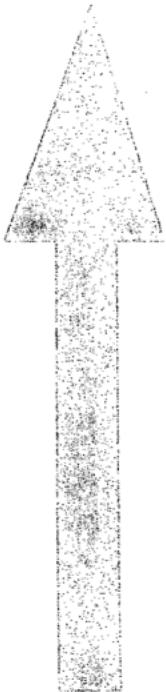
شِعْرُ

رَئِيسِ دِيْنِ الْيَزِيدِ

أَبْرَاهِيمُ







۱۹۰۴ داع

د. محضر بن محمد

مالیزیا

NC

954.5034

M145m

✓.2

مَوْسُوعَةُ
الدُّكْتُورِ
مُحَمَّدْ بْنُ الْمُحَمَّدِ
رَئِيسِ وزَارَةِ مَالِيَّةِ
الْجَلْدُ الثَّانِي



مَوْسُوْنَ وَعَةٌ

الدَّكْتُورُ

حَضْرَبْنُ حَسْرَبْرَ
رَئِيسُ وزَراءِ مَالِيَّةِ مَالِيَّا

المُجَلَّدُ الثَّانِي

الْكَلَّكَلَ

الناشرون

دار الكتاب اللبناني
بيروت

دار الفكر كوالالمبور

دار الكتاب المشرق
القاهرة

دار الكتاب - ماليزيا

مَوْسُوعَةٌ

حَضْرَبْنُ حَمْرَ

رَشِيدٌ وَزَاهِدٌ مَالِيْزِيَا

- الترجمة والمراجعة
 - ١. نجدة من كبار المترجمين والأكاديميين المتخصصين من جامعات القاهرة والأزهر والأسكندرية وغير شعبان وطهوان.
 - ٢. عبد الرحمن الشيخ
 - ٣. د. ياسر شعبان
 - ٤. فاروق لقمان
 - ٥. أطلقت الشايب
 - ٦. دنوفيق على منصور
 - ٧. الحمد محمود
 - ٨. عبد الحميد دابرو
 - ٩. د. رمضان سلطاني
 - ١٠. الحمد عبد الحميد
 - ١١. محمد رشدي

| | |
|----|---|
| ١ | الإِسْلَامُ وَالْأَقْوَاءُ الْإِسْلَامِيَّةُ |
| ٢ | الْحَسَنُ |
| ٣ | آشَرُ سِيَا |
| ٤ | الْمُؤْلَمُ وَالشَّرِيكُ الدُّكَيْهُ وَالْحَكْمُ |
| ٥ | مَالِيْمِيْزِيَا |
| ٦ | الْمُؤْلَمُ وَالْوَاقْعُ الْجَدِيدُ |
| ٧ | الْعِلْمُ وَالثَّائُولُجِيَا وَحُكْمُ الْإِشَان |
| ٨ | السِّيَاسَةُ وَالدِّيمُقْرَاطِيَا وَآشِيَا الْبِرِيْهِيَا |
| ٩ | الْتَّقْمِيَّةُ وَالْعَاقَوْنُ الْإِقْلِيْمِيُّ |
| ١٠ | فَصَائِيَا مَعَاصِيَةٌ |

دار الكتاب المبارك

٢٢ شارع قصر النيل تليفون : ٣٩٢٤٦٦٤ / ٣٩٢٤٣٠١ - ٣٩٢٢١٦٨
 القاهرة ص.ب: ١٥٦ عنية الرمز البريدي ١١٥١١ - برقا: كتا مصر - القاهرة
 فاكس: ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
 Fax: (202) 3924657 Att: Mr. Hassan El-Zein

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - تجاه فندق بريستول - بيروت
 تليفون: ٧٧٣٥٧٢٢ / ٧٧٣٥٧٢١ من ص.ب ١١ - ٨٣٣٠
 بيروت - لبنان . برقا: داكلبان - فاكس: ٣٥١٤٣٣
 Fax: (9611) 351433 Att: Mr. Hassan El-Zein

جنيف حقوق الطبع

والنشر والتوزيع

محفوظة للناشر

يمنع الاقتباس والنقل

والترجمة والتصور

والطبع الميكانيكي

والإلكتروني في إطار

استعادة المعلومات دون

اذن خططي مسبق من

الناشر

DARULFIKIR - Kuala-Lumpur

329B Jalan Abd Rahman Idris, off Jalan Raja Muda, 50300 Kuala-Lumpur العنوان: -
 Tel:- 603-26981636 / 603 - 26913892 Fax:- 603 - 26928757

دار الفكر كوالالمبور

الطبعة الأولى: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م

رقم الإيداع: ٩٧١٢ / ٢٠٠٣

First Edition 2004 A.D - 1424 H

I.S.B.N 977-238-738-7

المحتويات

| | |
|----------|---|
| ٧..... | مقدمة |
| ٩..... | الفصل الأول : الجدل |
| ١٣..... | الفصل الثاني : القراء أكثر فقرا .. الأغنياء أكثر غنى .. |
| ٢٩..... | الفصل الثالث : مأرث التعليم .. |
| ٥٧..... | الفصل الرابع : غرب وشرق .. |
| ٧٣..... | الفصل الخامس : المادية والروحانية .. |
| ١٠١..... | الفصل السادس : أبناء الملايو والتأثير الشيوعي .. |
| ١٠٩..... | الفصل السابع : نظام القيم وأبناء الملايو .. |
| ١٢٥..... | الفصل الثامن : الروحانية والتحدي الحديث .. |
| ١٣٩..... | الفصل التاسع : جماعات الضيغط في دولة ديمقراطية .. |
| ١٤٥..... | الفصل العاشر : تأميم الصناعات الأجنبية .. |
| ١٥٧..... | الفصل الحادى عشر : النظام والانضباط .. |
| ١٦٩..... | الفصل الثاني عشر : الفساد .. |
| ١٨٧..... | الفصل الثالث عشر : «أؤمن» والوحدة .. |
| ١٩٣..... | الفصل الرابع عشر : ماليزيا .. إلى أين؟ .. |

مقدمة

٧

٨

الهدف من الكلمات هو الاتصال ، لأنها تستخدم أحياناً لإحداث سوء اتصال ، الأمر الذي يؤدي إلى الارتباك والغوضى ، وقد شعرت بذلك كثيراً بالنسبة لكلمات مثل الحرية والمساواة والديمقراطية والاشتراكية والشيوعية والمادية والعلمانية والروحانية ... إلخ .

ولكي تجدها في المقدمة الكامنة وراء كلمات كذلك ، وتساعد القراء المناسب متجرراً من الوهم والتشويه وسوء التفسير ؛ فذلك تحدّيواجه العالم الحديث بعامة ومجتمع أبناء الملايو في ماليزيا وخاصة .

لقد خرج أبناء الملايو من التخلف منذ فترة طويلة ، فقط لكي تتجاوزهم توجهات مختلفة بواسطة قوى متصارعة ، بعضها يحاول أن يحطم كل ما تحقق من تقدم ، ويدخل المجتمع بأكمله إلى عصور الظلم .

آخر المفارقات الساخرة والمؤسفة في العصر الحديث هي أن الإسلام ، تلك العقيدة التي جعلت المؤمنين بها ذات يوم متقدمين وأقوىاء ، هذه العقيدة تستخدم الآن لإحداث تراجع من شأنه أن يجعل الضعف والتدهور في النهاية ، قوة من قوى التحرير يتم تحويلها إلى أساس منطقى لضيق الأفق ، إلهام نحو الوحدة يلوي لكي يصبح أداة للفرقه والتدمير .

إن الجهل بما تمثله الروحانية والفشل في رؤية الفرق بين المادية والانحراف الصحي في الأمور الدينية ، يجعل بعض قطاعات المجتمع الملايو (المسلم) عرضة لنفهم أن الإسلام يغض المؤمن به على أن يديروا ظهورهم للحياة ، وفي الوقت نفسه نجد قطاعات أخرى تُصَاب بالارتباك بمحاولات المساواة بين الإسلام والاشتراكية ، مستغلين الغموض الكامن في كلمات مثل العدالة والمساواة والإخاء .

وفي هذا الكتاب سأحاول أن أوضح سوء الفهم هنا مستخدماً الدليل الثاني المقبول في دراسة الإسلام : الدليل العقلي ، والدليل النقلاني ؛ أي التناول العقلاني مع مقتطفات من القرآن الكريم (الكتاب الذي يقدسه المسلمون) والحديث الشريف (سنة النبي صلى الله عليه وسلم) ، وقد رجعت بالنسبة للأخير (ال الحديث) إلى الترجمات والتفسيرات المعتمدة ، كما استرشدت بأراء علماء المسلمين .

إن سوء تفسير الإسلام ما هو إلا واحد من أشكال عدة للارتباك الذي يهدد أبناء الملايين اليوم ، والتحدي هائل للدرجة أنه يهدد وجودنا ذاته .

مهاتير محمد

الفصل الأول الجدال

٩

الجدال جزء من تراث أبناء الملايو؛ حيث لا يوجد تقريراً فكراً مالما تكن عرضة بجدال ومناقشة طويلة وعميقة. وفي النقاش الدائر، لا يكتشف فقط أن الفكرة غير مقبولة بعد كشف ما فيها من نقاط بواسطة من يعارضونها، بل إن آراء كل النقاد تناقش لكي يتم تعرية نقاط الضعف في طرحهم. وال نتيجة النهائية لكل سلسلة من الجدال هي اكتشاف أن الفكرة الأصلية والأراء المطروحة في النقاش كلها ليست مقبولة.

وحيث إن الأفكار كلها ليست مقبولة فلا يمكن اتباع أي منها، وهكذا يبقى الأمر دائماً على ما هو عليه رغم أن ذلك عيب واضح وينبغي تغييره. أما الأسوأ من ذلك فهو أن الآراء المتضارعة التي يتم التعبير عنها أثناء الجدال لا تصنع شيئاً سوى أنها تضيف إلى ارتباك المجتمع. وعند دراسة النقد والجدال يمكن أن يكتشف أنها ليست فقط غير مفيدة، ولكنها تضيف كذلك إلى صعوبة التخلص من التحديات التي تواجه مجتمع أبناء الملايو على نحو خاص.

وفي تاريخ الملايو، لقى كثير من الأفكار البناءة مثل هذا المصير، في كل مرة تناقش فكرة، تستخدمن الطاقات والأفكار، لا من أجل تطبيقها وإنما لإخضاعها لنقاش متعدد ومتناول طويلاً. لقد أصبحت عادة المحاجلة جزءاً من أبناء الملايو لدرجة أن هناك البعض من يكتبون الكتب لمجرد إثارة القضايا الجدلية، والمفترض أن الجدال يشحد العقل أو أنه تدريب ذهنی؟ فهل ينبغي أن ينفق أبناء الملايو وقتهم في تدريبات ذهنية؟ أليس من الأهم أن يعملوا للتغلب على الآل福 مشكلة ومشكلة التي تواجههم؟

المقالات التالية لم تكتب لإثارة سلسلة أخرى من الجدال، وإنما هي تعبيير عن أفكار

الكاتب بحثاً عن وسائل لتغيير التوجهات وتصحيح القيم التي تعتبر مهمة في مواجهة تحديات هذا العصر . من حق القارئ أن يقبل هذه الأفكار أويرفضها كما يشاء ، المهم هو أن ي Finchها بحثاً عن نتائج التي يمكن أن يجعلها المرء بسهولة إذا حاول البحث عنها ، المهم هو أن يقبل ما يمكن أن يكون مقبولاً ، ولو أن فكرة واحدة من الأفكار الكثيرة في هذا الكتاب وجدت قبول لدى قارئ واحد ، فسيكون الكتاب قد حقق الهدف منه .

إن أحد التوجهات غير المستحبة هو انتظار الطرف الآخر دائماً لكي يتخذ الخطوة الأولى ، يتضح ذلك - بشكل جلي - في الموقف من قضية انتشار تعاطي المخدرات بين الشباب في مجتمع أبناء الملايو . عندما كانت ظاهرة تعاطي المخدرات في بدايتها ، قال أحد القيادات الطلابية : «ما تعاطى المخدرات بين الشباب إذا نحن قارنناه بالعدد الكبير من الكبار ومن القادة الذين يتناولون المسكرات؟» وهناك أيضاً شخصيات بارزة بين قييم بعض علماء المسلمين الذين يرون هذا الرأي .

صحيح أن تناول المسكرات خطأ ينبغي ألا يكون ، ولكن هل ينبغي أن يكون تناول البعض للمسكرات سبباً للتهوين من خطورة تعاطي المخدرات . إن الشر شر ، ويجب القضاء عليه لأنك كذلك ، وإذا كان علينا أن نستأصل الشر بعد استصاله غيره؛ فما الشر الذي ينبغي أن نبدأ به؟ لو انتظر كل فريق أن يتحرك غيره فلن يبدأ أحد بالخطوة الأولى .. وهكذا تستمر كل الشروط . كلمة الزعيم الطلابي تعنى أنه إلى أنه يتوقف الكبار عن تناول المسكرات يجب لأنلوم الشباب على تعاطي المخدرات ، وحيث إنه لا يوجد احتمال لأن يتوقف كل الكبار عن تناول المسكرات ؛ فإن تعاطي المخدرات سوف يستمر ؛ فهل هذا مما نريد؟ لا أتذكر وقتاً عندما كان كثير من الكبار يتناولون المسكرات بينما الشباب لم يتغمسوا في تعاطي المخدرات؟ إن شباب الحسينيات لم يكونوا منتمسين في هذا الشر بالرغم من أن عدداً كبيراً من الكبار كانوا يتناولون المسكرات في ذلك الوقت . إن هذا النمط من التفكير هو الذي يشجع على الانحلال الأخلاقي .

المقللات التالية تحتوى على عدد من الأفكار والاقتراحات ، وقد يجد القارئ فكرة أو اثنتين من بينها مقبولة ، ولكنه إذا كان سينتظر آخرين لكي يتقبلوها ويعارضوها قبله فلن يكون قوله لها أفضل من رفضه بائي حال ، ولن يكون الكتاب قد حقق أى هدف .

وهذا الكتاب قد كتب بهدف محدد . يقول «هانج توا» : «إن أبناء الملايين يختفوا من على وجه الأرض » ، وليس المقصود بهذا القول أن زردهه في القصائد والخطب لطهارة الناس ، إنما بالآخرى يمثل أملاً سواء أصبح هذا الأمل الذى يتمناه «هانج توا» حقيقة أو لا ، وذلك يتوقف على أبناء الملايين أنفسهم . هدف هذا الكتاب هو التحليل والتأكيد من حدوث حدث بعينه مع اقتناع بأن التشخيص هو الخطوة الأولى نحو العلاج . حيثما ، ربما لا يبقى أمل «هانج توا» مجرد أمل .

في تاريخ أي جماعة من البشر ، هناك المراحل المظلمة والمراحل المضيئة ، ولا يمكن أن تظل أمة متخلفة إلى الأبد ، كما أنه لا توجد أمة متقدمة على الدوام . لقد مرت إمبراطوريات مثل اليونان وروما وفارس وسرى فيجياليا وميلاكا وبريطانيا بالمراحل المختلفة نفسها . كانت في وقت ما متقدمة وقوية ، وما كان لأحد أن يتصور أنها سوف تسقط ذات يوم ، إلا أنها اضمحلت واختفت كلها من الوجود .

وسوف تكشف لنا الدراسة أن دوره «الضعف والتقدم والضعف» لها علاقة محددة بنظام القيم فى أمة ما . وعندما يكون هناك إعلاء من شأن الكد والكفاءة والأمانة والنظام وغيرها من القيم الجيدة ، وعندما تمارس تلك القيم فلابد من أن يتحقق التقدم ، ولكن عندما نقلل من شأن تلك القيم ، أو حتى تكون محل تقدير دون عارضة لها ، فلابد من أن تتخلّف الأمة في النهاية .

وفي أيامنا هذه يقدر أبناء الملايين هذه القيم النبيلة ، بيد أن كلاماً منهم ينتظر الآخر لكي يمارسها . الكد والثابرة مثلاً قيم جيدة ، ولكن لأن بعض أبناء المجتمع من الذين يعترفون بذلك هم أنفسهم غير مجدين ، وفي الوقت نفسه هناك الكثيرون من الذين يسخرون من

المجدين في دراستهم أو المثابرين على النجاح . هذه حقيقة واضحة ، وما دام أولئك الناس غير مستعددين للاعتراف بذلك ، فسوف يكونون في ورطتهم الحالية . إن مصيرهم بأيديهم ، والخطأ قد يكون في الآخرين ، ولكن على أبناء الملايين أن يشكلوا مصيرهم الخاص .

إن الله لن يغير أمة إلا إذا حاولت الأمة نفسها أن تحسن ، ولكن تحسن فإن الشيء المهم ليس هو استعراض المهارة في الجدال ، وإنما أن تقبل ما يكون مقبولاً وتضعه موضوع التنفيذ . وإذا كانت هناك أي أفكار في المقالات التالية تستحق التنفيذ فعلينا أن نطبقها ، ويمكن أن يترك الباقي على جنب ، وأي محاولة لتحدى الكاتب لكنى بين الناقد مهارته فلن يلتفت إليه . يمكن للناقد - إذا أراد - أن يكتب مقالاته أو كتبه لكنى يؤثر على المجتمع بأفكاره الأصلية ، والمثل يقول : «الذين يستطيعون .. يعملون ، أما الذين لا يستطيعون فيتقدون» .

الفصل الثاني

الفقراء أكثر فقراً، والأغنياء أكثر غنىً

أثرت الأيديولوجيا والمنطق المادى بهمولة شديدة على المجتمع الإنسانى فى المرحلة الأخيرة ، وهى نتيجة مباشرة لتأثير الفكر الغربى ونظام القيم اللذين يركزان - بشكل متعرص - على المادة كأساس للحياة . القيم التى تعتمد على الجانب الروحانى والسلام الذهنى والإيمان بمشاعر أسمى من الرغبة لامكان لها فى العقل الغربى .

لقد انتشرت القيم المادية الغربية ، وضررت جذورها بين مسلمي ماليزيا ، وخاصة أبناء الملايو ؛ فالناس أنفسهم الذين ينادون بنظرية روحانية أكثر من المادية ، أصبحوا يستخدمون المعابر المادية للحكم على القيمة التى تعتمد على الجانب الروحانى ، أي القيمة المادية التى تعطى لعمل ينادى بالروحانية أو للأشطة التى تحتوى على عناصر روحانية .

وفى وضع تسود فيه المادية ، لن يكون غريباً أن تستخدم القيم المادية للتحكم فى حركة وأنشطة المجتمع .

المجتمع المادى يعتبر ملكية الشروة أو عدمها الأساس الرئيسى للسعادة أو الشقاء الإنسانى ، كلما زادت الشروة التى يملكتها المرء أو يستطيع الحصول عليها ، يكون المرء أكثر سعادة . هذا هو المفهوم الشائع ، وفي المقابل ؛ فإن قلة الملكية أو عدم وجود مصدر للثراء يعني الفقر والعار والمعاناة . وعلى أساس هذه المفاهيم والقيم المادية تم تلفيق مقوله لتأثير على عقول وقلوب البشر ، والمقوله هي : «الفقراء أكثر فقراً والأغنياء أكثر غنى» . هذه المقوله أو الشعار الذى صنعه الاشتراكيون فى الغرب ، انتشر ليصيب بقية العالم بالعدوى ، ومن بين الذين وقعوا فى هذا الفخ أبناء الملايو فى ماليزيا .

الأيديولوجية الشيوعية تسيطر عليها مسائل الثروة والفقير ، والذين الذى يعطى قيمة

للحاجب الروحاني بين الآثار المادية في العالم ، يسمى الشيوعيون «أفيون» ، وذلك لأنه يعترف بقيمة أسمى من المادية كمصدر للسعادة والسلام النفسي . هذه القيمة ، أو الروحانية تحرر عقول المؤمنين من هوس الشروء والفقر الذي هو أساس الفلسفة الشيوعية ، وحيث إن الدين يجعل السلام العقلاني والنفسى عن طريق القيمة السامية التي يعطيها للجانب الروحاني ، يفقد الصراع بين القراء والأغنیاء ح戴上ه . إن الشيوعيين يعادلون حالة الصفاء التي يحققها الدين بتلك التي يحدّثها الأفيون ، ويغضّون الدين لأن ذلك الصفاء العقلاني يمكن أن يؤثّر على صراع القوة والظلم اللازمين لقضيتهم .

لكن الشيوعية - بشجبها الواضح للدين وإنكارها للوجود الله - لا يمكن أن تجد انتشاراً سهلاً بين المؤمنين بالدين بشكل عام وبين المسلمين خاصة . وبالرغم من المحولات الشيوعية لإظهار أن الإسلام والشيوعية ليسا في حالة صراع حقيقي ، وأن هناك عناصر مشتركة بينهما ، إلا أن المسلمين يظلون غير مقتنعين بالشيوعية ، ويرفضونها كأيديولوجيا وكتظام سياسي ، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للاشتراكية ، التي لا تعارض الدين بشكل مباشر وتبدو أحياناً متساوية معه بما في ذلك الإسلام . الإيمان بالأخوة والمساواة بين الناس ليست متساوية مع الإسلام فقط ، بل إنها جزء لا يتجزأ منه ، إلا أن المفهوم الاشتراكي لهما (الأخوة والمساواة) يقوم على المادية ، ولا يولي أهمية للجانب الروحاني ، وهو مختلف في ذلك كل الاختلاف عن الرؤية الإسلامية .

الأيديولوجيا الاشتراكية لا تكتفى بالمفهوم الذي يرى أن الناس جميعاً يولدون متساوين ، وهي تصر على المساواة المادية الفعلية قبل أن يقال إن العدل قد ساد ، وحيث إن المساواة المادية هي هدف الاشتراكيين فإنهم يقيسون دائمًا وقارنون الشروء والممتلكات لدى مختلف أعضاء المجتمع ، وفي كل مرة يجررون فيها مقارنة لأبد من أن يجدوا قدرًا من عدم التوازن أو الفروق ؛ لأن ذلك موجود حتى في أي مجتمع إنساني . وهكذا فإن المجتمع الاشتراكي منهمك على الدوام في عملية مصادرة وإعادة توزيع الثروة .

الاشتراكيون يؤمنون بالتأمين كوسيلة للمساواة في الثروة ، وهذا نابع من مفهوم أن تأمين التجارة والصناعة سوف يرفع مستوى دخل العامل ما دامت الدولة - باعتبارها صاحب العمل - لن تحتفظ بالأرباح كلها نفسها . إلى جانب أن الفجوة بين دخل كبار العاملين وصغارهم سوف تضيق أو تخفي تماما ، وهذا محض خيال ؛ ففي المقام الأول ، عندما تحصل الدولة (الحكومة) على أرباح صناعة ما ؛ فهو لا يستطيع أن تقسم هذه الأرباح على العاملين في هذه الصناعة . الدولة (الحكومة) مسؤولة عن جميع العمال ، أو بالأحرى عن الشعب كله ، وإذا كانت جميع الدخول ستصبح متساوية في المجتمع الاشتراكي فإن أرباح أي صناعة يجب أن تُحسب كلها مع خسائر الصناعات والعمليات التجارية الأخرى المملوكة للدولة ، وكذلك مع دخل الحكومة من أي مصادر أخرى ، ثم تقسم بعد ذلك .

ولسوء الحظ ، فإن العمال في صناعة ما تكون رابحة ، ليسوا مستعدين للتخلص من الأرباح لتصبح جزءا من دخل الدولة ؛ لأن ذلك - في نظرهم - سيكون بمثابة ضرورة الدخل المفروضة على أصحاب الأعمال في القطاع الخاص في النظام السابق . العمال يريدون الأرباح لأنفسهم وليس من أجل إعطائهم العمال صناعة أخرى خاسرة أو من أجل بقية الدولة . ومن ناحية أخرى فإن في صناعات الدولة الخاسرة يطالبونها - باعتبارها صاحب العمل - بأن تقوم بتغطية هذه الخسائر بما يكسبه من مصادر أخرى ، وحيث إن جميع الصناعات قد أثبتت فلا وجود لضرائب دخل على الشركات ، ولكن تغطي الحكومة خسائر إحدى الصناعات ، سيكون عليها أن تتعهد على أرباح صناعات أخرى ، ولن يكون العاملون بها سعداء بالمرة مع إجراء من هذا القبيل .

وبينما تمثل هذه المشكلة تحديا بالنسبة للإدارة فإن مسألة التباين في الدخل سوف تستمر لتكون خطرا يهدد الدولة الاشتراكية بقيمتها المادية . العمال كلهم يريدون دخولا متساويا أو قريبا من ذلك . ومن سوء الحظ أن مهام ومسؤوليات العمال المتخلفين ليست متساوية ، ولا يمكن أن تكون متساوية ، وبينما يريد العاملون الصغار إزالة الفارق بينهم وبين

أصحاب الدخول المرتفعة ، نجد كبار العاملين يريدون أن تعطى قيمة اقتصادية (مادية) للوظائف الأكثر أهمية وللمسئوليات الموكلة إليهم . وإذا ما تمت مساواة الدخول فإن كبار العاملين سوف يفقدون الاهتمام بأعمالهم . ومن ناحية أخرى ، ما دام هناك تباين في الدخول فإن العاملين الذين يحصلون على رواتب منخفضة سوف يصابون بالإحباط ويصبحون خطاً يهدد استقرار الدولة .

الإدارة تحتاج إلى أموال من أجل التنمية القومية ، ورفع ومساواة دخول الناس لا يتحقق شيئاً إذا كان ذلك يعني العمل دون وجود تسهيلات وخدمات . وإذا ألمت جميع الصناعات فسوف يكون على الإدارة (الحكومة) أن توفر الطرق والمساكن والمدارس والمستشفيات والماء والكهرباء وغيرها من احتياجات أخرى كثيرة لازمة للحياة في المجتمع ، وذلك كله لابد من أن يمول من الصناعات المؤمة ، لكن هذه المنافع والمزايا سوف يطالب بها العمال في الصناعات الرابحة والخاسرة على السواء . ولو أن الإدارة اعتمدت على هذه الأرباح لتمويل تلك التسهيلات والخدمات فإن العمال لا يمكن أن يقسموا كل الأرباح بينهم ليحصلوا على عائد أعلى نتيجة عملهم ، لابد أن تحصل الإدارة (الحكومة) على جزء من مكاسب الصناعة لتمويل خدمات أخرى .

وبعد أن تواجه الحكومة مشكلة تمويل الخدمات العامة ، ستكون مضطرة إلى أن تفرض ضريبة على دخول الناس بطرق مختلفة . وبالرغم من أن العمال قد يحصلون على دخول مرتفعة في الدول الاشتراكية ، إلا أنهم - كليهم تقريباً ، من فيهم أصحاب الرواتب المنخفضة - لابد من أن يدفعوا ضرائب على الدخل ، وهذا يجعل دخلهم الحقيقي منخفضاً وغير كاف . وفي بعض الدول الاشتراكية نجد أن دخول العمال - بعد دفع الضرائب - أقل منها لدى المتعطلين الذين يحصلون على إعانة من الحكومة . ونتيجة لذلك يفضل كثيرون البطالة ، الأمر الذي يؤثر على النمو الاقتصادي للدولة . وبصرف النظر عن هذه المشكلات وفشل الدولة الاشتراكية في أن تساوى بين دخول الناس ، هناك نزعاتان في المجتمع

الاشتراكى : الأولى هي سيطرة القيم المادية تماماً على عقول الناس وتأثيرها على مجتمع حركة الفرد والمجتمع ، وبالتالي فإن القيم الأخرى - مثل القيم الروحانية - تدمر بسبب التكريس الكامل للمادية . أما التزعع الثانية فهى وجود ميل واضح نحو الأيديولوجيا الشيوعية .

وفي مجتمع تسوده الاشتراكية نجد أن المعايير المادية تحكم كل شيء ؛ فهو مستخدمة في كل وقت وفي كل مجال . أمور الفقر والثروة هي بؤرة الاهتمام الدائم . الثروة هي هدف الجميع ، وحتى عندما تتحقق فإن المقارنة - بين هم أكثر ثراء (وليس عنهم أقل أبداً) - تخلق نوعاً من عدم الرضا أو السخط ، ولتأكد أن مثل هذه المقارنات يحدث دائماً ، تردد شعارات من قبيل «الفقراء أكثر فقرا والأغنياء أكثر غنى» ، وهكذا لا يمكن أن يشعر المجتمع بالرضا على الإطلاق .

وتكون هذه المعايير متناقضة وشائنة على نحو خاص عندما تكون متعلقة بالسعادة أو الشقاء الإنساني بشكل مباشر ، الدخل المرتفع - في نظر المجتمع المادى - يعني السعادة ، والمنخفض يعني الشقاء الذي يتبع مباشرة مع انخفاض الدخل ، ويعنى آخر نجد أن السعادة أو البؤس يعتمدان على الملكية والدخل ، ويقتاسياً بهما .

ويشعر القادة المتأثرون بالاشتراكية بالحزن عندما يزورون الجماعات ذات الدخول المنخفضة سعيدة ، وكلما رأوا ذلك يعتقدون المقارنة بينهم وبين ذوى الدخول المرتفعة ، وعندما تتحقق الفجوة يشعرون بالقلق ، ويتحولون إلى معايير أخرى لبيان أن «الدخل الحقيقى» قد نقص . ومهما حدث أى تحسن في مستويات الدخول سيثبتون ، على أية حال ، أن «الفقراء أكثر فقرا والأغنياء أكثر غنى» ، وبهذا الأسلوب يمكنهم أن يحولوا السعادة إلى شقاء وسخط .

والحقيقة أنه في دولة نامية مثل ماليزيا ليس من السهل أن نجد وضعاً يمكن أن نقول فيه - بشكل عام - إن الفقراء يصبحون أكثر فقرا . إن دخل رجل فقير لا يمكن أن يقل

بسهولة عن ذى قبل إلا إذا توقف عن العمل ويفى متطلعاً . لا بد أن دخله سوف يرتفع مهما كان مصدره (الراتب ، الإنتاج الزراعي ، تربية الحيوانات ، أرباح من تجارة .. إلخ) ؛ لأن قيمة مصدر الدخل تظل دائمة في ارتفاع . المشكلة تكمن في حقيقة كون احتياجات ومطالبه تنمو أسرع من دخله ؛ فعلى سبيل المثال ، إذا كان مزاجه معتاداً على الذهاب إلى المدينة مرة كل شهرين أو ثلاثة أشهر ، فإن الرحلة سهلة وأرخص الآن ، ولذلك فإنه يذهب مرة كل أسبوع . وإذا كان ذات يوم قد رضى بمصباح كيروسين فإنه اليوم يريد مصباحاً كهربائياً وجهاز راديو .. إلخ . ويعرف ذلك بشورة التوقعات التزايدة ، الأمر الذي يجعل الدخول غير كافية باستمرار . ويصبح الأمر أكثر سوءاً عندما يكون هناك أناس محور اهتمامهم هو الفجوة بين المتحقق والمتوقع . وعند مقارنة رغبة القلب بالقدرة على تحقيقها فسنجد أن الكل فقراء ، ولكن عند مقارنة الدخل السابق بالحالي فسنجد أن من كان فقيراً قد أصبح غنياً ، وبالطبع عندما تم المقارنة بالأغنياء الذين أصبحوا أكثر غنى بنفس الطريقة ، فإن الفقراء سيدرون أكثر فقرًا .

أولئك الذين لديهم أهداف شخصية يحبون دائماً يلفتوا الأنظار إلى الفقر أكثر من الشروء ، والذين لا يريدون أن يؤكدوا عليه هو أن الأغنياء في المجتمع الحديث عليهم أن يدفعوا ضرائب عالية للمساعدة في إعاقة الفقراء . ولو قارنا الدخول الحقيقية (أى بعد دفع الضرائب) فسنجد أن الفجوة بين الأغنياء والفقراء في الدخل ليست كبيرة بالمرة ، بالإضافة إلى أنه لو لا الأغنياء لأصبح الفقراء أكثر فقرًا ؛ حيث إن جهدهم وناتج عملهم لن يجد سوقاً جيدة .

ولكي نرى بوضوح كيف أن الأغنياء يستغلون من قبل المجتمع لإعاقة الفقراء ، دعونا نحلل دخل الفرد الذي يحصل مثلاً على نصف مليون رينجت في السنة . ضريبة الدخل المفروضة عليه تصل إلى ٤٠٪ على جزء كبير من هذا الدخل ، إذن فهو يدفع حوالي ١٥٠٠٠ رينجت ضريبة دخل . ومن المبلغ المتبقى لديه وهو ٣٥٠٠٠ رينجت يدفع لموظفي

خصوصيين لديه مثل السائقين وعمال الخدمة والخدم والطباخين معنى ذلك أن دخل الشخص الغني يوفر فرص عمل لأولئك الذين يمكن لأن يجعلو عملاً في مكان آخر .

ويواسطة المتبقى من دخله يشتري كثير من الضروريات والكماليات كل شهر وجميع هذه السلع تقربياً عليها ضرائب . والضرائب الأعلى هي تلك المفروضة على السلع الترفيهية التي يغرس بها الأثرياء . ومشترياتهم من الضروريات والكماليات تعنى دخلاً للحكومة عن طريق الضرائب ومكاسب أصحاب الحالات (وهذه المكاسب تحصل الحكومة ضرائب عنها أيضاً) فرص عمل في الحالات والمصانع التي تقوم بتصنيع واستيراد وتوزيع السلع التي يشتريها الأغنياء . ولنقل إنه بعد أن يشتري كل ما يريد يتبقى لدى الشخص الغني بعض المال ؟ فكيف يؤثر ذلك على هذا المجتمع ؟ لو أنه احتفظ به في أحد البنوك - بالإضافة إلى زيادة مبلغ القرض الذي يمكن أن يقدمه البنك - فإن الأموال تحقق الضريبة المفروضة على الفائدة ، ولو استثمر الأموال في صناعة فإن فرص العمل تزيد من أجل مساعدة المتعطلين ، كما أن أرباح الاستثمار سيدفع عنها ضريبة ، ولو اشتري عقاراً مثلاً فإن البائع سوف يدفع ضريبة للحكومة عن أرباحه ، ولو احتفظ بأمواله في المترizl فسوف يموت يوماً ما ويكون على ورثته أن يدفعوا ضريبة تراث ، وبعد ذلك ينفقون ما ورثوه ، وكل مرة ينفقون فيها شيئاً سوف تحصل الحكومة ضريبة عنه ، وهكذا تخلق فرص عمل ، ويتحقق رجال الأعمال أرباحاً ، وتكون هناك فرص أمام كثيرين للعمل والكسب .

والحقيقة أنه في الدولة التي يوجد بها إدارة عادلة وتفرض ضرائب حسب مستوى الثروة ، نجد أن الأغنياء مجبون على إعالة الفقراء بشكل مباشر أو غير مباشر . فرص العمل التي تنشأ والأرباح التي يحصل عليها رجال الأعمال نتيجة إنفاق الأغنياء تمثل دعماً مباشراً لآخرين . الضرائب التي يدفعونها - بشكل غير مباشر - تدعم الأقل ثروة عن طريق خدمات مثل المستشفيات والمدارس والطرق والخدمات والتسهيلات الأخرى التي تقدمها الحكومة .

في ماليزيا ، يوجد خمسماة ألف فقط من بين إجمالي عدد السكان البالغ ١٢ مليون نسمة ، (أى نسبة ١ من بين كل ١٢ من الكبار) يدفعون ضريبة دخل ، ويصل إجمالي ما يدفعونه إلى قرابة ٢٥٠٠ مليون رينجت سنويًا . عدد قليل فقط هو الذي يدفع ضريبة الدخل ؛ لأن مليونين ونصف المليون من العاملين معفيون ودخولهم تعتبر منخفضة . وفي الدول ذات التوجهات الاشتراكية مثل بريطانيا تجد أن كل العاملين من ذوى الدخول الثابتة يدفعون ضرائب ، ومن الطبيعي أن تحصل الدولة بذلك على دخل أعلى ، لكن العاملين من ذوى الرواتب المنخفضة مثلون بالضرائب ، ولذلك فهم يطالبون بزيادة الأجر باستمرار . وفي ماليزيا لا يشعر أصحاب الدخول المنخفضة بهذا العبء لأنهم لا يدفعون ضرائب ، كما أن الفجوة بينهم وبين أصحاب الدخول المرتفعة لاتسع باضطرارهم لدفع ضرائب .

وسياسة فرض ضريبة دخل على أصحاب الدخول المرتفعة فقط هي سياسة صحيحة وعادلة . وعن طريق هذه السياسة فإن ذوى المهارة في تحقيق الثروة مجبون على الإسهام بجزء من ناجح هذه المهارة من أجل المجتمع ، وخاصة لأولئك الأقل مهارة والأقل خطأ . والت نتيجة أن الفجوة لا تضيق فقط بين الأغنياء والفقرا ، ولكن الكل يستطيع أن يستمتع بمزايا الحياة الاجتماعية ومتوجات الموارد الطبيعية والإبداع الإنساني أى بكل نعم الله . كلما زادت ثروة قطاع من المجتمع زادت الفوائد والمزايا التي تجنيها القطاعات الأخرى الأقل حظا .

وربما يقول البعض لو أنهم كانوا أيضًا أغنياء ، لكانوا على استعداد للدفع ضريبة دخل ، وهكذا إذا أصبح الجميع أغنياء فإن الحصيلة الإجمالية من الضرائب سوف تزيد ، وسوف تخفف الحكومة من عبء ومسؤولية مساعدة الفقراء ، ولكن - لسوء الحظ - لو أصبح الكل أغنياء فلن يكون هناك أغنياء في واقع الأمر ، وذلك لأن القيمة السوقية للعمل البشري سوف ترتفع بشكل كبير ، وحيث إن العاملين لابد من أن يحصلوا على رواتب مرتفعة جداً لمعادلة دخولهم بدخول الأغنياء ، فإن السلع لابد من أن تُباع أيضًا بأسعار

مرتفعة ، وسيكون على الأغنياء الذين يشترون هذه السلع أن يدفعوا كثيراً من أجلها ؛ حيث لا يتبقى لهم الكثير من دخلهم لشراء احتياجات أخرى ، وإذا كان الأغنياء لا يستطيعون شراء أي كمية من السلع التي يريدونها فإنهم لا يكونون أغنياء بالفعل . والعاملون الذين يحصلون على رواتب مرتفعة سيكونون أيضاً غير قادرين على شراء ما يريدون حيث ستكون الأسعار باهظة ، وإذا لم يكن أحد قادر على الإتفاق كما يريد فإن الشروة لا يكون لها معنى . الوضع سوف يشبه حالة التضخم عندما تزيد الدخول ، بينما القوة الشرائية منخفضة بسبب ارتفاع الأسعار . والحقيقة أنه عندما تكون جميع الدخول عالية فإن أحداً لا يكون غنياً ... بل إن الكل يكونون فقراء بالفعل .

إن إصرار الاشتراكيين والشيوعيين على ثروات متساوية بالنسبة للجميع يقوم على تصور خيالي ناجح عن الجيش والحقوق . ونتيجة التجربة ليست مساواة في الثروة وإنما في الفقر . هذه الحقيقة يمكن رؤيتها في الدول الاشتراكية والشيوعية ؛ حيث نجد أن العمال وقطاعات المجتمع الأخرى كلهم فقراء ، أما الأغنياء فهم أولئك الذين روجوا للأفكار الاشتراكية والشيوعية ، وأصبحوا أذعاناً (محليه وقومية) ، يعيشون في رغد ، وي safرون هنا وهناك ، ويستطيعون تحقيق كل ما يصبوون إليه - إلى حد كبير إن لم يكن بالكامل - أكثر مما يستطيع غيره من الناس العاديين .

الفقر والغني أمور نسبية . الثروة تعني أن يكون لديك ممتلكات أو دخل أكثر من الآخرين . الفجوة بين المجموعتين من الناس لا بد أنها موجودة من قبل أن تكون هناك ثروة ، وإذا كانت الفجوة كبيرة وواسعة لدرجة وجود قلق واضطراب فسوف يقمع المجتمع بتضييقها ، وهنا يؤثر على المجتمع توجهان متناقضان : الأول هو أن ثروة الأغنياء لا بد من أن تصادر وتعطي الفقراء للقضاء على الفجوة بينهم ، ونتيجة تحرك كهذا هو أن يصبح الكل فقراء . وفي كل مكان تمت فيه هذه المحاولة كانت النتيجة أن أصبح الناس فقراء مستبعدين من قبل الحكومة ، بالإضافة إلى أن الدولة تصبح فقيرة لأن قوتها الإنتاجية تتأثر . والتوجه

الثاني هو أن ثروة الأغنياء لا يكون هناك ما يدعو لتصادرتها في عملية واحدة ، ولكن يجب فرض ضرائب مرتفعة عليها . ذلك لن يؤثر على محاولاتهم الحثيثة لتحقيق الثروة ، ولكن جزءاً مما يحققوه سوف يعود إلى الفقراء بشكل غير مباشر عن طريق الضرائب ، وكلما كانت الثروة التي يحققوها كبيرة ، ستكون الفوائد والمزايا التي تعود على بقية السكان كبيرة أيضاً .

وحيث إن الرغبة في الثراء - وهي طبيعة - لم يقض عليها ، فإن من لديهم القدرة والحكمة على جمع الثروة يمكن أن يستغلهم المجتمع . سوف يبنون المصانع الكبرى والمتاجر التي لن تزيد فقط من الضرائب التي تحصلها الحكومة ، وإنما تخلق أيضاً فرص عمل كثيرة .

وبينما يمكن استغلال القادرين على جمع ثروات من قبل المجتمع ، إلا أنه لا بد من الحذر والاهتمام بأن تظل الضرائب عند المستوى الذي لا يقتل حماستهم من أجل السعي لتحقيق المزيد من الثروة ؛ ففي بريطانيا ، عندما ترتفع ضريبة الدخل إلى ٩٥٪ مثلاً ، يتوقف السعي والمثابرة ، ويهاجر من لا يستطيع دفع الضرائب الباهظة إلى دول أخرى تكون الضرائب فيها أقل .

وفي هذا الإطار يمكن أن نشير إلى الأذية التي تبصّر ذهباً . لو ذبحنا الأوزة يمكن الحصول على ما يدخلها من بيسن دفعة واحدة ، لكن المؤكد والمفید هو أن زرها . ومنطق هذه الأمثلة شديد الواضح ، لكن البشر عندما يقعون في قبضة الجشح والخذلان يستطيعون أن يوقفهم . ومن هنا فإننا نرى كثيراً من المصادرات للملكية والإيمان بالأفكار الاشتراكية والشيوعية ومارستها . الجشح والطمع في الثروة المادية لا يتيح عنهم رخاء ، وإنما استعباد الدولة للشعب ، وهم واضح في كل الدول التي لا يوجد بها أغنياء . في بلاد كتلك ، لا يحصل أحد على دخل عالٍ في مقابل جهده أو خدماته ، بل يصبح الجميع فقراء . في الدول الشيوعية يصبح الكل عبيداً للدولة ، ويحصل كل فرد على دخل ويعيش على مستوى لا يختلفان كثيراً عن دخل ومستوى العبيد في الأزمان الغابرة . وتواجه الدول

الاشتراكية مطالب عديدة لزيادة الدخول ، ولا يتوقف الناس عن التحسن بسبب الفقر .

هذا هو أثر المادية غير المنضبطة على المجتمع الإنساني . الكل في مجتمع من هذا النوع يتمزق ويترنح من الحقد والحسد بشكل مستمر ؛ بحيث ينعدم السلام النفسي والوثام في المجتمع . ولو حدثت أي محاولة لشحن الناس ضد قطاع بعينه بزعم أنه هو المسئول عن فقرهم ، فيمكن بسهولة حفظهم على التمرد ، وذلك هو هدف الذين يستخدمون باستمرار شعار «الفقراء أكثر فقرا والأغنياء أكثر غنى» . من يرفعون هذا الشعار ليسوا مهتمين بتحسين أوضاع الفقراء وإنما باستغلالهم ، ولو أنهم نجحوا في سعيهم فسوف تكون النتيجة كما قلنا : مجتمع مادي في قالب اشتراكي أو شيوعي يتسم بالفقر والعبودية .

وحيث إن الاشتراكية تكرس المادية وتزرو السعادة أو الشقاء الإنساني للملوكية ، فإن المجتمع الذي يقبل هذه القيمة سيكون أكثر تعرضا للأيديولوجيا الشيوعية التي هي أكثر تكريسا للقيم المادية . وبينما الاشتراكية تسمع بقيم وأفكار أخرى ، فإن الشيوعية لا مكان فيها لأى قيم غير مادية . وحسب الشيوعية فإن السعادة الإنسانية لا يمكن أن تتحقق إلا بمصادرة الثروة لتصبح ملكا للدولة التي تقوم بتوزيعها على الناس «بالتوازي» ، وبعد أن وجدوا أن الأسلوب الاشتراكي لم (ولن) يفلح في المساواة بين أفراد المجتمع في الملوكية ، تحول كثير من الاشتراكيين إلى النظام الأيديولوجي الشيوعي . في الأيديولوجيا الشيوعية الفرد ليس موجودا كفرد ، وإنما كعضو في المجتمع الذي هو الدولة ، والمساواة تتحقق عندما يصبح كل أفراد المجتمع عبيدا للدولة ، أي أنها تعنى آخر مساواة بين العبيد . وبالرغم من أنهم يخدمون في ميادين مختلفة ، إلا أنهم يحصلون على المقابل نفسه . وحيث إن الدولة تحتاج إلى مخصصات مالية أكبر من أجل الجهاز الإداري والخدمات والتسلیح ، فإن المقابل الذي تدفعه للناس ، الذين هم عبيد للدولة ، لا يمكن زиادته . يمكن فقط إعطاؤهم دخولاً تكفي ل مجرد البقاء على قيد الحياة .

الفقر والثراء لا معنى لهما في المجتمع الشيوعي ما دام المفترض أن أحدا لا يملك دخلاً

أكثر أو أقل من الآخر ، والحقيقة أن الكل فقراء حيث لا تقلفهم حقيقة كون مستوى المعيشة منخفض . وبالنسبة للشيوعيين فإن المهم هو المساواة في الدخل الذي يفترض أنها ستتأصل المقد من نفوسهم ، وهكذا يدعون أن المجتمع الشيوعي ينعم بالسلام والسعادة ، إلا أن الحقيقة مختلفة تماماً عن هذه النظريات . لا يوجد أى دليل على أن المجتمع الشيوعي أكثر سعادة من المجتمعات الأخرى . الحياة عبد للدولة أو للقلة القوية لا يمكن أن تحقق سعادة لأحد ، ولا يمكن أن يكون هناك سلام نفسى بشكل دائم وحقيقى . إن النظام فى الدولة الشيوعية يجىء من الحكم المطلق الذى يستخدم الشرطة والجيش لقمع الناس .

لقد ثبتت دراسة الأنظمة الاشتراكية والشيوعية أن المادية وحدها لا يمكن أن تحقق السعادة للفرد أو المجتمع . الملكية ، حقيقة ، يمكن أن تخلق شعوراً بالرضا ، ولكن فقط عندما تكون أكبر من ملكية الآخرين ، وهذا أمر مؤقت . ستكون هناك مقارنات بالأخرين ، وسيتبين أن هناك من يملك أكثر من غيره ؛ الأمر الذى يخلق عدم الرضا . حتى ولو نجح الاشتراكيون والشيوعيون فى أن يجعلوا الجميع يحصلون على دخول عالية ومتاوية فإن الشعور بالرضا لن يتحقق ، وإن فشلوا ويفى التأمين فى الدخول كما هو عليه فسوف تستمر مشاعر الحسد والخذد ؛ أى أن المجتمع المكرس للمادية لا يمكن أن يتحقق السعادة . وبالتالي ما دامت الملكية والثروة لا يمكن استبعادهما تماماً من منظومة القيم فى المجتمع الإنساني ، فإن القيم الأخرى غير القائمة على المادية لابد من أن تجد لها مكاناً ، وأن يكون هناك سعي من أجلها . القيم الروحية يمكن أن تتصدر أمام ضغوط العالم المادى . الساكن فى الجبال مثلاً يمكنهم أن يتعلوا على مطالب المادية ، إلا أن الإخلاص التام للقيم الروحية لا يقدر على ممارسته كل أفراد المجتمع ، كما أن التمسك بالقيم الروحية لاستبعاد الآخرين لا يمكن أن يحل مشكلات البشر الذين يعيشون معاً فى مجتمع . والسبب لابد أنه واضح . فلو أن كل أفراد المجتمع نسوا الحياة الدنيا تماماً وذهبوا إلى الجبال ليصبحوا نساكاً أو رهباً ؛ فلو يكون هناك وجود للحياة الأسرية ، ولسوف يختفى الجنس البشري من على وجه الأرض فى مدى جيل

واحد؛ الأمر الذي سيكون أسوأ من الاتحرار الجماعي ، والاتحرار محرم في الإسلام لأنه يعادل هدم العقيدة . ولو أن البعض فقط هم الذين يصبحون نساكاً أو رهباً ، بينما البقية يعملون لإعالة الناسك والرهباني وأنفسهم بالطبع ، فسيكون معنى ذلك أن الأشطة والقيم الدينية ضرورية أيضاً حتى من أجل الناسك والرهباني ، ولن يكون إنصافاً لو أن الدين يعطى الناسك والرهباني مزايا وفوائد وفيرة ؛ بينما عملهم «الروحاني» يعتمد على العمل «الدنيوي» لآخرين . واضح إذن سبب عدم وجود رهبة في الإسلام .

والحقيقة أن وضعًا يثير فيه البعض ظهورهم تماماً للحياة ، بينما الآخرون يدعمون المجتمع من خلال أنشطتهم الدينية ، لهو وضع غير مجد . إن العالم والحياة والإنسانية حافظة بالمحن والمخاطر ، حتى في أيام النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- كان المترمتون في القيم الروحية يواجهون بكل وسائل التهديد . وللقضاء على ذلك كان مسلمو ذلك العصر بن فيهم النبي نفسه يولون الاهتمام المناسب للأمور الدينية للحصول على الثروة ومن أجل التملك ، وكانت إجادة الفتوح المادية وإقامة إدارة منظمة من بين الأنشطة المهمة التي شغل المسلمين أنفسهم بها لكي يكونوا أقوىاء بما يكفي للدفاع عن القيم الروحية والدين الإسلامي . والمؤكد أنه لن يكون من المقبول افتراض أن الأمور الدينية يمكن أن تنفصل عن الروحانيات في المجتمع الإنساني اليوم ، بينما لم تكن تلك الثانية ممكنة على أيام النبي .

يتضح مما سبق أنه لا القيم الروحية وحدها ولا الدينية وحدهما يمكن أن تتحقق السعادة لحياة البشر ، ولكي يكون المجتمع الإنساني سواءً أكان صغيراً أم كبيراً ، كاملاً وصحيًا فمن الضروري أن يكون هناك توازن بين القيم المادية والقيم الروحية . القضية هي أن نجد النسبة الصحيحة بين منظومتي القيم من أجل تحقيق السعادة المشودة .

التوجه في هذا العصر نحو المادية أكثر مما هو نحو الروحانية ، وكما سبق أن أوضحنا فإن الذين يدعون للروحانية أنفسهم مكبلون بالقيم المادية للدرجة أنهم يقيسون الروحاني

بالمعايير المادية ، وعليه فإن هذا العصر لا يمكن إلا أن يوصف بأنه عصر مادي .

ويدافع كثيرون عن سيطرة المادية بالقول إنها جزء من الطبيعة الإنسانية ، لكن المرء لا ينبغي أن يترك نفسه ليكون مقيداً بطبيعته . إن الفرق بين الإنسان والحيوان هو أن الإنسان يمكنه أن يتحكم في ميوله الطبيعية . الإنسان يستطيع أن يحدد الشيء ويندرسه لكنه يتلقى من كونه جيداً أو سيئاً ، وكتيبة لهذه الدراسة ، سواء كانت أكاديمية أم غير أكاديمية ، يصوغ الإنسان توجهاته وقيمه . الإنسان - المجتمع الإنساني بخاصة - يرفض الشرعاء وي فعل الخير .

إن توجّه هذا العصر نحو المادية أمر سيء بكل تأكيد بالنسبة للمجتمع الإنساني ، ولكن أي محاولة لکبح هذا التوجّه بالدعوة إلى عمارسة القيم الروحية بنسبة مائة في المائة ورفض القيم المادية تماماً فإنه لن يكون غير ناجح فقط ، بل إنه لن يصل أبداً إلى السعادة الإنسانية . وهكذا ينبغي على المتعلمين وعلى المستشرقين أن يوضّحوا المثال ويقدموه على أنه يمكن التقليل من عبادة هذا العصر للقيم المادية ، وليس ذلك بإحلال القيم الروحية المتطرفة ، وإنما بتحقيق التوازن بين ما هو مادي وما هو روحاني ؛ فعلى سبيل المثال ، لا بد من أن يؤدي العمل ، لا من أجل الدخل المادي فقط ، وإنما أيضاً لأنّه جيد ومفيد لمن يؤديه وللمجتمع كذلك ، وهكذا فإنّ الفرد يفخر بعمله ، ويكون سعيداً به بدلًا من الشعور بالإحباط كما هو شأن اليوم ؛ لأنّه لا يحصل على العائد الذي يريد ، والوسط هو الطريق الصحيح بالنسبة للمسلمين كما هو موضح في الآية الكريمة : ﴿وَاقْسِدُ فِي مَشْيَكَ وَاغْضُضْنَ مِنْ صُرْتِكَ إِذْ أَنْكَرَ الْأَمْوَاتَ لَصْوَاتَ الْحَمْرِ﴾ (١٩) (سورة لقمان . الآية ١٩) .

وبين لنا تاريخ الإسلام بوضوح أن المؤمنين به يمارسون الاعتدال في كل تعاملاتهم . الثروة ليست مكرورة ولا هي محمرة . ما يريد الإسلام هو أن يساعد الغنى الفقير طوعية عن طريق البر والصدقات ، وذلك عن طريق دفع العشور الدينية : زكاة المال وزكاة الفطر ، وبذلك لا يواجه المجتمع مشكلة عدم التوازن الفادحة .

وحيث إن دفع الزكاة هو أحد الفروض الواجبة التي ينبغي أن يقوم بها الأغنياء؛ فهم لا يباهون بذلك أو يعتبرون القراء مديعين لهم . وعندما يتصدقون بما يزيد عما هو مفروض عليهم ، فإن ذلك البر لا بد من أنه سيكون محل تقدير من المجتمع ، الأمر الذي يزيد من تحسن المناخ الاجتماعي وتهديد الطريق أمام مجتمع أكثر استقراراً وسعادة .

وينظر الإسلام نظرة جادة للفقر لدرجة أنه يعتبره قريباً من الكفر ، وبالرغم من أن المجتمع مسئول عن رعاية فقراته ، إلا أنه لا يوجد دليل على أن الفقر وحياة التسول يلقيان اهتماماً كما هو الأمر في العقائد الأخرى .

التسول عن طريق قراءة القرآن على الطرقات لا مكان له في الإسلام كما يبين لنا النص القرآني : ﴿وَأَمْرُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصْدِيقًا لِّمَعْكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَئِكَ فَارِيْهِ وَلَا تَشْفُرُوا بِإِيمَانِيْهِ ثُمَّنَقِيلًا وَلَيْلًا فَاقْتُفُونِ﴾ (٤١) .

(البقرة . الآية (٤١))

وبالنظر من أي جانب نجد أن الإسلام لا يكن احتراماً للفقر أو يرفض أو يستكر الشروء ، بل إنه على العكس من ذلك يعطي أولوية للاعتدال في كل شيء ، وفي الوقت نفسه فإن المجتمع مسئول عن إصلاح أي خلل يكون موجوداً به .

ويتوقف الاعتدال على التحكم العقلاني على القيم والتوجهات المتطرفة سواءً أكانت قائمة على المادية أو الروحانية . قيم وشعارات الاشتراكيين والشيوعيين التي تركز على المادية وحدها لا مكان لها في المجتمع الإسلامي ولا في أي مجتمع آخر في الحقيقة ، ومن هنا يصبح مهماً الاندور وتردد شعاراً مادياً دون أن تكون مدربكين لذوقه وتأثيره ، وقبيل كل شيء ألأندع شعار «القراء أكثر فقراً والأغنياء أكثر غنى» يتردد دون مبالغة بالحقيقة .

الفصل الثالث مأذنُ التعليم

... وفي الهلية هبط جبريل (و) ضمه إليه بقوة ثم تركه وقال : «اقرأ» قال : «ما أنا بقاري» ، ثم ضمه جبريل مرة أخرى ثم تركه قائلاً : «اقرأ

آلله جسله وشعر بخوف شديد وقال : ما أنا بقاري وهذا قراراً جبريل :

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ (١) **﴿خلق الإنسان من عقيق﴾** (٢) **﴿اقرأ وربك الأكرم﴾** (٣) **﴿الذي علم بالقلم﴾** (٤) **﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾** (٥)

كانت تلك هي الآيات الأولى التي نزلت من القرآن الكريم . طلب من النبي أن يقرأ . «اقرأ» هي الكلمة الأولى من الآية الأولى من القرآن الكريم ، ودور القراءة في انتشار الإسلام واضح ومحدد ، وهكذا أيضا دورها في التعليم ونشر المعرفة . في تفسيره للآية الرابعة من سورة «العلق» كتب أ . يوسف على - أحد مתרגمي القرآن الكريم - «القلم الباطني والسجل الباطني هما رمز الثورة الدائمة . الكلمات العربية «يعلم» و«يعلم» لهما نفس الجذر ، ومن المستحبيل أن توضح الترجمة المعنى الكامل للتوافق بين كلمات مثل «يقرأ» و«يعلم» و«قلم» التي تدل على القراءة والكتابة والكتب والدرس والبحث والمعرفة (التي تشمل العلم ومعرفة الذات والفهم الروحاني) و«يعلن» وهي المعنى البديل لكلمة «اقرأ» .

«اقرأ» هي أولى التعليمات التي نزلت على النبي محمد ، لها دور بالغ الأهمية في انتشار الإسلام ، ودون استطاعة القراءة فإن تعاليم القرآن والحديث ما كانت لتنتشر . أولئك الذين يستطيعون القراءة هم المتعلمون من أبناء أي مجتمع ، والتعليم والقدرة على القراءة متراوحة تقربا ، وحيث إن الإسلام يبحث أتباعه على أن يقرأوا فإن التعليم يتشر بالطبع أينما انتشر الإسلام . يشهد بذلك التاريخ الإسلامي : حيثما ينبع الإسلام فإن القراءة والمعرفة تضيّقان عالم المسلمين .

وسعى أبناء الملايو لكي يحصل أبناؤهم على فرص تعليمية أوسع أمر يتفق مع عقيلتهم الإسلامية ، ويعطى الانطباع بأن موقفهم من التعليم إيجابي وثابت . كما يكشف لنا البحث الدقيق أن أبناء الملايو عليهم أن يتأكدوا من الدور الذي يمكن أن يلعبه التعليم وال موقف الذي ينبغي عليهم أن يتخلدوه منه .

أبناء الملايو ما زالوا قلقين خشية أن يكون التعليم الذي تقدمه المدارس والمؤسسات التعليمية العليا يغرس في العقول قيمًا جديدة لا تصلح لهم ، كما أنهم - من جانب آخر - خائفون من أنه بدون التعليم فقد يتخلصون بمرور الزمن وتكون حياتهم ناقصة ، ويصبح هذا «المأزق» أكثر صعوبة بالنسبة لأبناء الملايو ، حيث إنهم جزء من دولة متعددة الأجناس ؛ أي خطورة في الاتجاه الخطأ يمكن أن تعمق الفجوة بينهم وبين الجماعات العرقية الأخرى .

خشية أبناء الملايو من احتمال أن تحمل القيم المادية الجديدة محل القيم الروحية نتيجة لما يسمونه بالتعليم «العلمانى» أو «الغربي» ، هذه الخشية لها جذور في تاريخ تطور نظام التعليم الراised في هذا البلد . وبالرغم من أن هناك دليلاً على أن أبناء الملايو كانوا يعروفون القراءة والكتابة قبل مجيء الإسلام ، إلا أنها حقيقة ثابتة كون التعليم على نطاق واسع وبشكل منهجي قد بدأ باعتناقهم الإسلام .

كان التعليم الذي قدمه المسلمون العرب والهنود لأبناء الملايو عند اعتناقهـم الإسلام ، كان مقصوراً على «العقيدة» (الإيمان والاعتقاد) و«ال العبادة» (مبادئ وطقوس العبادة) ، وقد كان ذلك صحيحاً ومناسباً ؛ حيث إن أبناء الملايو كان لابد من أن يحصلوا على فهم شامل لدينهم الجديد ، ويطرحوا أكبر قدر ممكن من معتقداتهم القديمة .

الهندوسية والأرواحية (الاعتقاد بأن الأرواح سكت كل المخلوقات والنباتات والأماكن والأشياء) قد شكلت العقلية الملايوية وسيطرت عليها قبل مجيء الإسلام . هذه المعتقدات التي كانت متصلة في أبناء الملايو كانت متعارضة تماماً مع الإسلام ، ولكنها يصبحوا مسلمين كان لابد من استئصالها لكي يحل محلها إيمان إسلامي واضح . من هنا

كان تعلم العقيدة والعبادة ، ليس فقط أمراً حيوياً بالنسبة لهم في بداية تحولهم إلى الإسلام ، دائمًا يظل هكذا دائمًا ، وهناك أدلة على أن إهمال تلك المجالات في تعليم الإسلام من شأنه أن يجعل المعتقدات القديمة تستولي عليهم مرة أخرى .

إن تطوير الأبجدية الجاوية للغة الملايو كان يهدف كذلك إلى نشر الإسلام وتيسير فهمه ؛ فالأبجدية الجاوية التي كانت مستخدمة للترجمة والتفسير وشرح تعاليم وأحكام الإسلام ، استخدمت كذلك لنشر أدب الملايو وتسجيل الأحداث وكتابة الكتب والمقالات ، ولكن الأبجدية استخدمت على نحو أوسع لنشر المعرفة في مجالات العقيدة والعبادة والشريعة (القانون الإسلامي) وفي مجالات أخرى كثيرة وثيقة الصلة بممارسة مبادئ الإسلام .

وحيث إن تعليم أبناء الملايو عند اعتناقهم للإسلام كان مقصوراً على «العبادة» و«الأخلاق» وغيرها ، فإن المجالات الأخرى التي استكشفت وتم ارتياها من قبل العلماء والرياضيين المسلمين لم تنتشر بين أبناء الملايو . وهكذا فإن التطور الذي حدث في مجتمع الملايو بعد اعتناق الإسلام كان محدوداً بمارسة العبادات والقواعد الواضحة المتوصص عليها وبعض القيم الإسلامية الأخرى . حقيقة أن الإسلام دين كامل متزلف من عند الله عن طريق نبيه ليشره في العالمين حتى نهاية الزمان ، وأنه يحتوى على نظام للحياة والعيش الواسع ، ويضم كل شيء من أجل سعادة الإنسان في هذا العالم والعالم الآخر ، هذه الحقيقة لم تكن واضحة بعد أن دخل أبناء الملايو في الإسلام . أسلحة أبناء الملايو كانت مقصورة على مجالات معينة ، ولذلك لم تتعكس عظمتها على تطورهم بعد اعتناقه ، ولا هي انتشرت بعد منهم . من جانب آخر فإن أسلحة العرب حققت ثواب وعظمة انتقلت إلى الترك والسلاف والفرس والهند والملايويين في الشرق والبربر والمصريين والأوروبيين في الغرب .

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقَمُوداً وَلَيْسَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَكَبَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بِاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقَنَعَ عَذَابَ الدَّارِ (١٦)

سورة آل عمران . الآية (١٩١)

إن الذين يذكرون الله دائمًا ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ولا يبددون نعم الله سيفيرون أقوياء في إيمانهم وعارفين بالعالم من حولهم ؛ أي أنهم سيفيرون رجال إيمان وعلم وليس رجال إيمان فقط لايفهمون نعم الله ومجريدين من المعرفة .

هذه الآية وغيرها كثيرة في القرآن الكريم تؤكد أهمية مراعاة الله والتفكير في خلقه عند ذكره .

إلى جانب الأمور المتعلقة بعبادة الله مثل أداء الصلاة والصيام والحج ، يحتوى القرآن الكريم أيضًا على آيات تتعلق بالسياسة والاقتصاد والعلم والتكنولوجيا وال الحرب والجريمة والزواج والأخلاق والفن والأدب ... إلخ .

إن التطور والتقدم في غرب آسيا وشمال أفريقيا وإسبانيا وشرق أوروبا وأسيا الوسطى وجنوب آسيا بعد انتشار الإسلام بها ، لا وجود لهما بين أبناء الملايو ، وبالرغم من أنه قد تكون هناك أسباب أخرى لهذا النقص في التقدم والتطور ، فلابد أن يكون أحد أسباب ذلك هو أن أبناء الملايو ركزوا فقط على بعض التعاليم الإسلامية وأهملوا الجوانب الأخرى ، وخاصة تلك المتعلقة بالأمور الدينية ، الأمر الذي يتعارض تماماً مع دعوة الله سبحانه وتعالى في سورة القصص :

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَكَ اللَّهُ الدَّارُ الْآخِرَةِ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَخْسِنْ كَمَا أَخْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَغْنِيَ الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)﴾

سورة القصص . الآية : (٧٧)

عندما بدأ البريطانيون احتلال ولايات الملايو ، وأنشأوا المدارس لتدريب موظفين لحكومتهم ، كان التعليم بين أبناء الملايو ما يزال مقصوراً على العقيدة والأخلاق والعبادة في

الإسلام . كان مفهوم التعليم كوسيلة لنشر المعرفة العامة أو المتخصصة لتدريب العاملين ، كان مفهوماً جديداً وغريباً عليهم ؛ فكانوا يتظرون بارتياح إلى تطوير نظام المدارس الذي أدخله البريطانيون ، وكانتوا يعتبرون ذلك التعليم غريباً «علمانياً» ، وكانتا قلقين على نحو خاص بالنسبة لتأثير ذلك على دينهم ، الإسلام .

وقد تعمق هذا الارتباط بسبب كون كثير من المدارس في مرحلة الاستعمار البريطاني كانت تنشأ وتدار من قبل هيئات تبشيرية مسيحية ، وإلى جانب تقديم التعليم «العلمانى» كانت تلك المدارس تدرس الدين المسيحى وتنشره ، كما كانت هناك كنائس صغيرة وصلبان فى كثير من تلك المدارس التبشيرية .

ليس من المستغرب - إذن - أن يعتقد معظم أبناء الملايو أن التعليم الذى تقدمه المدارس الإنجليزية كان عن المسيحية أو قائماً عليها ، كما كانوا يشعرون بأن تعليمياً من ذلك النوع من شأنه أن يضعف إيمانهم بالإسلام ، وقد أدت هذه النظرة إلى ظهور توجه عام سلبي نحو التعليم الحديث المنظم ، والتعليم الذى تقدمه حكومة الاستعمار البريطاني . وازداد هذا التوجه صلابة عندما أصبح الإنجليز يشieren إلى التعليم من خلال المدارس الإنجليزية بـ«التعليم الغربى» . مفهوم أن التعليم والمعرفة التى جلبها الإنجليز أمور «علمانية» أو «غربية» شكل توجهات أبناء الملايو لدرجة أن ذلك أصبح راسخاً فى أذهانهم ، وإلى يومنا هذا ما زالت معارضة ما يسمى بالتعليم العلمانى موجودة والجدال مستمر حول مزايا وعيوب التعليم غير الدينى .

ونتيجة لهذه النظرة ، ولعدم الثقة ، لا يبدى أبناء الملايو اهتماماً ولا يحقّقون أي إنجاز في كثير من مجالات المعرفة المهمة ، وفي كل مرة يبدأ مشروع للارتقاء بمستوى أبناء الملايو في مختلف المعارف ، لا يعوق نجاحه سوى الشك في تأثيره على الإيمان الدينى .

هل التعليم الذى أدخلته حكومة الاستعمار كتعليم «علمانى» أو «غربي» نبع بالفعل من الغرب ، وهل يتصادم حقيقة مع الإسلام؟ وللإجابة عن هذا السؤال الذى كثيراً ما حير

أبناء الملايين يحتاج لدراسة ومقارنة تاريخ الإسلام والدول الأوروبية التي يشار إليها دائمًا بالغرب .

في الجاهلية ، أو فترة ما قبل الإسلام ، كانت أوروبا - بما في ذلك روما واليونان - ترث في عصور الظلام ، ويحدد المؤرخون الغربيون هذه العصور (التي تعرف أيضًا بالعصور الوسطى) بأنها تبدأ في القرن الخامس (٤٧٠ م) . أثناء تلك الفترة كانت الشعوب الأوروبية مختلفة إلى حد بعيد . النظام الإقطاعي جعل الأوروبيين عبيداً للأمراء المستبدین ، وكان الأمراء مثل الشعب أميين ، بينما كانت قلة قليلة من القساوسة هم الذين يستطيعون القراءة والكتابة .

من القرن الرابع إلى القرن السابع دمرت هجمات البرابرة الإمبراطورية الرومانية ، والبرابرة جنس عنيف فقط وهمجي محب للتدمير والقتال . أنشأ البرابرة دولات صغيرة كانت تفتقر إلى القوة والدراهم ، وكانت في حالة حرب مع بعضها باستمرار . وسط هذه الظروف المضطربة وظلم أمراء الإقطاع لل فلاحين ، كان من المستحيل أن تقدم الثقافة أو التعليم . استمرت عصور الظلام من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر عندما بدأت الحضارة الحديثة بعصر النهضة التي تجت عن تأثير الحضارة الإسلامية في إسبانيا (٧٥٥-١٤٩٢) وأسيا الصغرى .

في تناقض حاد مع ذلك ، جلب الإسلام - مع ضوء الإيمان الصحيح - تقدماً تعليمياً وثقافياً يعدل ومدى لاظنير لهم في التاريخ . تصادفت عصور الظلام في أوروبا مع ما يطلق عليه المؤرخون العصر الذهبي للإسلام عندما كان الفن والمعرفة في أوج ازدهارهما ؛ أي عندما كانت الحضارة الإسلامية قمة الإنجاز في العالم .

ويبنما كان الإقطاع يروع أوروبا ، كانت بغداد هي مركز البحث في مختلف ميادين المعرفة ، وفي ظل الخلفاء العباسيين - وخاصة الخليفة هارون الرشيد في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع وبنته «المأمون» - كان هناك تشجيع على طلب العلم عن طريق منح

الجوائز وتقديم مكتبة غنية كانت مكاناً لنشاط هائل - الكتابة والدرس والترجمة والقليل - في مختلف أفرع المعرفة .

وعندما وصل الإسلام إلى إسبانيا في أوروبا الغربية مرت شبه جزيرة أيبيريا كلها بمرحلة ذهبية مزدهرة ؛ فكانت قرطبة تحت حكم عبد الرحمن الثالث أعظم وأكثر تقدماً مما هي عليه اليوم ، وكان يوجد بالمدينة أكثر من ٦٠٠ مسجد وعشرات المستشفيات والمدارس والمكتبات . وعلم المسلمين مسيحي أوروبا الكثير من فنون النسج وصناعة العطور إلى الرياضيات الحديثة التي اتتها العقل العربي ، ولم يكن التعليم مقتصراً على الأغنياء ، وإنما انتشر بين الفلاحين أيضاً .

ازدهرت اللغة العربية لتصبح لغة للفنون والعلوم ، وتم سك مصطلحات أكاديمية عديدة مثل الجبر والتقويم ؛ حيث إن الرياضيات والفلك والجغرافيا إما أنها تأسست أو تطورت على أيدي المسلمين . ومن بين العلماء المسلمين البارزين في مختلف المعارف كان هناك «ابن سينا» (٩٠٠-١٠٣٧م) في الطب و مجالات أخرى عديدة . و«ابن رشد» (١١٢٦-١١٩٨م) في قرطبة وإسبانيا في الطب والقانون ، و«الخوارزمي» في الرياضيات المتقدمة وغيرهم من الشخصيات البارزة مثل البيروني وابن خلدون وابن بطوطة وأبو موسى جابر . ومن بين الكتب التي وضعها العلماء المسلمين ، والتي أثرت في الفكر الغربي وما يسمى بالعلم الغربي «كتاب المناظر» لابن الهيثم عن البصريات ، و«المسائل في الطب» لحنين بن إسحق العبادي المعروف للأطباء الأوروبيين باسم The vade Meum of Jo hanitius ومرجع في الطب لأبي كبر محمد بن الرازي بعنوان «كتاب المنصورى» ، و«القانون» أو «قانون الطب» لابن سينا . وكان التأثير الأكبر للرياضيات ، الفرع الذي يتحكم كل المجالات العلمية الأخرى . ويقوم النظام الحسابي الغربي الحالي على الأرقام العربية - النظام الذي يستخدم تسعة أرقام بالإضافة إلى الصفر ، والذي يمكن أن يعين أي كمية مهما كانت كبيرة . كانت الأرقام الرومانية المستخدمة قبل ذلك عقبة في سبيل تطور الرياضيات

والحساب العام ، وبواسطة الأرقام العربية أصبحت كل عمليات الحساب والقياس في جميع العلوم ممكناً وأكثر سهولة ؛ فالنظام الثنائي المستخدم اليوم في علوم الكمبيوتر خاصة ما كان له أن يتضور ويتحقق لو لم تكن هناك الأرقام العربية بداية . هكذا كان إسهام الإسلام في التعليم في العالم منذ القرن الرابع عشر .

كان مجىء الإسلام إلى أي منطقة في أوروبا - شمال أفريقيا ، غرب آسيا ، آسيا الوسطى ، الهند . يتبعه تقدم سريع يعكس مستوى عال من القدرة في مجالات الهندسة والعمارة والملاحة والزراعة والفلكلور وغيرها من المجالات المهمة . امتدادات طويلة من الطرق القوية ، محطات للمياه ، مساجد رائعة ، جسور فوق الأنهر الواسعة ، كل ذلك يشهد على التفوق في ميادين كثيرة ، وكثير من هذه الأشياء باق إلى اليوم ، بل إن بعضها لا يمكن تقليله أو التفرق عليه بالرغم من الأساليب الفنية والأدوات الحديثة . قصر الحمراء في غرناطة جنوب إسبانيا واقع محل في أجرا بالهند تخلب الأنظار .

وقد رأينا كيف تعلم الأوروبيون في إسبانيا كثيراً من العلوم والصناعات من الفاتحدين المسلمين ، وعندما انتهت عصور الظلم في أوروبا بحلول عصر النهضة في القرن الخامس عشر ، اتسعت الجهود للتعلم من المسلمين . قرأوا أعمال ابن سينا وابن رشد جيداً ، وحقق الطلاب الأوروبيون نفوذاً في مجالات عدة إلى جانب الكتب التي ترجموها من العربية إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوروبية ، ومن أسف أن أسماء المؤلفين والجهات المعنية قد تغيرت لتناسب اللسان الأوروبي دون إشارة إلى الأسماء الأصلية .

وفي نهاية الأمر فإن المعارف التي كانت تخص المسلمين أصبحت تعرف باسم التعليم الغربي ، كما تم تعريب أسماء المواد ومؤسساتها الأصليين في اللفظ والنكهة ! واتجه الباحثون الأوروبيون نحو البحث والإضافة إلى المعرفة التي حصلوا عليها من المسلمين ، وفي النهاية يهزمون المسلمين في نفس المجالات التي كان المسلمون روادها . وفي الوقت الذي استعمرت فيه الملابي كان الغرب قد أثقل تلك المعارف ، وبدأ يستعيد المناطق التي كان العرب قد فتحوها .

عصر النهضة هو الذى جلب المرحلة الحديثة إلى أوروبا ، وكان يتم الحصول على المعرف فى شتى المجالات بشكل منظم ، فكانت النتيجة تقدماً غير عادى .

أنشئت مؤسسات تعليمية أكثر ، ومن قاعات الدرس والختبارات فى أوروبا تم صنع وإنتاج كل أنواع التقنيات والمواد الصناعية ، لكن الدراسة سوف تكشف لنا أن كل المعرف والمهارات نجت من إسهامات الرؤاد المسلمين . التعليم «الغربي» أو «العلمانى» ليس غريباً ولا علمانياً .

التعليم والمعرفة التى لدى الغرب ، والتى نشرها عبر العالم هى فى حقيقتها إسلامية ، وعندما كان المسلمون متوفين فى ذلك انتشار الإسلام بسرعة ، ولن تكون مبالغة إذا قلنا إن المعرفة ساعدت على انتشار الإسلام ، والمعرفة التى كانت مفيدة فى انتشار الإسلام لا يمكن أن نقول إنها فى حالة صراع معه .

وهكذا يتضح لنا أن التعليم الذى يصفه الغرب بأنه «علمانى» أو «غربي» لم ينشأ فى أوروبا أو فى الغرب ، ولم يثبت لنا التاريخ أن تلك المعرفة كانت فى حالة صراع مع الإسلام ، لا يوجد مجال معرفي سى أو جيد فى ذاته ، كل شىء يتوقف على كيفية استخدامه ؛ فكثير من اليهود يدرسون الإسلام ، ولكنهم يستخدمون معرفتهم لاعطاء صورة سليمة عن الدين . وفكرة أن معرفة اليوم فى صراع مع الإسلام لا تفيد سوى أعداء الإسلام ، ولا ينبعى أن يروج المسلمون لهذه الفكرة ؛ لأنه لا يوجد دليل عليها .

لكن فى وقتنا الحالى ما زال ينظر إلى انتشار التعليم العلمانى بارتياح ، وهذا يتضح من النداءات المتكررة بأن التعليم الدينى يجب الابحث ، وأنه لا بد من أن يقدم بكميات أكبر وعن طريق وسائل أكثر فعالية . وهناك مطالبات مستمرة بأن التعليم الدينى أو تدريس العقيدة والعبادة لا بد أن يكون بتوسيع فى المناهج وكذلك فى الورق المخصص له ، وأنه لا بد من زيادة عدد الطلاب الذين يدرسون الدين فى الصف الثالث .

ما وضع التعليم الديني اليوم؟ وهل يحق لابناء الملايو أن يقلقا بشأنه؟ في الفترة البريطانية كان أطفال الملايو يحصلون على قدر قليل من التعليم في «العقيدة» و«العبادة» وكانت الدروس في هذه المواد في مدارس الملايو تعطي مفصولة في المساء . أما في المدارس الإنجليزية فلم تكن تدرس أو لعلها كانت تدرس بشكل غير رسمي . وبالنسبة لأطفال الملايو كان الذي يقوم بتدريسيها هو معلم القرآن وفي المنازل ، نظير أجراً رمزي ، كما كان بعض الآباء يرسلون أبناءهم إلى مدارس «هندوك» للدراسة القرآن والدين في مقابل رسوم قليلة ، وكان عدد قليل من الأطفال هم الذين يقبلون في المدارس الدينية الحكومية (العربية) مثل «مكتب محمود» في «أورسيتار» . أما في المناطق الريفية فكان التعليم الديني لا وجود له أحياناً .

و بالرغم من أن تعليم العقيدة والعبادة أثناء الفترة البريطانية لم يكن منتظاماً ، ولم يلق سوى اهتمام قليل من قبل حكومة الاحتلال ، إلا أن أبناء الملايو لم ينحرروا عن الإسلام . كانت معرفتهم الدينية مزيلة وناقصة ، ومع ذلك لم تضعف عقيدتهم أو ممارساتهم . كانت الملائج الإسلامية واضحة في حياتهم ، صحيح أن بعض مظاهر الجريمة وتناول المسكرات وتعاطي المخدرات وبعض مظاهر السلوك غير اللائق مثل عدم احترام الوالدين والمعلمين وكبار السن ، صحيح أن مثل هذه المظاهر كان موجوداً ، إلا أنها لم تكن متشرة على نطاق واسع . كان المجتمع الملايو منظماً ومنضبطاً ، وكانت له قيادة دينية سواء صغيرة أو كبيرة ، وربما كانت المساجد صغيرة ، ولكن كان يوجد بها الموظفون اللازمون .

كانت القيادات الملايوية في ذلك الوقت -أى السلاطين ومستشارיהם- لهم وضع ديني واضح ؛ ففي الدول الإسلامية الأخرى التي كان الغرب يحتلها ، كانت الدعوة إلى المسيحية تتم بحرية ، ولكن في ولايات الملايو لم يكن مسموحاً للحكام المستعمرين بأن ينشروا دينهم بين أهل الملايو الذين كانوا كلهم من المسلمين . وبين لنا الوضع أثناء فترة الاحتلال أن أبناء الملايو لا يمكن أن يتخلوا بسهولة عن الإسلام ، وأنهم مستعدون للجهاد من أجل الحفاظ عليه .

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِسْلَامِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٢٥) وَأَنْ سَعْيَهُ سُوفَ يُرَى﴾ (٢٦)

سورة النجم . الآية (٤٠ ، ٣٩)

أما بعد الاستقلال فالوضع مختلف تماماً؛ حيث أصبح لتعليم العقيدة والعبادة وضع رسمي خاص . جميع المدارس بما فيها تلك المملوكة للبعثات المسيحية التبشيرية ملزمة بأن تقدم دروساً في الدين طبقاً لنهج رسمي . مدرسون الدين مدربون جيداً وعددهم أكبر من ذي قبل ، كما أنهم يتمتعون بوضع المدرسین الآخرين من ممارسون المهنة ، ولم تعد العقيدة والعبادة مفصولة عن بقية المواد الدراسية . بالإضافة إلى ذلك فإن عدداً كبيراً من الطلاب أصبحوا يختصرون في «أصول الدين» ودراسة «السيرة» في مراحل التعليم والدراسات العليا .

ولا يستطيع أحد من الذين عاصروا افتراض الاحتلال - وما زالوا أحياء إلى اليوم - أن ينكر أن اهتماماً كبيراً قد أولى لتعليم العقيدة والعبادة ، وأن زيادة كبيرة قد طرأت على محتوى المنهج ونسبة الطلاب الذين يدرسون هذه المواد . ومع ذلك فإن الشكوك بالنسبة للتعليم «العلماني» والزعم بأن هناك إيماناً للتعليم الدينى ما زالت تتردد . إن مازق أبناء الملايو وقياداتهم هو ما إذا كان بالإمكان إزالة تلك الشكوك عن طريق زيادة محتوى المنهج والوقت المخصص لها وعدد الطلاب الذين يدرسون مواد العقيدة والعبادة ؛ فماذا يمكن أن يحدث بالنسبة لمجالات المعرفة الأخرى ، والتي هي حيوية أيضاً بالنسبة للمسلمين ولنمو الإسلام؟

لقد تم توضيح الفرق بين الإسلام وغيره من الديانات قبل ذلك ؛ حيث إن الإسلام لا ينصب فقط على أمور العقيدة والآيات . الإسلام يقرر كل جوانب الحياة وما بعد الموت بالنسبة للمؤمنين به ، وكل ما يقوم به المسلم خاضع لتعاليم دينه ، وهكذا لا يوجد في الإسلام ثنائية «الدين» و«العلماني» ، وحيثما وجدت المعرفة فلا يمكن أن يكون هناك فصل بين الدين والعلماني في التعليم . كل التعليم المقيد للجنس البشري يصبح جزءاً من المعرفة

التي يبحث الإسلام المؤمنين على السعي إليها ، والمسلم المتعلّم جيداً في أي فرع من أفرع المعرفة هو «عالم». هكذا كان الإمام «الغزالى» عالماً كما كان «ابن سينا». الفارق الوحيد هو أن كليهما تفوق في تخصصه . الغزالى تفوق في أمور العقيدة والسيرة وغيرهما للدرجة التصوف بينما ، تفوق ابن سينا في الرياضيات والطب ، إلا أن مكانتيهما كمسلمين لا خلاف عليها ولا مجال للمغاضلة بينهما . كلاهما مسلم ولا يستطيع أحد أن يقول إن إسلام ابن سينا كان أقل من إسلام الغزالى . مثل هذه المقاييس والمقارنات لا وجود لها في الإسلام . لابد من إدراك ذلك ؛ لأن كثيرين جداً يميلون إلى المغاضلة والمقارنة وإصدار الأحكام عن درجة إسلام الشخص ، كما يستخدمون معرفة العقيدة وال المجالات المتصلة بها كمعايير للحكم على مكانة الشخص المسلم ، وبالتالي يعطون قيمة خاصة لدراسة العقيدة ، ويحاورون قياس درجة إقطاع المسلم بما وصل إليه في دراسة هذا الموضوع .

صحيح أن الإسلام يطلب من المسلمين أن يدرسوها العقيدة ، ولكنه يطلب منهم أيضاً أن يدرسوا كل المعارف . إن إدارة الظاهر للمعارف الأخرى لن يجعل المرء أكثر إسلاماً ، وحيث إن القدرات الإنسانية مختلفة فإن المجتمع الإسلامي لابد من أن يكون به أناس مختلفون ومؤهلون بدرجات مختلفة في ميادين مختلفة ، وكما هو في حالة الغزالى وابن سينا فإن المجتمعات الإسلامية - سواء كانت في نفس الزمان والمكان أو في أزمنة وأماكن مختلفة - من المختلط أنها ستغزو أناساً متعلمين في مختلف الميادين . وما دام هناك إيمان ، وما دامت تعاليم الإسلام تدخل أنشطة المجتمع ، سيبقى الإسلام هو دين المجتمع . وهكذا لا يوجد أى مبرر للخوف من أن الإسلام سوف يذوب إذا نحن لم نكرس الوقت كله للدراسة العقيدة . وبينما ينبغي علينا أن نخصص وقتاً للدراسة هذا الموضوع ، يجب كذلك أن نعطي الوقت الكافي لبقية المعارف والعلوم التي هي على نفس الدرجة من الأهمية بالنسبة للمسلمين . وكتبيجة لتقسيم الوقت بهذا الأسلوب فإن المسلمين لن يظلوا أوفياء لدينهم فقط ، وإنما سيظلون أوفياء كذلك أمام أعدائهم ، ولو فهمنا ذلك جيداً فلسوف يستطيع المسلمون توزيع وقتهما والتفوق في كل المجالات بما في ذلك العقيدة والعبادة .

أما مقدار الوقت الذي يجب تخصيصه لدراسة العقيدة والعبادة ، فذلك أمر يتوقف على حكمة القيادات الإسلامية . يجب أن يكون دليلاً لهم هو تقويم كافة أفرع المعرفة الإسلامية ؛ بحيث لا يتم التركيز على فرع معين دون الأفرع الأخرى ، ولو تناولنا هذا الأمر باهتمام فسوف يكون هناك توازن بين دراسة العقيدة وغيرها من موضوعات .

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانشَرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَإِذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لِمَكْرُمَةِ نَفْلُوْدَةِ (١)﴾

سورة الجمعة - الآية ١٠ .

يتضح لنا من ذلك أن الوقت ليس من أجل الصلة فقط ، وإنما للعمل كذلك ، من أجل السعي للرزق ومن أجل الدرس ؛ حيث إنه لا يمكن إتقان أي عمل دون الخبرة المطلوبة لزداته . وقد رأينا - من تاريخها - أن المواد التي تدرس في المدارس لم تتبع أصولاً من الغرب ، وأنها لا تتعارض مع الإسلام . كل المعرف قامت على الدراسة والبحث ، وطبقها المسلمون حسب تعاليم دينهم ، وغرت وانتشرت مع الإسلام إن مقوله النبي عن طلب العلم ولو في الصين توضح لنا القيمة العليا التي يعطيها الإسلام للمعرفة بوجه عام . لقد كان ذلك القول قبل أن يصل الإسلام إلى الصين ، والمؤكد أن العلم المشار إليه لا يمكن أن يكون المقصود به «العقيدة» و«العبادة» .

﴿فَلَمْ سِرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَا خَلْقُنَا إِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ النَّشَاءَ الْآخِرَةَ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢)﴾

سورة العنكبوت - الآية (٢٠) .

هذه السورة تطلب من أن تتأمل خلق الله ؛ لأننا كلما تأملناه بعمق فسوف تكون أكثر خشوعاً . يقول الطبيب القرطبي المسلمين ابن رشد (١١٩٨-١١٢٦) :

«إن من يعرف تشريح وفسيولوجيا الإنسان سوف يتعجب إيمانه بالله» ، وهذا صحيح لأن أولئك الذين يتأملون تكوين جسم الإنسان وكيف يعيش ويتحرك لا يمكن إلا أن يكونوا

مبهورين أمام تحقق قدرة الله . التأمل يؤدي دائمًا إلى الخبرة والتعلم ، واضحة وبالتالي أنها مأمورون بأن ندرس خلق الله ، وعدم القيام بذلك يصل بالتأكيد إلى درجة عدم تقدير نعم الله علينا .

والى جانب أن الإسلام لا يحرم العلم ، بل إنه يحسن على طلبه ، هناك اعتبار الإضافي ، وهو أن الجماعات أو الجماعات التي تقصها المعرفة في هذه الأزمة الحديثة سوف تتعرض للظلم والاحتلال . وقد أثبت لنا التاريخ كيف كان من السهل هزيمة الجماعات المختلفة على أيدي الجماعات المتقدمة والناجحة . وبعد هزيمتها ، فإن الجماعات المختلفة في المعرفة والمهارات «الدنيوية» بالرغم من علمها «الدينى» ، سوف تفارق دينها في النهاية ، وإذا لم يحدث ذلك في خلال جيل واحد ، فسوف يحدث في الأجيال التالية . كما يبين لنا التاريخ أيضًا كيف يمكن أن تهزم الدول الإسلامية ، وأن يضطهد المسلمين تحت حكم غير المسلمين الذين يصررون على تدمير الإسلام ، وحيث إنه لن يكون هناك غزو عن طريق استخدام القوة ، إلا أنه يمكن أن يتم بوسائل أخرى ، وإذا لم يكن لدى المسلمين الخبرة الاقتصادية فإنهم سوف يتقبلون الاحتلال الاقتصادي الذي سيوهن روحهم . وإذا كانوا يفتقرن إلى المهارات الحديثة سوف يتم احتلالهم عن طريق تلك المهارات التي تقصهم .

«وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا أَسْتَطَعُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ يَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُولِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تَفَقَّدُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفِ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُقْلِمُونَهُنَّا»

سورة الأفال - الآية (٦٠) .

هذه الآية التي توكل أهمية الاستعداد لواجهة الأعداء تشير إلى السيوف والسيوف ومعدات الرمي بالحجارة التي كانت معروفة أيام النبي . الأسلحة المطلوبة اليوم من المؤكد أنها لن تكون السيوف والنبل ، وإنما المدافع والطائرات والبوارج . . . وغيرها من المعدات التي تتطلب معرفة بصناعتها واستخدامها ، والمسلمون الذين يفتقرن إلى هذه المعرفة من

المؤكد أنهم ملومون في نظر دينهم . وال المسلمين الذين يعوقون إتقان العلوم والمعرف الخاصة بياتاج واستخدام تلك المعدات ويعتبرونها معارف وعلوما « علمانية » ، ربما يرتكبون خيانة في حق دينهم أكثر مما يحاولون الحفاظ عليه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسُحُوا يَقْسِنَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْقَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِكُمْ وَالَّذِينَ أَفْوَى الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ حَبِيرٌ ﴾

سورة المجادلة - الآية (١١)

إن الله يهب العلم والمعرفة لن يريد من عباده ، والذين وهبوا العلم والمعرفة فإنما قد وهبوا الخير الكثير .

﴿ أَنَّا لَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ حَلَقْتَ ﴿١﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رَفِعْتَ ﴿٢﴾ وَإِلَى الْجَهَنَّمِ كَيْفَ نَصَبْتَ ﴿٣﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سَطَحْتَ ﴿٤﴾

سورة الغاشية الآية (٢٠-١٧)

ولاشك في أن العلوم والمعارف المقصودة ليست مقصورة على تلك الخاصة بالعقيدة والعبادة والسيرة . ولو كانت تلك فقط هي المقصودة لكان القصد قد تم توسيعه ولكن النبي قد أكدته بنفسه ، ولكن الأحاديث النبوية لن تذكر شيئاً من هذا القبيل ، بل على العكس من ذلك ، نجد أن المسلمين مدعاوون لأن يطلبوا العلم ولو في الصين .

ولن تكون مبالغة إذا قلنا إن المسلمين ، وخاصة في هذه البلاد ، لن يكونوا قادرين على ممارسة طقوس العبادة لو لا التسهيلات التي توفرت بفضل أشكال المعرفة المختلفة ؛ فما كانوا يرتديوا ملابس نسجت وتم حياكتها باستخدام وسائل فنية منتظمة ومنسقة مع معارف وعلوم عن النسيج والتجارة ، وما كان يأكلونهم أن يصلوا جماعة ؛ حيث إن كل المساجد الموجودة اليوم ما كانت لتبني دون استخدام وسائل فنية ومواد تعتمد على معارف « علمانية » . المبالغة الكبيرة المطلوبة لبناء المساجد جاءت من الضوابط على الصناعة والتجارة المدنية بوجودها لاستخدام المعارف التي لا تقتصر فقط على دراسة العقيدة .

إن الذهاب إلى الحج يتضمن الاعتماد على السفن والطائرات ووسائل أخرى اخترعت وتطورت من خلال وجود المعرفة «الغربية» أو «العلمانية». قبل ظهور هذه التسهيلات إلى حيز الوجود كانت قلة من الناس هي التي تستطيع أداء فريضة الحج، وهي العمود الخامس من أعمدة الإسلام. وحيث إن الفقراء يعتمدون على «زكاة الفطر»، فقد كان من الممكن كذلك أن يعانونوا وأن المجتمع المعنى لم يكن لديه معرفة يشترون التجارة والصناعة؛ لأن الجميع كانوا سباقون فقراء، ولن يكون هناك من يقدر على دفع الزكاة.

يتضح لنا أن طقوس العبادة ما كانت لتؤدي بشكل صحيح دون «الثروة» الناتجة عن أشكال المعرفة الأخرى. وأحد الأمثلة التي تصور العلاقة بين أشكال المعارف المختلفة وطقوس العبادة في الإسلام في ماليزيا هو «مشروع رى مودا»، وهذا المشروع اعتمد على دراسة اجتماعية اقتصادية لمجتمع الفلاحين في «منطقة زراعة الأرز» في ولاية كيداه. وبعد ذلك تم تخطيط مشروع للرى بواسطة خبراء في هندسة الرى وغيرهم من تخصصات أخرى، ثم درس خبراء المال والبنوك المشروع وأوجدوا الوسائل لتدبير ٣٤٠ مليون دولار لتمويل هذا المشروع العملاق. وقد شارك في بنائه مئات المهندسين ورجال الأعمال والعمال المهرة وغير المهرة والموظفين، كما استخدمت أنواع مختلفة من المعدات والأساليب الفنية المتقدمة. ونتيجة لهذا المشروع تضاعف إنتاج الأرز، وأصبح من الممكن جمع الكثير من أموال الزكاة واستطاع عدد أكبر من المزارعين أن يؤدوا فريضة الحج، كما نتجت عنه فوائد أخرى كثيرة متعلقة بالدين. وفي النهاية أصبح بإمكان المزارعين المسلمين أن يعيشوا ويموتوا في ظروف عمل أفضل وسعادة أكبر كما هو مطلوب في الإسلام.

ويتبين لنا أن ما يدعى بالمعارف العلمانية لا يرجع إلى الدين فقط، ولكنه يساعد المسلمين أيضاً على القيام بواجباتهم الدينية على نحو أفضل، ولن تكون مبالغين إذا قلنا إن صور المعرفة تلك مهمة بالنسبة للإسلام، كما لا بد من أن يكون واضحاناً سبب الحث على

طلب العلم والمعرفة دون تمييز بينها . إن ثور الإسلام وانتشاره السريع حدث عندما كان المسلمين متفوقين على أبناء الأديان الأخرى ، ليس في طاعة الله فقط ، وإنما أيضاً في إجادتهم مختلف صور المعارف المفيدة والبناء .

وعندما نعود إلى مسألة مناهج العقيدة والعبادة ، نجد أنه بالرغم من اعتقاد البعض أن الإضافة إلى المنهج تقوى من الالتزام بالإسلام ، إلا أن العكس هو الذي يمكن أن يحدث . إن تخصيص ساعات أكثر لهذه المواد بحيث لا يتبقى وقت كافٍ لفهم الصحيح للمواد الأخرى قد يضعف من وضع الإسلام . من المهم لل المسلمين أن يدرسوا تلك المعارف الأخرى أيضاً ، والضعف في هذا الأمر سيكون له أثر مباشر على ممارسة العقيدة وعلى صالح المجتمع الإسلامي ؛ لذا يجب الاهتمام تلك المجالات مثلما ينبغي الاهتمام بالعقيدة والعبادة أو يستخف بها . ومن هنا نجد أنه إلى جانب تدريس العقيدة والعبادة لكل مسلم وتشجيع التخصص في هذه المجالات لعدد معقول ، يجب أيضاً على المجتمع المسلم تدريب المسلمين في مختلف المجالات المهمة من أجل رفاهيته وتحقيقه . المجتمع هو الذي يقرر من يستطيع القيام بالتدريب ومجالاته بما ينفع وتعاليم الإسلام ، ولكن المؤكد أيضاً أن المجتمع سيكون هو الملوم لو أنه فشل في عمل ذلك ؛ حيث إن ذلك هو أحد واجبات المسلمين .

إن دور التعليم في تزويد المجتمع بالأفراد القادرين والقادرين له لابد من أن يكون واضحاً ، وعلى سبيل المثال عندما يكون المجتمع المسلم في مواجهة خطر من قوى معادية للإسلام ؛ فمن المؤكد أنه سيكون مخططاً إن لم يزود نفسه بداعفين عنه مدربين جيداً . وبالمثل ، إذا أهمل المجتمع المسلم - عن عمد - أن يقدم التدريب الطبي وترك الأمراض تنتشر وتضعفه ، فلا شك في أنه سيكون الملوم لعدم قيامه بواجبه في هذا الشأن .

وبالتالي فإن مجالات المعرفة - إلى جانب العقيدة والعبادة - لا ينبغي النظر إليها بتشكك وارتياح ؛ لأنها كلها معارف إسلامية كان المسلمين رواداً فيها ، ولا يوجد حكم

ضد دراستها ، إنها لن تضعف الإيمان بالله ، بل إنها ستقويه بشرط أن تقدم أيضاً دروس العقيدة والعبادة باستخدام طرق فعالة ومناهج يخصص لها الوقت الكافي .

إننا مطالبون في الإسلام باستمرار بأن نتأمل خلق الله . في الآيات من ٢٠-١٧ من سورة «الناشية» مطلوب منا أن نتأمل كيف خلق الله الجمال وكيف رفع السماء وكيف أرسى الجبال وكيف بسط الأرض . وفي الآية العشرين من سورة «العنكبوت» مطلوب منا أن نسير في الأرض ونتأمل كيف خلقها الله . ولو أننا تأملنا خلق الله لشعرنا بالرهبة والخشوع أمام قدرته ، وكلما زاد تأملنا وتفكيرنا زاد انبهارنا أمام روعة وعظمة صنع الله .

صحيح أن هناك غطرسة بين العلماء الغربيين الذين يتصررون أنهم قد قهروا الطبيعة ، وأنهم قد اكتشفوا أسرار الخلق جمِيعاً ، وأنه لا يوجد شيء لا يمكنهم الوصول إلى اكتشاف أصوله ، ولكن بالرغم من أن أولئك العلماء يستطيعون تفسير طريقة صنع أي شيء وخروجه إلى حيز الوجود ، إلا أنهم عاجزون عن تفسير سبب خلقه على ذلك النحو . وهكذا نجد أن العلماء يفسرون بسهولة ووضوح كيفية استخدام الجسم البشري للأوكسجين لكي يظل الإنسان على قيد الحياة ، لكنهم يعجزون عن الإجابة عن أسئلة من قبيل : «لماذا الأوكسجين؟ ولماذا ليس غازا آخر؟ وإذا كانت أوراق الشجر تستخدم ثاني أكسيد الكربون فلماذا لا تستخدمه الحيوانات أيضاً؟ لماذا لا يبيض البشر؟ ولماذا من الحكم أن يموت كل كائن حي؟ إن العلماء لا يستطيعون الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها كثير ، لا يعد ولا يحصى ، من الأسئلة التي تبدأ بـ«لماذا؟». هناك إجابة واحدة عنها هي : «قدرة الله» .

وغطرسة العلماء الغربيين مصادرها الجهل ؛ فلو أنهم كانوا مستعينين لما كانوا قد أصبحوا تياراتهم . المسلمين الذين حصلوا على تدريب إسلامي كاف لينسوا أنفسهم أبداً على هذا النحو ، سيكونون على دراية بمحدوديتهم وضعفهم ، وسيدركون أنهم لن يستطيعوا الإجابة عن سؤال عن سبب أي شيء إلا بقولهم إن كل شيء في نهاية الأمر يعتمد على مشيئة الله ، وبذلك سيكون لديهم إيمان أعمق بالله القدوس المتعال .

من هنا لا ينبع أن يساورنا شك أو قلق بخصوص مجالات المعرفة مثل العلوم وغيرها . إن الإيمان بالإسلام لن يضعف ، ولا تقول إنه سيدمر إيجاده مثل تلك المعارف . بالعكس ، إن الإيمان سيقوى وفي الوقت نفسه فإن إيجاده تلك المعارف سوف يساعد المجتمع المسلم أن يتماسك في المنافسة مع غيره في كل المجالات .

وللتتأكد من أن المسلمين يحصلون على إرشاد ديني حقيقي ، وأنهم ليسوا مضللين بأى شيء يدرسوه ، لابد من أن يزود المجتمع الإسلامي نفسه بمتخصصين في العبادة والعقيدة . أولئك المتخصصون موجودون لصالح المجتمع وليس لصالحهم الشخصى فى هذه الدنيا أو الحياة الأخرى ، كما أن دورهم مختلف عن دور الكهانة فى المسيحية والجماعات المشابهة في الديانات الأخرى ؛ فهم لا يعملون كوسطاء بين الله وال المسلمين . وبالرغم من أن التخصص في العقيدة أو العبادة أمر جيد بالنسبة للمتخصص أو المجتمع ، إلا أن ذلك لا ينبع أن يؤدي إلى الابتعاد عن التخصص في المجالات المعرفية الأخرى المهمة بالنسبة للمجتمع الإسلامي ، وإذا كان التخصص في المجالات الأخرى يهمل رغبة فى الشواب فى هذه الحياة الدنيا أو فى الحياة الآخرة من خلال دراسة العقيدة أو العبادة ، فإن التائج لا تكون تلك التي يرجوها الإسلام .

الدين يبقى موجوداً ما دام له تابعون ، وإذا كان المجتمع الإسلامي بسبب رغبته في أن يكون معروفاً كمجتمع إسلامي متشدد قد أصبح ضعيفاً في ما يسمى بالعلوم الدنيوية الضرورية لبقاءه ، ثم تم تدميره في النهاية على أيدي الأعداء ولم يتذروا واحداً منه حيا ، فإن الإسلام لن يبقى له أثر . في إسبانيا مثلاً ، توقف الإسلام عن أن يكون له أي تأثير . سلالة مسلمي إسبانيا مسيحيون اليوم ، ومساجد أسلافهم تحولت إلى متاحف وكنائس . ولقد بدأت العملية نفسها في بعض الدول العربية الإسلامية في غرب آسيا . ويمكن القول إنه عندما يرفض مجتمع مسلم التعليم غير المقصور على العقيدة والعبادة ، وإنما يضم مبادين أخرى مهمة من أجل سلامته ورخائه ، فإن ذلك المجتمع لا يتماشى مع مبادئ الإسلام ،

وأولئك الذين يرفضون هذا النوع من التعليم هم الملمون بدرجة أكبر لو كانوا يفعلون ذلك رغبة في أن يطلق على مجتمعهم مجتمع «أبطال الإسلام» أو يدافعون عن المظهرية والفتاحر والتباهر باظهار تدينهم ، ولكن تبين إذا كان في ذلك مبالغة أولاً ، فلابد من القيام بدراسة على العديد من المجتمعات والدول الإسلامية التي لم يعد لها وجود .

إن مأزر التعليم عند أبناء الملابي يذهب إلى ما هو أبعد من مجرد الاختيار بين التعليم «الديني» والتعليم «اللاديني» ؛ حتى لو نجحوا في التغلب على تشكيهم في ميادين المعرفة التي يقول عنها الغرب إنها «علمانية» أو «غربية» ، سيكون عليهم اختيار الحالات التي يدرسونها ويتخصصون فيها ؛ فعلى أي أساس إذن ينبغي أن يكون ذلك الاختيار؟

التعليم بالنسبة للمواد غير الدينية ينظر إليه على أنه مجرد وسيلة لكتاب العيش في الحياة الدنيا ، وهو مطلوب لقيمة الاقتصادية ، وقد أصبح التركيز على القيمة الاقتصادية قوياً للدرجة أنه أصبح هناك ضغوط تحديد القيمة الاقتصادية حتى للتعليم الديني . القيمة الاقتصادية قد تكتسب المزيد من الناس للدراسة «الدين» ، وهكذا تساعده على نشر المعارف الدينية ، لكنها في الوقت نفسه سوف تزيد من أعداد أولئك الذين يعتبرون الدين مجرد وسيلة لتحقيق الأمان الاقتصادي . إن أولئك الذين يتظرون إلى المعرفة الدينية أو إلى مجالات العقيدة والعبادة كأدلة اقتصادية لن يفيدوا دينهم ولا مجتمعهم .

المعرفة الدينية هي من أجل المجتمع ، وإذا كان المرء يستطيع أن يكتسب قوته عن طريق معرفته الدينية فلابد من أن يكون ذلك بشكل عرضي فقط . اعتبار المعرفة الدينية مصدراً للدخل فقط يعني أن القيم المادية قد حلت محل القيم الدينية ، أو يعني آخر أن القيم الدينية فشلت في تشكيل القيم الروحية المرجوة . على أن المجتمع لابد من أن يقرر معرفة الفرد الدينية ولا يستخف بها ؛ فإذا كانت المعرفة الدينية التي تنقل عن طريق المعينين تتضمن قيمًا جديدة ، فإن إسهامهم لابد من أن يكون محل تقدير .

إنها حقيقة ، كون التعليم في مختلف مجالات المعرفة الدينية يمكن أن يحقق حياة

أكثر ازدهاراً ورفاهاية ، وحتى من أجل هذا السبب وحده يكون من المعمول الحصول على تعليم كهذا . وبالطبع فإن التعليم الذي يمكن أن يحقق دخلاً أعلى سيجد اهتماماً من التلاميذ ، ولكن الرغبة في دخل أعلى لا تماشى دائماً مع الرغبة في مجال الدراسة نفسه . ومجال الدراسة أو المعرفة الصعب إجادته عادة ما يضمن دخلاً أعلى ، بينما المجال السهل يدر مكاسبًا ضئيلاً ، وهكذا فإن اختيار مجال الدراسة يصبح مشكلة أخرى أو «مارقاً» آخر .

ويمكن أن نلاحظ هذه المشكلة في الاختيار بين الأدب والعلوم في المدارس . يعتقد أن الأدب أسهل من العلم ، ومن هنا يختار معظم التلاميذ من أبناء الملايين الأدب . ولكن ذلك لن يكون مهماً إذا كانت هناك فرصة للجميع ، لكن الإقبال على دراسة الأدب يقلل عدد التلاميذ الذين يتوجهون إلى دراسة العلوم ، وفي الجامعات لا يوجد سوى قلة من الطلاب من أبناء الملايين الذين يدرسون العلوم ، وهذا يجعل المجتمع الملايو بأكمله غير سعيد ، وسوف يكونون أكثر حزنًا لأنهم عرفوا أن ذلك قد خلق دائرة مفرغة ، يعني أن النقص في طلاب العلوم بين أبناء الملايين سوف يستتبعه نقص في عدد معلمي العلوم من الملايين . ولأن النجاح في المواد العلمية صعب تحقيقه ، فإن الطلاب يفقدون الرغبة فيه ، وهكذا سيكون هناك نقص في عدد الدارسين في هذا المجال . نقص عدد الطلاب يعني نقص عدد المؤهلين ليصبحوا معلمين ، وحيث إن نقص عدد الطلاب يعني نقص عدد المعلمين ، فإن الدائرة المفرغة سوف تستمر في إحداث نقص في النجاح من جانب طلاب العلوم الملايين . النقص في عدد طلاب العلوم يجعل أبناء الملايو يطالبون بزيادة الأعداد . إنهم ينشدون السلطات والمجتمع والطلاب ، ولكن كل واحد يردد لو أن غيره هو الذي يستجيب للنداء .

وأولئك الذين يريدون أن يروا زيادة في عدد طلاب العلوم هم أنفسهم الذين يترددون في أن يتركوا أبناءهم يختارون هذا المجال خشية أن يفشلوا ، أو لأن المرحلة الدراسية طويلة ، أو لأى سبب آخر . وهكذا يستمر المجتمع الملايو يعاني من نقص في عدد طلاب العلوم .

والشيء نفسه ينطبق على الطلاب الملاليون الذين حصلوا على مؤهلات في المواد العلمية ، فهم أنفسهم ليسوا مستعدين لأسباب مختلفة لأن يعملوا كمعلمين أو محاضرين في هذه المواد ، وهذا لا ينطبق على العلوم فقط . كل المواد الصعبة أو التي تستغرق وقتاً أطول أو تتطلب منافسة شديدة يتم تجنبها لأعذار مختلفة . وترتفع المطالبة بزيادة أعداد الدارسين في المجالات السهلة مثل الأداب والشخصيات التي يقبل العمل بها حتى في الحالات التي لا علاقة لها بما درسوه . هذه المطالبات تتم دون أي اهتمام بالضرر الذي قد يتجمّع عن ملء المناصب بينهم غير مؤهلين لذلك . هناك مثلاً مطالبات بأن تفتح الوظائف التي تحتاج إلى كفاءة في الإدارة أمام متقدّمين لم يحصلوا على أي تعليم لهصلة بذلك ، ولو تم التزول عن هذه الرغبات فلا بد من أن النتائج ستكون سيئة .

هناك في الوقت الحاضر أعمال ووظائف مختلفة مهمة لضمان سلام ورفاهية الدولة أو المجتمع . ولابد من أن يشغلها أناس مؤهلون جيداً . كلما كان الموظف المسؤول أو العامل مدرباً بشكل جيد سوف يكون أداءه مرضياً ، وإذا شغلت جميع المناصب بخبراء وأشخاص مؤهلين تأهلاً عالياً ؛ فمن المؤكد أن الدولة ستكون أكثر تقدماً وسلاماً ، وعندما يكون أبناء الملايو كأفراد ليسوا مستعدين لأن يختاروا التعليم والتدريب طبقاً لمصالح المجتمع والدولة وإدراكاً لعواقب الاختيار غير المناسب ، فيبني على المجتمع عن واجبه . المجتمع نفسه لا بد من أن يقرر - إلى حد معقول - نوع ومجال التدريب لكل من العاملين الذين لديهم الاستعداد المناسب .

الاتجاه نحو الأداب والعلوم الذي تم تطبيقه في ماليزيا في السنوات الأخيرة ما هو إلا جهد من جانب المجتمع لتصحيح عدم التوازن الموجود في التعليم والتوظيف ، والموقف الذي اتخذه المجتمع - كما فهمته الحكومة التي تمثله - هو موقف صحيح ومناسب ، ولكن بينما يرحب الفرد بهذه السياسة باعتباره عضواً في المجتمع ، نجد هذا الفرد نفسه ليس مستعداً ، بصفته الفردية ، لأن يكون ضحية لتطبعات المجتمع . الضيغط من الأفراد المعينين

في النهاية يجبر المجتمع على تغيير سياساته . التوجه نحو دراسة العلوم الذي يعتبر مهتماً بالعمر مطبياً بالكامل ، وأثر ذلك واضح على المجتمع الملايوى . عدد العلماء الملايويين سوف يتضاعف مرة أخرى ، ولن يكون ذلك أمراً ساراً بالنسبة لهم .

وبهذا الخصوص فإن مسئوليات وحقوق الأفراد بصفتهم أفراداً ، والفرد بصفته فرداً في المجتمع لابد من أن تفهم وتقارن . الإنسان لا يستطيع أن يعيش في عزلة ، بل لابد من أن يعيش في أسرة ومجتمع .

إن الفرد له حقوق باعتباره فرداً ، ولكن هذه الحقوق لها حدود باعتباره عضواً في مجتمع . ليست هنا حقوق مطلقة أو بلا حدود لأى فرد ، ولأن حقوقه تتناقض مع مصالح المجتمع فلابد من أن تراجع لحساب حقوق المجتمع . وفي مسألة التعليم كذلك فإن هذه الحقوق ليست مطلقة . المزايا بالنسبة للجانيين تبدو واضحة عندما يحصل الفرد على تعليم مناسب لعمله ؛ فهو يحصل على عمل (وهذه ميزة) والمجتمع يحصل على خدمات (وهي ميزة أيضاً) . وإذا كان مدرباً في أحد المجالات ، ولكنه مضطر للعمل في مجال آخر ؛ فهو مستفيد أيضاً ، ولكن المجتمع في هذه الحالة لا يحصل على خدمة (ميزة) تتناسب مع الأجر الذي يحصل عليه ، ويحدث أحياناً ألا يستفيداً كليهما ولا يحصل أيهما على أي ميزة . ويحدث ذلك عندما تكون المعرفة التي حصل عليها الفرد لا يمكن استخدامها بالمرة . في المجتمع الحديث ، يشكل العاطلون - بسبب افتقارهم - إلى المهارات المقيدة عبئاً على المجتمع ، ومن هنا ينبغي لا يرضي المجتمع دائماً لرغبات فرد أو جماعة بداخله ، كما أن التعليم الذي يقدمه المجتمع لابد من أن يكون مناسباً كذلك لصالح المجتمع . ولابد من أن يقبل التلميذ أو الطالب التوجيهات أو على الأقل النصائح والإرشادات التي يقدمها إليه قادة أو مخاطرو المجتمع . رفض إطاعة التوجيهات سوف يقابلها عقاب برفض المجتمع ضمان أو توفير عمل لهذا الطالب في المستقبل .

وقد يكون لإعطاء الأولوية لمصالح المجتمع تأثير سلبي على بعض الطلبة ؛ فإجبار

طالب على اختيار مجال معين في التعليم قد يصيّبه بالإحباط ويؤدي إلى فشله ، ولكنه حتى إذا منح حق اختيار مجاله فإن نجاحه فيه لن يكون له معنى إذا انتهى به الأمر وهو لا يجد عملاً . ومن ناحية أخرى قد تكون هناك إمكانية أو احتمال للنجاح في المجال الذي أجبر عليه ، وأن تكون هناك وظيفة في انتظاره بعد نجاحه ، وإذا حدث ذلك سيكون لمصلحة الطرفين ، الطالب والمجتمع ، بالرغم من أن الطالب ربما لا يكون قد حقق رغبته .

وبالإضافة إلى ذلك فإن المجال الغريب الذي قد لا يجذب الناس سيظل غريباً وغير جذاب إلى أن يكون هناك من هو مستعد لいくون أول من يدخل إليه ، وعندما يزيد عدد المقربين على هذا المجال فلن يكون غريباً ، وسوف يقبل عليه الناس بسهولة .

وفي وقت ما ، كان هناك اعتقاد بأن الغربين فقط هم الذين يمكن أن يكونوا طيارين ، وكان أول متدرّب من أبناء الملايو ليكون طياراً يعتبر غريباً أو شيئاً غير عادي . لم يكن الآباء سعداء عندما اختار أبناؤهم هذا العمل . أما اليوم - بالرغم من أن هناك آباء كثيرون لا يحبذون هذا العمل لأنّا لهم - فإن الأمر لم يعد غريباً أو غير عادي ، ولم يعد اختيار مهنة صعبة كهذه أمراً صعباً ، وقد يأتي يوم يكون اختيار وظيفة طيار مثل اختيار وظيفة سائق سيارة .

كل مجال لابد من أن يكون له رواده ، ولو أن هناك رائداً واحداً في المجال فسوف يتبعه آخرون ، ومرة الورقة سوف يزيد العدد ، ولكن معدل الزيادة سوف يتسارع . ومرة أخرى نواجه دائرة مفرغة ، إذا لم يبدأ أحد بدخول مجال جديد فلن يدخله أحد ، لكن لو بدأ شخص ما فسوف يتبعه آخرون ، ويتضاعف العدد بنسبة متنامية . هذه الظاهرة تدل على أن الموهاب موجودة في أي مجتمع ، ولكنها في حاجة للتنقيب عنها . أحياناً تبرع الموهبة بنفسها لتكسر الدائرة المفرغة ، بينما المجتمع المتقدم لا يمكن أن يتظر حتى يزغ الشيء من تلقاء نفسه ؛ فالمجتمع الذي يعي مسئولياته لابد أن يبحث عن الموهاب الموجودة فيه ، ويخطط لزيادة كل مجال ، وكذلك للتطور الذي سيحدث فيما بعد .

مسئولييات المجتمع واضحة من هذا النقاش ، وبينما حقوق الفرد لابد من أن تختتم ، ينبغي كذلك الاتهمل مصالح المجتمع بداع من احترام حقوق الفرد ، وذلك معناه في التعليم أن المجتمع عليه أن يحدد المجالات الحيوية بالنسبة له ، ويوجه الفرد لكي يكيف نفسه مع هذه الاحتياجات . إن المجتمع لا يمكن أن يخضع لأى فرد أو أقليه تحارب من أجل مصلحتها . لابد من أن يتخد موقعا حازما ؛ لأن ذلك سينحافظ عليه كما سيحافظ على الفرد أو على تلك الأقلية .

وبالنسبة لمجتمع أبناء الملايو تمثل هذه المشكلة مأزقا آخر . هل ينبغي أن يكون المجتمع حازما في تحديد أنواع التعليم الى تقدم للجيل الجديد بالرغم من الخاطرة بالفشل ، أو يقدم تعليمًا غير مناسب لكي يرى الجميع سعداء وينجحون في الامتحانات ؟

وهناك أخيرا مشكلة اللغة التي أصبحت مأزقا بالنسبة لأبناء الملايو في عملية التعليم . كانت لغة الملايو مهملا أثناء فترة الاحتلال ، وتکاد لا يكون لها وجود ، وقد ان اللغة بالنسبة لأى جنس معناه فقدان الهرية ، وهكذا فإن اللغة بالنسبة للملايين قضية شعور قوى ؛ فهو يريدون أن يروا لغتهم ، ليست موجودة فقط بل ومتطرفة في استخدامها وفترتها على أن تكون مع لغات العالم الأخرى على قدم وساق . هذه الرغبة ليست مجرد حلم فقد كانت الملايوية لغة عالمية واسع الانتشار ، وكانت هي اللغة الوطنية لإندونيسيا بمعندها الذي يزيد عن مائة مليون نسمة ، قبل قبولها اللغة رسمية لهذه البلاد ، وقد كان استخدام اللغة الإندونيسية ضمانا لسيطرة اللغة الملايوية ، وبقبولها اللغة رسمية لماليزيا أصبح مستقبلاها أكثر ضمانا .

منذ استقلال ماليزيا ، كانت هناك حملات كثيرة لكي تكون «باهاسا ماليزيا» أكثر استخداما ، واضططع «ديوان باهاسا دان پوستاكا» بمهمة سك وترسيخ كلمات ومصطلحات جديدة ، والمدارس تستخدم الملايوية (باهاسا ماليزيا) في كل مراحل الدراسة ، وهكذا نجد أن اللغة التي كادت أن تختفي قبل ٢٥ عاما مستخدمة الآن على

المستوى الجامعي لكي يستطيع الطلاب متابعة كل المحاضرات والحصول على درجات علمية عن طريق الدراسة بلغة الملايو .

إن وضع «باهاسا ماليزيا» باعتبارها اللغة التعليم لم يعد محل شك ، وقد قبل المجتمع بأسره - الملاييون وغير الملاييون وليس الحكومة فقط - «باهاسا ماليزيا» ومستعدون لتلقى تعليمهم بها . ومن الواضح أن كفاح أبناء الملايو للحفاظ على لغتهم وتطويرها قد أثمر بالرغم من أنه ما زال هناك بعض السلوك المترد في بعض الدوائر ، ولكن بالرغم من إجاده اللغة الملايوية إلى حد بعيد ، إلا أن المتعلمين في هذه الأيام أصبحوا يجيدون أكثر من لغة ، وإجاده لغتين أو أكثر يوسع من مجال نشاط المرأة ، كما أنه يضيف إلى مجال معرفته ويشرى معلوماته . وهكذا فإن الفرد الذي يجيد لغتين يمتاز عن الفرد الذي يجيد لغة واحدة . ولابد من التأكيد هنا على أن المسألة ليست أى لغة ، وإنما المسألة هي تعدد اللغات ، ولذلك فالقضية ليست قدرة اللغة الوطنية باعتبارها وسيلة اتصال أو نشر للمعرفة . وبالرغم من أن اللغة الوطنية قادرة تماما على أن تفي بهذه الأهداف والأغراض ، إلا أن إجادتها فقط وعدم إجاده أى لغات أخرى يمثل ضعفا .

وعلي ضوء هذه الحقيقة فإن توجيه أبناء الملايو ، والطلبة منهم وخاصة ، للدراسة لغة ثانية هو أمر خطأ ، وحيث إن قبول اللغة الوطنية ليس محل خلاف فإن رفض تعلم لغة أخرى لا يمكن أن يعتبر توجها بطولي . الموقف البطولي من اللغة ، الذي يتتباه بعض الطلبة من أبناء الملايو لا معنى له إذا كان ذلك يصحبه رفض لغة أخرى : الانحراف عن إثراء اللغة الوطنية لابد من أن يكون محل انتقاد ، لكن رفض اللغات الأخرى كجزء من التعليم لا يمكن أن يعد بطولة . هذه النظرة غير المبررة أو الموقف غير المبرر سيكون له أثر عكسي على أبناء الملايو إذا لم يتم تصحيحه ، والتناحر بالاستخدام المستمر للإنجليزية كما يديه أبناء الملايو الذين تعلموا أثناء فترة الاحتلال البريطاني ، هذا التناحر لا ينبع إحياءه ، إلا أنه لا يوجد أى سبب يمنعهم من أن يفسخوا بإجاده لغتين أيا كانت تلك اللغة الثانية .

وحيث إن الإنجليزية لم تعد هي وسيلة التعليم في معظم المدارس في هذه البلاد ، فإن إجادتها ليست عملية سهلة كما كان الأمر في السابق .

إن اللغة يمكن إجادتها فقط عندما تكون مستخدمة على نطاق واسع ؛ فمن الصعب إجادلة لغة لأندرس كمادة في المدرسة ، إلا أن ذلك ليس عنراً مثل هذا الأداء الهزيل في اللغة الإنجليزية من قبل التلاميذ الملايين .

المطلوب هو وجود الاستعداد والرغبة في دراستها واستخدامها إلى مدى معقول خارج ساعات المدرسة . استخدام الإنجليزية بهذا الأسلوب لا يعني أن اللغة الوطنية في مرتبة أقل ، ورفض إجادلة الإنجليزية أو أي لغة أخرى يمكن أن يكون واجهة لأخفاء ضعف الشخصية التي تخشى الظهور .

وفي نصاهم للمحافظة على لغتهم ، اضطر أبناء الملايين لمارضة ونبذ اللغة الإنجليزية التي كانت حكمة الاحتلال تعمل على نشرها ؛ حيث إنها كانت قد أصبحت رمزاً للاستعمار ، كما كانت هناك معارضية قوية لاستخدامها أو دراستها . وقبول الملايين لغة رسمية يعني أن الإنجليزية لا يمكن أن تستخدم كلغة للإدارة ، وهذا معناه أيضاً أنها تفتح الأبواب أمام كل مستويات التعليم ، وكل الوظائف تقريباً ، وخاصة بالنسبة لإدارة هذه البلاد .

إن مأزق التعليم بالنسبة لأبناء الملايين يمحور حول أمور الدين واختيار نوع الدراسة ومشكلة اللغة . والحقيقة أن هذه المأزق كلها من نسيج الخيال ؛ حيث إنها مبنية على سوء فهم وسوء تفسير ومنطق مغلوف . هذه المأزق سوف تستمر ، وستكون عقبة أيام التقدم ، بل وأمام الوحدة الدينية للملايين كذلك ، هذا إذا لم يتم تحليلها وتصحيحها من الجذور . وما دام الملايين غير مستعدلين لمواجهة الواقع فسوف يظلون عاجزين عن التغلب على تلك «المأزق» التي تسيطر على عقولهم ، ويتعذر ذلك حتماً أنه ما دامت تلك «مأزق» أمامهم ، فإنهم سوف يفشلون دائمًا ويقون على تخلفهم ، وربما توقفوا عن أن يكونوا شعباً له هويته الخاصة .

الفصل الرابع الغرب والشرق

قبل عشرين عاما ، كان أى شاب يمكن أن يحتاج بشدة لو طلب منه أحد أن يترك شعره ينمو حتى يتزلا عن كفيه ، وكان يمكن أن يعتبر من طلب منه ذلك شخصا مجنونا أو مختلفا على أقل تقدير . كان من المستحيل أن يتصوره فعاليا في الحادثة أو أنه يستطيع أن يتباين بالتغييرات القادمة ، لكن شباب اليوم الذين يصفون شعورهم مثل النساء متشرذون في كل مكان . يتحركون هنا وهناك دون خجل أو حياء ، ونراهم في المنزل والمكتب والجامعة والمسجد . وعندما يرتدى أحدهم «الكوفية» تجد أنها جائحة بشكل غريب فوق كتلة من الشعر ، ويحدث الشيء نفسه عندما يضع على رأسه قبعة بيضاء ، وإذا نظرت إليه من الخلف لا تستطيع أن تحدد إن كان رجلا أو امرأة .

وهذه الظاهرة دليل على التأثير الغربي الكبير على الشرق ، وما زلنا نرى فيها من أبناء الملايين ليس أقل انصياعا للسيطرة الغربية .

إن ما يفعله الغرب اليوم يفعله الشرق غالبا ، وي فعله الملايين في اليوم التالي . وإذا توقف الغرب عنه سوق يتبعه الشرق في ذلك . ثم الملايين . . . وهكذا . ولست هذه ظاهرة جديدة كما أنها ليست مقصورة على الشعر الطويل ، ولأن التراثين كانوا يرتدون المعاطف وأربطة العنق ، وبالرغم من أن اللباس الماليزي كان أكثر ملائمة لطقس ماليزيا الحار ، إلا أنها تحاكيهم محاكاة القردة ، وترتدى المعاطف وأربطة العنق مثلهم . والحقيقة أنها لانحاكي اللباس الغربي فقط ، بل إنها تقلدتهم في كل شيء ، ونبذل في ذلك كل جهد .

والتقليد ليس أمرا سينا بالضرورة ؛ حيث إنه وسيلة من وسائل التعلم . الأطفال يتعلمون الكلام والقيم عن طريق المحاكاة والتقليد الذي يحافظ على انتقال القيم من جيل

إلى جيل بين الشعوب ، ولكن التقليد يصبح مشكلة عندما يتم دون تمييز أو تفكير في ما إذا كان الشيء الذي نقله جيداً أو رديئاً .

تاريخ العلاقات بين الغرب والشرق يفسر لنا سبب تقليد الشرق للغرب . لقد جاء الغربيون غزاة أقوباء ، هزموا الأمم الشرقية وأخضوها ، وكان تفوق الغربيين يشهد عليه نجاحهم ليس فقط في إخضاع الشرق بجيوش صغيرة ، بل واستمرار حكمهم الاستعماري كذلك .

نجاح الدول الغربية أهاب الشرقيين ؟ فلو كان الغرب ناجحاً إلى هذا المدى ، فلابد أن يكون سبب ذلك ما تتصف به شعوبه . ومن هذا الفهم ، إلى فهم أن النجاح نفسه يمكن أن يتحقق عن طريق محاكاة الصفات الغربية ، كان ذلك يعتبر خطوة إيجابية . وهكذا راح الشرق يقلد الغرب في كل شيء : من النظام الإداري والسياسي إلى اللغة والدين والثقافة وأمور أخرى كثيرة .

ومن الواضح أن التقليد كان يتم دون تمييز بين الجيد والرديء أو ما إذا كان ذلك قد أسهم في نجاح الغرب من عدمه . وأحد المجالات التي تم التقليد فيها دون دراسة أو تفكير هو اللباس . كان لدى الغربيين والموظفين البريطانيين بالتحديد قواعد صارمة للباس . لباس النهار مختلف عن لباس المساء ، بالإضافة إلى وجود ألبسة معينة وتحمية لمناسبات بعينها . وكان ينظر إلى أي مخالف لذلك نظرة احتقار ، أو أن يكون محل انتقاد شديد من المجتمع . وكانت قواعد اللباس في الواقع تعكس طبيعة طبقة معينة من الشعب البريطاني شديدة الانضباط ، وتولى أهمية بالغة لقواعد السلوك . وباحترام هذه القواعد والالتزام الصارم بها ، لابد من أن يتحقق الانضباط الثنائي . كان الانضباط الصارم ضرورياً للدولة صغيرة حكم ربع العالم ، ويدونه ما كانوا يقدرون على التعامل مع موقف ، حيث كان اثنان أو ثلاثة منهم عليهم أن يسيطرؤا على مئات أو ملايين من البشر من أجناس أخرى ، وكانت قواعد اللباس يمكن أن تعتبر تدريباً على الانضباط والنظام ومارسته لهما .

قامت الشعوب التي كانت مستعمرة من البريطانيين بتقليد قواعد اللباس هذه ، وقد فعلوا ذلك بدافع من احترامهم للمستعمرين ، وحيث إن الانضباط البريطاني في تلك الأيام كان مرتبطة باللباس كانت محاكاته تؤدي مباشرة إلى محاكاة الانضباط . وهكذا ، بالرغم من أن محاكاة اللباس لم تكون مفيدة في حد ذاتها ، إلا أن الانضباط القائم على قواعد اللباس كان مفيداً من يقومون بالتقليد .

ولو أتنا درستا تاريخ الشعوب التي هزماها الغرب واحتلها فسوف نلحظ حقيقة بارزة وهي تقص الانضباط لديهم ؛ فالتنظيم وأساليب القتال لقوات «ميلاكا» المسلحة عندما كانوا يحاربون ضد البرتغاليين تبين لنا بوضوح أنه لم يكن لديهم مثل ذلك الانضباط الصارم الوجود لدى القوات الغربية . ربما كان لهزيمتهم أمام البرتغاليين أسباب ضعف أخرى ، ولكن لو أن درجة انضباطهم كانت عالية لما هزموا بهولة كما حدث ، أو ربما ما كانوا قد هزموا بالمرة .

وحيث إن الانضباط مفيد ، واللباس البريطاني يحقق الانضباط ، يكون لهذا التقليد ما يبرره ، والشيء نفسه ينطبق على الصفات الغربية الأخرى التي كان الشرق يقلدها إبان الاستعمار الغربي . كان معظم ما يتم تقليده مفيداً ، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن أحد التأثير المهمة كان تحريف المناطق الشرقية التي كان الغرب يحتلها . لقد حصلت الشعوب المستعمرة على استقلالها عن طريق التنظيمات وأساليب النقاولة عن الغرب ، وأحد الدول التي لم تحتل ولكنها حققت نجاحاً باهراً نتيجة التقليد المنهجي للغرب هي اليابان .

استقلال الدول الشرقية أدى إلى سلسلة من رد الفعل انتهت بأن فقدت الدول الغربية كل مستعمراتها ، وكان ذلك شيئاً غير عادي ؛ لأن تلك القوى الغربية كانت قد حققت انتصاراً باهراً في الحرب العالمية الثانية . فقدان المستعمرات والثروة أدى إلى تغير جذرى في العقلية الغربية ؛ فلم يعودوا يباهرون باعتبارهم الشعب المختار الذي ينبغي أن يحترمه العالم

ويخشأه ، ولم يعد ممكناً أن يرسلوا أبناءهم - والشباب على نحو خاص - لكي يديروا المستعمرات ويكونون سادة على سكانها الوطنيين .

هذا التغير في التفكير الذي أحده فقدان المستعمرات لم يحدث فجأة بل بدأ تدريجياً ، ولكن أصبح سريعاً بمرور الوقت . وفي النهاية نحيط كل القيم القديمة دون أن يكون هناك أى قيم محددة تحمل محلها .

وإذا استخدمنا اللباس مرة أخرى كمثال ، فإن رفض القيم القديمة ينعكس في التغير في طراز اللباس ، ثم التخلّي عن القواعد القديمة تماماً ؛ فإذا كان الكل في الماضي كانوا يرتدون المعاطف وأربطة العنق ، فقد تم الاستغناء عنها اليوم ، وأصبح أى شيء بديل يصلح . وإذا كان من المستحبيل أن يرتدي أحد قميصاً ممزقاً في الماضي ، فقد أصبحت القمصان وملابس الجيبز ترقى اليوم عمداً قبل ارتدائها . وإذا كانت الأحزنة في الماضي كان لا بد من أن تكون جيدة ؛ فالقادم اليوم هو ليس الشابشب القديمة أو أن تكون الأندام عارية .

وكما ذكرنا من قبل ، فإن الدول الغربية كان لديها أسبابها لكي ترفض القيم القديمة ؛ فإلى جانب فقدان المستعمرات ومصادر الثروة ، كان حرب فيتنام أثراً رهيباً على ثقتهم بأنفسهم ؛ فقد لقيت قوة غربية كبيرة هزيمة كبيرة من قبل مجتمع شرقى صغير ، فضعفوا أرواحهم ولم يعودوا قادرين على أن يقفوا مرفوعي الهمامات كنموذج يقلده العالم .

إن سقوط الغرب يعني انتصار الشرق الذي كان الأول يحتله ذات يوم ، وإذا كانت الدول الغربية تأسى لضياع المستعمرات ، فإن الدول الشرقية ينبغي أن تكون سعيدة باستقلالها . وإذا كانت الدول الغربية ترد على ضياع المستعمرات برفض القيم القديمة وخلق قيم جديدة ، فإن الدول الشرقية عليها أن تتمسك بقوتها بالقيم التي حققت لها النجاح . وإذا كانت القيم التي كان الشرقيون يقلدونها في الحقبة الاستعمارية - مثل النظام والانضباط والتنظيم الاجتماعي الدقيق - هي التي قادت الشرق إلى النجاح ، فلا بد من المحافظة عليها .

لابو جد سبب يجعل الدول الشرقية ترفض القيم والمعايير التي غنت أثناء الاحتلال الغرب لها ، وهذا على خلاف الدول الغربية التي لديها سبب للتحرر من أوهام القيم والمعايير القديمة .

ولكن بالرغم من أن الشرق قد نجح ، وأن الغرب قد فشل -نسبياً- فإن عادة محاكاة الغرب والاعتراف بأن الغربيين هم الذين يصنعون هذه التوجهات والمخطى في كل المجالات ، هذه العادة قد بقيت ، وهكذا يواصل الشرق تقليده الأعمى لكل ما يفعله الغرب .

ولأنهذ اللباس نموذجاً مرة أخرى . الجيل الجديد في الغرب رفض تلك اللياقة في الملبس للأسباب التي ذكرناها ، وهكذا يتبع الشرق خطاه فينحي قواعد اللباس ويرتدى القمصان وملابس الجينز قيحة المنظر والمزقة والمرقعة والقديمة .

إن عادة التقليد متصلة في العقل الشرقي للدرجة أن الشرق مستمر في التقليد دون إدراك لأسباب تغيير الشرق لعاداته . ومثلاً حدث أن أدى تقليد الغرب في الملابس إلى قيمة في الانضباط ؛ فإن التقليد المخاطي للباس نقل إلى الشرق عدوى القيم الكامنة وراء تغيير الغرب للباسه . القيم الجديدة ترفض الانضباط والتقواعد ، وتخل محلها الحرية غير المحدودة .

لقد رأينا كيف نجحت الدول الشرقية في الحصول على استقلالها عن طريق المحاكاة ومارسة القيم والنظم الغربية القديمة ، وإذا تم الحفاظ على هذه القيم والنظم فسوف تكون النتيجة المنطقية هي المزيد من النجاح لتلك الدول المستقلة . من ناحية أخرى ، إذا ناحي النظام الذي حقق النجاح فمن المؤكد أن النتيجة المنطقية ستكون أن الدول الشرقية قد تعود إلى التخلف ثانية .

وهناك بالفعل علامات واضحة على أن الشرق ، بالرغم من أنه حر ومستقل ، لم يحقق نجاحاً ، وأنه بعيد جداً عن أن يكون متساوياً مع الغرب . ولو أن الثروة والقوى البشرية

والأمكانيات في الدول الشرقية تم تنظيمها بالشكل الصحيح وتوجيهها نحو التقدم عن طريق النظم الغربية التي حققت النجاح للغرب ، لو كان ذلك قد حدث لكان الشرق قد أصبح قوياً مثل الغرب وربما أقوى منه ، ولكن الشرق لم يصبح قوياً ، وظل على تخلفه يلهث وراء الغرب . قد تكون هناك أسباب كثيرة لذلك ، ولكن أنه يرجع إلى حداً - إلى رفض القيم والنظم التي كان الشرق يقلها عن الغرب وإحلال الأساليب الغربية الجديدة ، والتي من الواضح أنها عديمة القيمة حتى بالنسبة للغرب نفسه . وإذا كان الغرب الذي كان قوياً ذات يوم قد أصابه الضعف بسبب هذه القيم والتوجهات الجديدة ، فإن هذه القيم والتوجهات نفسها سيكون لها أثراً سوياً على دول الشرق الجديدة .

إن المنافسة أو المخصوصة بين الغرب والشرق لم تنته على أية حال ؛ فالغرب لا يريد أن يرى الشرق متقدماً وقوياً بحيث يشكل خطراً عليه . وهكذا حتى الدول الغربية عندما تخلت عن مستعمراتها واحدة تلو الأخرى ، تحاول أن تحمي نفسها بوسائل وطرق مختلفة فعالة ؛ ففي المجال الاقتصادي نجد لهم ينشئون المجموعة الاقتصادية الأوروبية كوسيلة للسيطرة على السوق العالمية حتى لا يكون الشرق قادراً على الرد على الظلم الاقتصادي الذي أنزله الغرب به من قبل .

إن وجود سوق غنية تحت السيطرة مكّن الغرب من إيجار الشرق على قبول أي ثمن يحدده لمنتجاته . وهكذا خرج إلى حيز الوجود شكل من أشكال الاستعمار الاقتصادي كتجسيد لاتحاد الدول الأوروبية في المجموعة الاقتصادية . وعن طريق الضرائب والضرائب المقررة وقيود الاستيراد ، يمكن الغرب من إيقاف ارتفاع أسعار الخامات الشرقية ، كما ينبع في الآلاتكون المنتجات الصناعيات الشرقية الحديثة خطراً يهدى تسويق نفس المنتجات التي تقدمها الصناعات الغربية . وهكذا في التضخم العالمي ؛ إذ بينما ارتفعت أسعار القصدير والمطاط بنسبة طفيفة ثم هبطت مرة أخرى ، نجد أن أسعار منتجات الصناعات الغربية قد ارتفعت بشكل حاد ويقيت هكذا .

لقد كان الشرق على دراية بأن القوة الاقتصادية للدول الغربية نابعة من تضامنها معاً في السوق الخاضعة لسيطرة المجموعة الاقتصادية الأوروبية ، والشرق يعرف أن تعاوناً من هذا النوع كان فعالاً ، لكن دول الشرق ليست مستعدة للقيام بعمل مشترك لاحتراف الأسوار التي أقامها الغرب إلى أن اندلعت حرب «يوم كيبيور» في غرب آسيا عام ١٩٧٣ .

وكوسيلة لإعاقة الدعم الذي يقدم عادة لإسرائيل في حربها ضد الدول العربية ، قامت الدول العربية المتوجهة للنفط بعمل موحد ، وهو خفض صادراتها إلى الدول الغربية ورفع أسعار البترول ، وقد أثبتت هذا الإجراء فعالية أكثر مما كان متوقعاً ، حيث لم تضر الدول الغربية فقط على وقف مساعداتها لإسرائيل ، بل إن الاتصالات الغربية نفسها بدأت تعرف التضخم والكساد ، الأمر الذي وضع نهاية لازدهارها .

يتضح من هذا الحديث أن التعاون بين الدول الشرقية يمكن أن يجيد العمل المشترك الذي يقوم به الغرب أو يمكن أن يجعله عديم القيمة ، ولكن بصرف النظر عن إنتاج وتسويق النفط ، فإن الدول الشرقية ما زالت غير مستعدة للتعاون . إنها تنافس بعضها البعض في تسويق المواد الخام المختلفة ، وحتى في حال اتفاقيات تسويق بينها فإنهم سرعان ما يخرقونها .

وفي الجهد المبذول للإبقاء على الاستعمار الاقتصادي الغربي ، فإن إقامة سوق مشتركة على غرار المجموعة الاقتصادية الأوروبية ما هو إلا أحد الأساليب التي يستخدمها الغرب لذلك . إحدى نقاط ضعف الغرب تكمن في مستوى المعيشة المرتفع جداً ، الأمر الذي يجعل أجور العمل مكلفة ، وبالتالي يرتفع من تكلفة إنتاج السلع المصنعة ، ويحاول الغرب أن يحل هذه المشكلة باستخدام معدات وأساليب فنية أكثر كفاءة .

وحيث إن قوة العمل رخصة في الشرق والعمال أكثر استعداداً من العمال الغربيين ، فإن السلع المصنعة في الشرق رخيصة وتتنافس بنجاح نفس البضائع الغربية في العالم . وإذا تفوق تسويق البضائع الشرقية المصنعة على مثيلتها الغربية فمن المؤكد أن ذلك سيكون له

أثره على الصناعة وعلى حياة الرفاهية في الغرب . وهكذا فإنه إلى جانب إنشائه سوقاً تحت السيطرة الكاملة ، يحاول الغرب زيادة تكلفة إنتاج السلع المصنعة في الشرق ، وتعمل اتحادات العمال الغربية في هذا الاتجاه . ويدعو حمامة عمال العالم من استغلال أصحاب العمل شكلت اتحادات العمال في الغرب اتحاداً عالياً ، وشجعت الاتحادات الشرقية لكي تصبح أفعاله .

وعن طريق فيدرالية الاتحادات العمالية وغيرها من المنظمات الدولية ، يبحث قادة اتحادات العمالية الغربية العمال في الدول الشرقية وليس فقط على المطالبة بأجر أعلى وساعات عمل أقل ، بل إنها تقوم أيضاً بكل الإجراءات الممكنة التي من شأنها أن تضعف الصناعات الشرقية . ونتيجة للحملة التي يقوم بها قادة اتحادات العمالية الغربية ، لا يمكن للدول الشرقية أن تتنافس الدول الغربية بنجاح في التجارة العالمية . وأوضح مثال على ذلك هو الخاص بالمنسوجات القطنية . في يوم ما كانت لانكشاير - إنجلترا هي أشهر وأكبر متاج للمنسوجات ، وكان القماش يباع في المستعمرات البريطانية التي كانت تمثل سوقاً مغلقة تدر أرباحاً كثيرة ، وعندما بدأت هونج كونج تتبع منسوجات قطنية رخيصة كانت تتنافس أقمشة لانكشاير بنجاح وسهولة . في البداية حاول أصحاب عمال مصانع لانكشاير الضغط على الحكومة البريطانية لكي تمنع استيراد الأقمشة من هونج كونج ، لكن أقمشة لانكشاير هزمت في السوق العالمية أمام منتجات هونج كونج ، وكانت النتيجة أن الكثيرين من عمال لانكشاير أصبحوا بلا عمل بعد أن اضطررت مصانع القطن في المنطقة إلى التوقف .

بعد ذلك انتقل اتحاد العمال البريطاني إلى بذر السخط بين عمال هونج كونج ، فادعى أنه يشعر بالشفقة عليهم ؛ لأن أصحاب العمل يستغلونهم . عندما كان عمال لانكشاير متعدلين اقتصادياً ويعيشون في رغد ، لم يكونوا يفكرون في مشاكل عمال هونج كونج ، ولكن - الآن - كانت دموع التماسيع تتشال بسبب معاناتهم . من الواضح أن أنشطة

الاتحادات العمالية الغربية ، بالرغم من أنها يمكن أن تكون مفيدة لعمال الشرق ، إلا أن دافعها هو الرغبة في حماية أوضاع الصناعات الغربية في السوق العالمية . وكلما استمع العمال الشرقيون إلى نصائحهم زادت الفوائد والمكاسب التي تجنيها الصناعات والعمال في الغرب .

على أن ذلك لا يعني أن الاتحادات العمالية ليست مفيدة ، بل كما هو الحال دائمًا - إن ما ينقل عن الغرب مفيد إذا كان النقل يتم بعيون مفتوحة . الاتحاد العمال الذي يعمل طبقاً لمبادئ وطموحات الذين أنشأوا يمكن في الحقيقة أن يتحقق العدل للعمال ، لكنه ، مثل أي سلاح آخر ، يمكن أن يساء استخدامه ، وأن يحدث نتائج غير مستحبة . وعلى ضوء الصلة بنصيحة قيادات الاتحادات العمالية الغربية الذين اختارهم العمال الغربيون لمصالحهم الخاصة ، وعلى ضوء العمل بتلك النصائح فإنه لا يوجد عادة ضمان بأن تتوقف مبادئ وطموحات الاتحادات الغربية .

لقد بقى الاستعمار الغربي مؤثراً على نحو مامن خلال نشاط وسائل الإعلام العالمية ، والتي يتحكم فيها الغرب ، وذلك لأن اللغة الإنجليزية - وهي لغة غربية - مفهومة في جميع أنحاء العالم . المجلات والتقارير المكتوبة بالإنجليزية يقرأها الكل تقريباً بما في ذلك الدول الشرقية والدول المستقلة حديثاً ، وهي تترجم كثيراً وسهولة إلى اللغات المحلية . وهكذا يمكن للمراسلين الغربيين أن ينشروا تقاريرهم عبر العالم لكي يشكلوا أنذار العالم وتوجهاته بخصوص حدث أو دولة بعينها .

على مدى عشر سنوات وإلى الآن ، والمراسلون الغربيون يركزون على إبراز الأحداث السيئة في الدول النامية وخاصة في الشرق . وبمجرد وقوع حدث سىء يهربون بالآلات التصوير وكاميرات التلفزيون وأجهزة التسجيل إلى مكان الحدث . ومن التقارير التي يرسلونها لا يمكن أن يتصور أحد أن هناك شيئاً جيداً بالمرة في الشرق ؛ فالشرق غيرديمقراطي ومستبد ، وإدارته فوضي ، وملئ بالفساد وغير أمين ، ويفتقر إلى الخبرة الفنية ، وغير قادر

على إحداث تنبية ، إلى آخر قائمة طويلة من الشرور والمساوي . إنهم لا يقلون أى خجاحات تتحقق في الشرق بالمرة .

ماليزيا مثلا ، لم تكن مشهورة مثل فيتنام ؛ لأن ماليزيا كانت ناجحة ومتقدمة لعدة سنوات . والآن بعد أن أصبحت فيتنام مغلقة أمام أولئك المراسلين ، وبدأت ماليزيا تمر بعثرات متعددة أصبحت ماليزيا هي المستهدفة . وبالمثل فإن خجاج باكستان الاقتصادي ، بعد انفصال الشرق عن الغرب ، لم يلقت انتباهم الذي كان مركزا على معاناة بنجلاديش منذ ميلادها . وفي الفلبين نجد أن تقاريرهم مرتبطة على المعتقلين السياسيين ولا تقترب من النمو السريع في البلاد . وفي تايلاند هناك تنظيم إعلامية كاملة للتمرد على الحكومة ، ولكن إذا نجح المتمردون في الوصول إلى السلطة كما حدث في آسيا الوسطى والدول الأفريقية ، سوف يبدأ المراسلون الغربيون في «فضحهم» .

من ناحية أخرى ، ليس للشرق مراسلون لكي يجربوا حول العالم ، ويكتبوا عن الجوانب الجيدة في الشرق وعن مساوى الغرب وشغره ، وأى تقارير يكتبها المراسلون الشرقيون تزيمها محدود بسبب مشكلة اللغة . وكالات الأباء الشرقيه معظمها صغير جدا والصحف والمجلات الغربية لا تشتراك فيها ، كما أن وكالات الأباء الغربية الشهيرة لا تستخدم المراسلين الشرقيين حتى من أجل التغطية الإخبارية في الدول الشرقية .

وعن طريق الصحف ، يستطيع العالم الغربي أن يشكل العقل الشرقي وسيطر عليه لدرجة أنه أصبح يرث ثقنة النقص والشعور بالذنب . والشعوب الشرقية مجبرة على أن تحكم على نفسها بالمعايير والقيم الغربية فتجد نفسها عاجزة دائمًا عن الوفاء بمتطلبات النظام الغربي .

أما أكثر ضغوط الغرب تأثيرا على الشرف فهي الضغوط على النظام السياسي . قيم الحياة وأسلوب التفكير في المجتمع تتغير عبر الزمن ، فما يعتبر «عادلا» أو «جيدا» في عصر ما ، قد يعتبر «أقل عدلا» أو «أقل جودة» في عصر آخر . في الأزمة القديمة مثلاً عندما كانت

البشرية مقسمة إلى جماعات صغيرة متاخرة باستمرار ، كانت إقامة نظام ملكي يعطي سلطة على الحياة والموت للملك ، كانت خطوة جيدة لأن ذلك من شأنه أن يقلل درجة الترسُّب في المجتمع ، ويحميه من جميع المستبددين باستثناء الملك !

ولكن بعد زوال نظام الملكية المطلقة بوقت ما ، نسيت أسباب وأصول هذا النظام ، وأصبح المجتمع على وعي بسوء استخدام الملوك للسلطة فقط . وهكذا تشكل الرأي العام لدى المجتمع بأن الفنود الملكي كان خطراً وظلماً ، وأنه لابد من القضاء على السلطة . وعمرور الوقت زاد الإيمان بالنظام الجديد لكي يصبح ذلك رأياً عاماً . وبالوصول إلى هذه المرحلة كانت قيم ومعايير المجتمع قد تغيرت تماماً .

وبينما كان العدل يعني ذات يوم وجود ملك يصدر الأحكام على هواه ، تغير النظام اليوم إلى ملكية دستورية ليس للملك فيها أى سلطة لإصدار الأحكام بعد أن أصبح مجرد رمز . الشعب فقط هو الذي يملك حق تقرير ما هو عادل وما هو غير ذلك ، والناس يتذكرون وسائل مختلفة تتكهن من تأكيد فعالية سلطتهم . وبالرغم من أن هذه النظم قد اتخدت أشكالا وأسماء كثيرة ، إلا أنها كلها يمكن أن تعرف بأنها أنظمة ديمقراطية .

النظام الديقراطي تمت صياغته في الغرب ؛ حيث كان استبداد الملوك . في البداية ، كان الغربيون يمارسون ذلك النظام لأنفسهم فقط ، ولأنه نظام شلّيد التعقيد كان استخدامه في إدارة المستعمرات يمكن أن يسفر عن مشكلات كثيرة للغرب ، ولذلك كانت إدارة المستعمرات استبدادية ، ترتكز السلطة كلها في يد المحكم و معاونيه . لم يكن للسكان المحليين أي رأي ، وكانوا مجرّبين على قبول سياسات وتوجيهات المسؤول الكبير في الإدارة الاستعمارية . وفي الدول التي كانت محفلة من الغرب ، كانت المؤسسات الديقراطية مثل المحاددات العمال أو غيرها ، إما محظوظة أو تحت السيطرة الكاملة .

من السهل بالقطع على الحكومة الاستبدادية أن تدير دولة ، أكثر مما تستطيع حكومة دعوه انتخابية . الحكومة الاستبدادية ليست مضطربة إلى قبول النقد أو لأن تكيف نفسها مع آراء

لا حصر لها لأفراد من مختلف قطاعات المجتمع . المسئولية عن رفاهية المجتمع لا تقبل كاهم الحكومة الاستبدادية كثيرا . كل ما يهم هو التطبيق الفعال لحكم القانون ومنع الفوضى .

من ناحية أخرى فإن الحكومة الديقراطية عرضة للنقد دائمًا ؛ فإلى جانب محاولة إشباع الرغبات المتعارضة للناس ، فإن الحكومة الديقراطية تواجه خطأ رئيسيا يهدد استقرارها وهو الانتخابات العامة . كل قيادات الحكومة يكون عليهم أن يذودوا عملهم بكفاءة وفعالية ، وفي الوقت نفسه يكونون خاضعين لنقد ومراقبة من الناس . مطلوب منهم أن يمارسوا القيم العليا ، وأنهم ليسوا بشراء عاديين لهم تقاصدهم وعيوبهم الطبيعية . والفشل في تحقيق ذلك يجعل نتائج سيئة عليهم وعلى الحكومة التي هم أعضاء بها . ولابد من أن يكون المستعمرون الغربيون قد أدركوا مدى تعقد نظام الحكم الديقراطي ، إلا أنهم بالرغم من ذلك جعلوه شرطا للاستقلال ، أي أن جميع المستعمرات التابعة لهم لابد من أن تقيم أنظمة ديمقراطية . وقد نشروا دعايات كثيرة عن فضائل الديقراطية لكن يجعلوا من لا يقبل بهذا النظام وقيمه يشعر بالذنب ويأنه ليس إنسانا . ويتهم الإعلام الغربي هذه الحكومة أو تلك بالاتحراف عن ممارسة الديقراطية لكن يجعلوا العالم ينظر بعدم الرضا إلى أي حكومة يستهدفونها ، وقد أقام الغرب منظمات مختلفة مثل منظمة العفو الدولية لتشويه سمعة أي حكومة لا تتماشى مع القيم الغربية .

قيادات المستعمرات الغربية السابقة وكذلك الدول الشرقية التي لم تحظى ، ليسوا مهرة أو ملئين بأساليب الإدارة الديقراطية ؛ فقد كانت تحكمهم حكومات استبدادية ، وذلك هو نوع الحكم الوحيد الذي يعرفونه ويفهمونه . وإلى جانب القيادات ، فإن الشعوب أيضا ليس لديها تجربة في الديقراطية ولا السلطة التي تخولها لهم الانتخابات العامة ، ولا يفهمون تلك الحقوق مثل حق تكوين الاتحادات العمالية أو حرية الصحافة أو حرية التعبير أو المشاركة السياسية . . إلخ . ولهذا السبب فإن الدول الشرقية المستقلة حديثا ، أو التي لم يسبق أن استعمرت عندما تناول أن تمارس الديقراطية ؛ فإن العقبات أو المشاكل التي

تواجهاً لا تستطيع الحكومة أن تغلب عليها . الأحوال في هذه البلاد تزداد سوءاً ، الاقتصاد الوطني يتدهور ، والمناخ السياسي يصبح متوتراً . محاولات الحكومة حل المشكلة تواجهها معارضة قوية وتعاون مضاد من قبل التنظيمات التي أصبحت قوية مثل الحكومة الديمقراتية ، وهي تنظيمات مثل المجالس التشريعية بما فيها من معارضة ، والأجهزة التنفيذية والهيئات القضائية . وعندما تصبح الظروف في الدولة تحت السيطرة في النهاية تضطر الحكومة إلى الاضطلاع بالسلطة في ظل قوانين الطوارئ ، وهذا معناه أن الديمقراتية قد حل محلها سلطة استبدادية ، وعندما يحدث ذلك فسوف تستخدم الآلة الغربية بكاملها لإدانته الدولة المعنية ، وينضم إلى الهجوم الدول الشرقية الأخرى .

على امتداد التاريخ الإنساني ، كان للشرق والغرب صلات وعلاقات مشتركة ، وحيث إن كليهما كان مركزاً للحضارة الإنسانية ؛ فنادرأ ما كانت علاقاتهما سلبية . كلاهما كان يحاول السيطرة على الآخر ، كما أن هناك خصومة مستمرة . كان الغرب يتصرّأ علينا وسيطر على الشرق ، وقد حدث ذلك في العصر النهبي لمقدونيا تحت حكم الإسكندر الأكبر ، والعصر النهبي لروما تحت حكم قياصرة كثرين ، ثم حدثا في عهد الإمبراطورية البريطانية ، كما حدث في عهد چنكىز خان وفي القرون الأولى لانتشار الإسلام .

وفي كل مرة كان الغرب يسيطر فيها على أراضي الشرق أو العكس ، كان من الصعب محو آثار تلك السيطرة بسهولة حتى ولو بعد قرون من انتهاء الاحتلال ، ولكن هذا لا يغير أو يعدل هوية الغرب . يظل الغرب هو الغرب ، ولكنه تقدم وأصبح قوياً الآن نتيجة استيعابه لمعرفة الشرق . أما الشرق فيمر بمرحلة تحقق فيها الاستقلال بالمعنى المادي ، بينما يقوى الغرب الاستعماري قائماً ، وهذا التفاؤل يقوى عن طريق وسائل الاتصال الحديثة التي تكون لأى حدث أو فكرة في الغرب من أن تكون معروفة فوراً في الشرق . وإذا كانتطبقات الاجتماعية العالمية كانت معنية بالحضارة المستعمرة والثقافة المستعمرة في الماضي ،

إلا أنها نجد العادة من الناس معرضين اليوم لمؤثرات من الخارج ، وهكذا فإن جميع الطبقات تشعر بتأثير المستعمرين السابقين ، وهذا الأمر يجعل تنمية تلك المؤثرات عملية صعبة للغاية ؛ بحيث يتم استيعاب الجوانب الإيجابية منها فقط .

ولكن هذه الحقيقة أيضاً قد جاءت بوسائل فنية وأساليب للتحليل والتخطيط المركزي للتنمية بحيث يتم التركيز على الأهداف المحددة . وليس هناك أى سبب يجعل نفوذ وأثر المستعمرين السابقين أو بالأحرى النفوذ الغربي لا يمكن تخليله واستيعابه بشكل منظم وجيد بواسطة دولة أو جماعة ما . وهناك مثال قائم على ذلك بالفعل . إن تحديد اليابان في عصر الميجي يصور لنا عملية الاستيعاب المخطط للحضارة الأجنبية . إن استيعاب الجوانب المقيدة والجيدة من المعارف الغربية والوسائل والأساليب الحديثة يمكن أن يتم كذلك بطريقة منظمة ومنهجية في أيامنا هذه ، ولذلك لا بد من أن يقرر الشرق لنفسه الجوانب التي يمكن أن يحاكيها وإلى أي مدى يمارسها ويطبقها . والشرق بخلفيته الحضارية المتميزة ذات القيم المترفة من العالم كله قادر بالفعل على عملية الاختيار الجيد .

وفي عملية الاختيار لامكان للنظرية الضيقية القائمة على العاطفة والاعتزاز المفرط بالهوية الشرقية . المهم هو أنه في الوقت الذي ينبغي فيه المحافظة على الهوية الشرقية ، لا بد من الأخذ في الحسبان كذلك خجاج وقوة الغرب ، بذلك يظل الشرق هو الشرق ، ولكنه سيكون قادر على الحفاظ على شخصيته وكيانه في العالم الحديث بما فيه من اتصالات كونية وثيقة .

إن ماليزيا وأبناء الملايو معنيون تماماً - وبشكل مباشر - بالصراع بين الشرق والغرب ، وبينما قد تأقلم غير الملايوين بسهولة مع الحضارة الغربية ، ي Blvd أبناء الملايو أكثر انجذاباً إلى شكل هذه الحضارة مماهم إلى مضمونها . وهكذا نجد أنه بالرغم من أن الشباب يرسلون شعرهم ، إلا أن غالبيتهم للمعارات لا يتاسب مع اتبعهم لتلك الموضوعات . لقد ثقلوا

الأساليب العنيفة للغرب بسرعة ، ولكن ليس للقيم والمعايير التي حققت للغرب قوته وتفوقه .

لقد كان ينبغي التفكير في تأثير الاستعمار الغربي وتحليله قبل ذلك بكثير ، وكان ينبغي أن يكون تمثل الحضارة أكثر تنظيماً قبل فترة طويلة ، وبالرغم من هذا التأخير إلا أنه يظل هناك وقت للتفكير وللعمل . المهم في هذه اللحظة هو الوعي ؟ فهل تراه موجوداً أو أن الشرق ما يزال هائماً في خيالاته ؟ هذا هو السؤال المطروح في هذا الكتاب ؛ فما الإجابة ؟

الفصل الخامس المادة والروحانية

﴿وَابْتَغِ فِيمَا أَنْتَكَ اللَّهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ وَلَا تَنْسِ نَصِيبِكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَنْعِي الْقَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾٧٧﴾

سورة القصص . الآية (٧٧)

هذه حقبة مادية ولا يستطيع أحد أن ينكر ذلك . بؤرة الاهتمام والمناقشة هي الشروء المادية على كل المستويات ، ونتيجة التأكيد على الشروء المادية هي خلق أيديولوجيات سياسية ومارسات مختلفة تقوم فقط على المادية الدينوية ، وأحيانا تكون هذه الأيديولوجيات جذابة ومغرية للعقل ؛ للدرجة أنها تحمل محل الأديان التي اعتنقها البشرية في العالم من قرون .

ومن بين الأيديولوجيات والسياسات القائمة على المادية ، والتي نجحت في إضعاف الإيمان الديني ، الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية . وبالرغم من أن الثلاث أيديولوجيات مختلفون ، إلا أنهم كلهم سواه من وجهة نظر الروحانية . الثلاث لا يولون أي اهتمام للروحانية ، ويزعمون أن الإنسان يعيش من أجل ما يمتلكه ، وهو سعيد به .

الرأسمالية بالرغم من ذلك لم تُنسَ باعتبارها أيديولوجية ، بل نشأت من التجارة الموجودة حتماً في المجتمع الإنساني . في البداية كانت التجارة وسيلة للمعيشة مثل كل الأعمال الأخرى ، ولكن من لديهم المهارة التجارية استطاعوا الحصول ليس فقط على دخل يعيشون منه ، وإنما على ثروة طائلة . حلول الشروء الصناعية حطم كل المعروقات في طريق الاندفاع نحو تكريس الشروء ، وهذه الحقبة شهدت ميلاد الرأسمالي الحديث المجرد من القيم الإنسانية الذي كانت الشروء المادية هي إلهة المعبود ، واندفع الناس نحو الشروء دون أدنى

التفات إلى معاناة الآخرين أو المجتمع أو تلوث البيئة . لم يكن لاعتبار أو الإنسانية أي وجود ، كما تم تحية كل التعاليم التي تتضمن أي عناصر دينية أو روحانية .

قصوة الرأسماليين وظلمهم لا بد من أن تكون محل إدانة واستنكار من المجتمع العاقل ، لكن الذي لا يمكن إنكاره هو أن الصناعة والتجارة التي يديرها الرأسماليون تخلق فرص عمل متعددة لن ليس لهم مصدر دخل آخر ، وكلما ازدهرت الصناعة والتجارة زادت فرص العمل أمام العاطلين .

ومن الواضح أنه إذا تمت السيطرة على الرأسماليين أو إعادتهم إلى الطريق الصحيح ؛ فإن نشاطهم يمكن أن يكون مفيداً للمجتمع . ولسوء الحظ فإن الرأسماليين ليسوا فقط أغبياء ، بل أقبياء أيضاً ، ثرواتهم يمكن أن تسيطر على السلطة ، وهذه السيطرة نوع من الفساد ، والمجتمع الرأسمالي يزداد سوءاً بهذا الفساد . والمحتم أن يمر المجتمع الرأسمالي بانحلال أخلاقي ؛ حيث إن هاجسه الرئيسي هو المادة ، كما أنه يرفض الروحانية والدين .

أصبحت السيطرة على النظام الرأسمالي أكثر صعوبة ، ليس لأن الرأسماليين يستطيعون فقط استخدام ثرواتهم للحصول على المزيد من القوة ، وإنما أيضاً لأن النظام تطور بسرعة في مجتمعات غير إسلامية لاتؤكد على القيم الروحانية . كان أثر الدين على الدول الغربية قد تدهور قبل الثورة الصناعية بقرون ، ولم تنجح القيم الروحانية الموجودة في الدين الذي اعتنقته الشعوب الغربية في تعديل توجهاتهم الرأسمالية . لم يكن للروحانية - ولا لأى قوة أخرى - مكان لكي تعيد تلك المجتمعات إلى الطريق السوي .

وحيث إن الروحانية كانت ضعيفة ، كان الجشع من أجل الأشياء المادية قد استخدم لمحاولة السيطرة على الرأسمالية ، وكانت الفاهيم الشيوعية والاشراكية التي ابتكرت لمقاومة الرأسمالية متأثرة تماماً بالروحانية والدين . كلتاهما يعتقد أن الملكية والثروة يمكن أن تكونا مؤثريتين في إقامة العدل والسعادة بين البشر ، وهكذا فإن الرأسمالية والشيوعية والاشراكية سواء في ذلك ، كلها ترفض الروحانية وتعبد المادة .

الظلم الذى يتزلاه أصحاب العمل بالعمال دفعهم لأن ينظموا أنفسهم فى اتحادات لكي يوقفوا هذا الظلم . أدرك العمال أن الثروة التى يجنيها أصحاب العمل تعتمد على قوة عملهم ، ولذلك فإنهم لو توقفوا عن العمل بشكل جماعى نسوف يعرضون ثروة أصحاب العمل ودخلهم الكبير للخطر ، وأنها سوف تتناقصن . وبالنسبة للرأسماليين الجشعين كانوا يخشون شيئاً كهذا ، ولكن الإضراب عن العمل لم يكن شيئاً بسيطاً ولا مؤثراً ؛ لأنه فى نفس الوقت يقطع مصدر الدخل الوحيد للعمال ، ومن بين العمال وأصحاب العمل كان العمال هم الأكثر اعتماداً على أجورهم . وبالرغم من أن أصحاب العمل أنشأوا صناعات بهدف تحقيق الربح ، إلا أنهم لم يكونوا يعتمدون اعتماداً تاماً على تلك الأرباح ، ولم يكن الربح مسألة حياة أو موت بالنسبة لهم . الصراع بين أصحاب العمل الرأسماليين والعمال كان تأثيره على العمال أكثر منه على أصحاب العمل فى بداية العصر الصناعي .

قبل الثورة الصناعية ، وخاصة في القرن السابع عشر ، قام بعض الفلاسفة وعلماء السياسة بتحليل العلاقة بين الفرد والحكومة والمجتمع . ونتيجة لدراساتهم وتفكيرهم خرج بعضهم برأي يقول : أولًا إن أساس السعادة أو البوس الإنساني هو ملكية الثروة أو العكس ، ثانياً إن ثروة أي دولة هي ملك شعبيها تماماً . وهكذا فلكي يتحقق العدل ويقل الخلل الاجتماعي فلابد من أن تودع الثروة بالتساوي ، وتحقق هذا «النظام الاقتصادي» الجديد لابد من أن تستولي الحكومة على كل مصادر الثروة ، وتقوم بتوزيعها بالعدل بين الناس .

هذه الفلسفة كان من المستحيل أن توضع موضع التنفيذ؛ لأن الأغنياء كانوا أقوىاء قبل الثورة الصناعية ويعدها بوقت طويلاً، بينما لم يكن لدى العمال والفقراء أسلحة ولا قوة من أي نوع لضمان نجاح ذلك. وبعد أن زاد عدد العمل نتيجة للتوسيع الصناعي الذي تبع الثورة الصناعية، كان من رأي المثقفين (الإنجلجنيسا) أن الإضراب العام يمكن أن يوقف أو أن يكسر قوة أصحاب العمل والرأسماليين.

كان أولئك المثقفون هم الذين صاغوا الأيديولوجيات الاشتراكية والشيوعية ،

والأستان متطابقان في أهدافهما . كلتا هما ت يريد أن يكون الحكم للعمال ، وأن يمتلكوا كل مصادر الثروة . وبينما ت يريد الاشتراكية الاستيلاء على السلطة ومصادر الثروة عن طريق الأحزاب والتشريعات الجديدة بالتدريج ، ترى الشيوعية أن التغيير يمكن أن يتم فقط عن طريق عزل العمال والفلاحين (المعدمين) ضد أصحاب العمل وأعوانهم (البرجوازيين) ، وبالقضاء على الرأسماليين والبرجوازية سترجع إلى حيز الوجود حكومة العمال (الجماهير) لتسيطر على كل مصادر الثروة وتستخدمها .

ويبدو أن المثقفين الاشتراكيين كانوا يفترضون أن مصادر الثروة سوف تضمن تحقيق الثروة بشكل تلقائي . لم يولوا أي اهتمام للمهارة أو حفظ الربح ، ولكن الدراسة سوف تثبت بعد ذلك أن نجاح التكنولوجيا الصناعية الحديثة لا يرجع لخبراء التكنولوجيا . التكنولوجيا تنجح بفضل أصحاب الأعمال الذين يحفزهم الجشع الذي يحكم المجتمع الغربي المادي في كل العصور . ولو لا جهدهم وذبائحهم لما أمكن إنتاج شيء من أي مصدر للثروة سواء كان الخامات أو النفط تحت الأرض أو استخدام أساليب الإنتاج الكبير أو تجارة الاستيراد والتصدير أو التكنولوجيا الحديثة .

يقال إن النظام الاشتراكي يعتمد على العمال ، إلا أن التحليل الأعمق سوف يكشف لنا عن أن هذا النظام يعتمد في الحقيقة على الجشع الإنساني الذي يحكم تفكير المجتمع الذي يولي أهمية للملادية . الجشع الإنساني هو الجشع الإنساني سواء كان موجوداً في قلب عامل أو صاحب عمل ، غني أو فقير ، ملك أو من عامة الناس . فلسفة الحياة القائمة على الجشع من أجل الثروة لا يمكن أن تحقق السعادة ، وهذا يمكن أن نراه في الغرب حيث لا تتحقق الثروة سوى مشكلات لا يوجد أي مؤشر على حلها .

بريطانيا دولة تحاول تطبيق نظام اشتراكي عن طريق ديمقراطية برلمانية اعتقاداً أن الاشتراكية سوف تحقق العدل . الديمقراطية البريطانية تعتمد على عدد الأصوات التي يحصل عليها كل شخص ، وكان من رأى المفكرين الاشتراكيين البريطانيين أن العمال -

الذين يفرون أصحاب العمل عدداً - لو تم تنظيمهم في حزب فسوف يفوزون في كل الاتخابات وسيطرون على الحكم . هؤلاء المفكرون الاشتراكيون شكلوا حزب العمل ، ووحدوا العمال في فيدرالية للاتحادات العمالية تحت اسم مجلس اتحاد العمال البريطاني . رسوم الاشتراك في الاتحاد التي يدفعها العمال تم استخدامها كمصدر لتمويل حزب العمل .

التأييد الذي يمنحه العمال للحزب يعتمد على وعد الأخير لهم بأن الحكومة التي سوف يشكلها سوف تتحقق لهم الثروة (المادية) ، وكانت أدوات الحزب هي أصوات العمال وقدرتهم على تخويف أصحاب العمل والمجتمع عن طريق الإضراب وأشكال العمل الصناعي الأخرى . حكومة العمال ستقوم بتأمين مصادر الثروة مثل صناعة الصلب واستخراج الفحم . إلخ ، وسوف تدخل خزانتها أرباح ضخمة من هذه الصناعات تستخدم من أجل رفاهية العمال كلهم ، هكذا كانت النظرية .

ونتيجة لجهود حزب العمل أصبح العمال البريطانيون قوة سياسية جبارة ، وفجروا أكثر من مرة في تشكيل الحكومة ، وأصدروا حكومة العمال قوانين عددة تعطي الأولوية للعمال وزيادة سلطتهم ودخلهم . تم تأمين صناعات كبيرة ، ولكن الأمال في مجتمع أكثر عدلاً واستقراراً لم تتحقق .

وبالرغم من أن مطالبات العمال قد تحققت بالكامل ، إلا أنهم لم يقنعوا ، واستمرت مطالباتهم مع التلويع بالأحزاب دائماً . وباختصار فإن موقفهم من ملكية الثروة لم يكن مختلفاً عن موقف أصحاب العمل والرأسماليين . لقد كانوا مستعدين لتهديد المجتمع وزيادة الأمور سوءاً في سبيل زيادة دخولهم . إن عدم التوازن في المجتمع الاشتراكي أمر متواتر ، ولا يوجد إلى اليوم دليل على أن مشكلات المجتمع الإنساني يمكن أن تحل عن طريق تطبيق التصور الاشتراكي .

أصحاب العمل هم أصحاب العمل ، سواء أكانوا من أصحاب رأس المال الخاص أم

كانت الحكومة ، حتى تلك الحكومات المنتخبة من قبل العمال . الصناعات المؤممة مفتوحة أمام المطالب والتهديد بالإضراب مثلها مثل الصناعات المملوكة للقطاع الخاص . الأمال التي كان يهدف إليها المفكرون الاشتراكيون بأن تأميم الصناعات سوف يحل مشكلة استغلال العمال من قبل أصحاب العمل ، هذه الأمال لم تتحقق . أما العمال فيتهمون الصناعات المملوكة للدولة بالظلم ، وليس هذا فقط ، بل نجدهم في الوقت نفسه غير مستعدين لأن يقدموا خدمات أفضل لها . والنتيجة هي أن الصناعات المملوكة للدولة تحقق خسائر لم تتحقق عندما كانت ملكية خاصة . وبينما كانت الصناعات الخاصة تدفع ضرائب للدولة ، فإن الصناعات المؤممة ينبغي دعمها عن طريق الضرائب التي تجمعها الحكومة .

كل ذلك ناجح عن الاعتقاد أن نظاماً يقوم على المادية يمكن أن يحقق السعادة للمجتمع الإنساني . الاشتراكيون لديهم فكرة ، وهي أن مصدر الشروء الذي كان ملكاً لأصحاب العمل الرأسماليين إذا أصبح ملكاً للعمال فإنهم سيكونون راضين بذلك . ومن أسف أن العمال في مجتمع مادي بشر عاديون وجعلون مثل أصحاب العمل تماماً ، ففي مجتمع يسترشد بالمادية لا شيء يمكن أن يشبع الرغبة منها كان . وهكذا فإن الاشتراكية من المستحيل أن تحقق السعادة والاطمئنان للمجتمع الإنساني . والنتيجة هي أن القلائل والمظلوم سوف تنمو في المجتمع الاشتراكي ، كما هو الحال في المجتمع الرأسمالي تماماً .

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ وَرَحِمُتَ رَبُّكَ لَعَنْ قَسْمَتِنَا بَيْنَهُمْ مُّعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَقَّتْ بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضِهِنَّ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُرُورًا وَرَحِمَتْ رَبُّكَ خَيْرٌ مَا يَجْمِعُونَ (٣٢)﴾

سورة الزخرف- الآية (٣٢)

عندما يتشر ويداع رأى أو معتقد ، فليس من السهل أن يتبنى أحد الرأى المخالف . والاشراكية في أيامنا هذه زائعة بسبب الاعتقاد أن التوزيع المتساوي للمقدرات هو العدل . وهذا الرأى مقبول ، ليس في الغرب فقط ، وإنما في كل العالم تقريباً . وهكذا لا تجرؤ الجماعات الأخرى على تحدي المفهوم الاشتراكي للمساوة . والحقيقة أنها تحاول أن تظهر

أنها هي الأخرى تعتقد وتطبق هذا المبدأ الاشتراكي أو أنها على الأقل لديها ميول اشتراكية . وهكذا حاول بعض المسلمين أن يبيّنوا أن الإسلام بالمثل توجد به بعض العناصر الاشتراكية ، ويعتبرون المفاهيم وال تعاليم الإسلامية عن الأخوة والمساواة بين المسلمين دليلاً على أن المبادئ الاشتراكية جزء من الإسلام ، وأن المسلمين يمارسونها منذ القدم ، كما يستنتاجون أن الإسلام والاشراكية ليسا فقط متطابقين ، بل إن الإسلام هو الاشتراكية الأصلية .

وبينظرة سريعة ، قد يبدو هذا الرأي مقبولاً ، ولكن الشخص الدقيق سوف يكتشف لنا أن ليس هناك ما يبرره على الإطلاق . المساواة التي تطلبها الاشتراكية مساواة مادية . العامل يعتبر آخرًا ومتساوياً مع عامل آخر ؛ لأن عملهما ودخلهما متساويان تقريباً ، لكن العامل ليس آخر الصاحب العمل حتى وإن كانا من نفس العرق ويعتقنان نفس الدين . صاحب العمل لا يمكن أن يعتبر آخرًا لأن دخله (ثروته ومتلكاته) أكبر من دخل العمال . وحيث إن صاحب العمل ليس آخرًا ؛ حتى وإن كان إنساناً طيباً يتعاطف مع مطالب العمال ويلبيها ، إلا أنه ما زال محل معارضة ؛ لأنه لا يتمتع للطبقة العاملة . وباختصار ، ما دام هناك صاحب عمل آخر غير الحكومة فإن الأخوة والمساواة لا يمكن أن تتحقق في المجتمع الاشتراكي . ستكون الحياة منقسمة حسب الطبقة ، الاشتراكيون يريدون هدم المكانة المادية لصاحب العمل عن طريق استيلاء الدولة على الممتلكات (الثروة) .

الاستيلاء على ممتلكات الآخرين يعتبر عملاً شائعاً في نظر الجميع ، لكن الاستيلاء على ممتلكات الأغنياء (أصحاب العمل) يعتبر أمراً جيداً في نظر الاشتراكيين ، حتى وإن كانت تلك الممتلكات قد تم الحصول عليها بوسائل مشروعة من الناحية الدينية أو القانونية . النظرية الاشتراكية ترى أن الممتلكات التي يتم الاستيلاء عليها من قبل الحكومة الاشتراكية تصبح من حق الناس (العمال) أي أن تأميم ممتلكات الأغنياء يعني أن العمال سوف يحصلون على تلك الثروة ، وهكذا لا يعتبر الاشتراكيون هذا الاستيلاء أمراً خطأً ما دام الهدف هو « العدل » .

ولكن بعد أن تم تأمين صناعة الفحم في بريطانيا استمر العمال في إضراباتهم وتوجيه النقد لصاحب العمل الذي هو الحكومة ، بالرغم من أنها كانت حكومة حزب العمل التي انتخبوها هم أنفسهم ، حتى ذلك لأن الاشتراكية مثل الرأسمالية تقوم على المادية ، والعمال الذين يعذبون المادية لا يستطيعون التمييز بين الأجور التي يدفعها صاحب العمل الخاص وتلك التي تدفعها الحكومة . إنهم يريدون أكثر مما يحصلون عليه ؛ لأن الفلسفة المادية تفرض على السخط المستمر والصراع المتواصل للحصول على المزيد من الممتلكات . وهكذا فإن إشباع الحاجة لا يعني توقف الاحتياج ، ومهما كانت الاستجابة للمطلب فسوف يواصل العمال الإثارة من أجل الحصول على مكافآت أكثر .

ولزيادة وتشجيع المطالبة بمكافآت أكثر ، تستغل الرغبات ونقاط الضعف الإنساني في العملية . ومهما كانت مكافآت العمال فإن قيادتهم سوف تشير إلى أولئك الذين يحصلون على مكافآت أكثر ويحثوهم على طلب أجور أعلى ، كما يتم صوغ شعارات لإثارة السخط والخذل . حتى عندما تزيد دخول العمال فإن شعار «الأغنياء أكثر غنى والفقراً أكثر فقرًا» يظل مرفوعاً ، وتم في ركبة الحسابات والدلائل لإثبات أن هذا الشعار يعبر عن واقع .

ويستخدم ارتفاع أسعار السلع كبرهان على أن الشعار الاشتراكي صحيح ؛ فالدخل المرتفع لا يستطيع شراء المزيد من السلع بسبب ارتفاع الأسعار ، وهكذا فإن الدخل يصبح منخفضاً بالفعل . وبالرغم من أن جذور المسألة هي في ارتفاع مستوى المعيشة والاحتياجات ، إلا أن ذلك يتم تناصيه عمداً . ونتيجة للحملة التي تعتمد هذا الشعار ، يكون الجشع الذي لا يمكن إشباعه . لن يتحقق الشعور بالرضا . المخد والحسد يتاميان ، ويتم اللجوء إلى كل الطرق بسبب الجشع . المجتمع لا يعرف الاستقرار وتقع الأضطرابات ويحدث الإضراب وينعن العمال من دخول أماكن العمل بسبب الرغبة الدائمة في الحصول على المزيد . ومهما كان هناك من استجابة للمطلب ، يظل هناك دائماً ما يستدعي الإثارة على أساس أن الأغنياء يزدادون غنى والفقراً يزدادون فقراً .

وكون الأغنياء في مجتمع حديث مثل ماليزيا يدفعون ضرائب عالية ، هي حقيقة لا يلتقط إليها أحد من الأطراف المعنية ، ورعاً يقللون من شأنها . الحكومة الحديثة هي دائماً عامل لتضييق الفجوة في مستوى المعيشة بين الأغنياء والفقراه . وهكذا يدفع الأغنياء ضرائب عالية على دخولهم وعلى السلع التي يستهلكونها ومتلكات وتركات المتوفين . . . إلى غير ذلك . والضرائب التي يتم جمعها تستخدمها الحكومة لتقديم خدمات مجانية مثل التعليم والصحة والدين والاتصالات والتنمية وكافة أشكال الدعم والمساعدات المالية للمعدين والأقل مستوى . ولو كنا قد اتبينا النظام الإقطاعي والنظام الإداري الاستعماري لكن الأغنياء يدفعون من أجل التسهيلات والخدمات الخاصة بهم فقط ، ولكن على الفقراء أن يغولوا أنفسهم في كل المجالات ، وفي مثل تلك الحال سيكون شعار «الأغنياء أكثر غنى والفقراه أكثر فقر» صحيحـا . والمؤكد أن الفقراء لم يكونوا قادرين على بناء مدارس لأنفسهم أو مستشفيات أو طرق أو توفير النفقات الازمة للخدمات الدراسية أو الصحية التي يحصلون عليها مجاناً الآن من الحكومة .

إن هذه الحقائق كلها لا تجد من يشير إليها من أولئك المغرمين بتردد واستخدام شعار «الأغنياء أكثر غنى والفقراه أكثر فقر» . رعاً كانت هناك ظروف في دول معينة - وفي هذه الدولة أثناء الفترة الاستعمارية والإقطاعية وترة ما بعد الاستقلال ، رعاً كانت تلك الظروف تستحق رفع هذا الشعار ، لكن أسلوب الحكم الديمقراطي في ماليزيا اليوم لا يسمح بوجود تلك الظروف .

ومن أسف أن الحقائق لا يعترف بها أحد ، أو أن تكون مقبولة دائماً وخاصة من قبل أولئك الذين يعبدون المادة . الحقائق تبـذـ دائماً بسهولة لصالح الرغبة والهوى ؛ أي وسيلة حتى وإن كانت تتضمن الاستهانة بالحقائق تكون مقبولة بالكامل لإشباع الرغبة في الاستحواذ المادي . ودون التفات إلى الحقيقة يتواصل الزعم بأن الفقراء يزدادون فقراً والأغنياء يزدادون غنى ، وهكذا دائماً توجهات وسلوك المجتمع المادي .

وهذه الآية توضح موقف الإسلام القوى من الآخرة ، حتى بالنسبة لمن هم أعداء يجب أن يتحدون ، والمؤكد أنه ليس مطلوباً أن يكون المسلمون أعداء لبعضهم البعض حتى تتحقق المساواة في الملكية .

وأوضح من ذلك كله أن الإسلام ليس الاشتراكية ، ومحاولة البرهان على أن هناك عناصر اشتراكية في الإسلام أو أن الإسلام قائم على الاشتراكية ليس محكماً عليها بالفشل فقط ، بل ينبغي الالتفون في الأساس ، إنها تهدف إلى الخط من مكانة الإسلام باعتباره ديناً من عند الله ، والتزول به إلى مرتبة الأيديولوجيا التي هي من صنع البشر الفانيين . الإسلام والاشتراكية ليسا الشيء نفسه ، والحقيقة أنهما متعارضان تماماً . وهكذا نجد أنه عندما تطبق الأيديولوجيا الاشتراكية في دولة إسلامية ، يضعف الإيمان الديني في النهاية ، وتصبح الحرب الأهلية حديثاً متكرراً .

ربما كان هناك من الفلسفه والمفكرين من يرون أنه بالرغم من كون الإسلام والاشتراكية ليسا الشيء نفسه ، إلا أنها نخسر شيئاً بقبول المساواة المادية وأضافتها إلى المساواة الروحانية والإيمان المطلوبين في الإسلام . لأن يكون المجتمع الإسلامي الذي توحد الروابط الروحانية بين أفراده مجتمعاً أقوى لو أننا أزيلنا الفوارق في الملكية؟

من المنطقى أن إضافة المساواة المادية إلى المساواة الروحانية سوف تقرب بين البشر ، ولكن من أسف أن المساواة المادية مستحيلة ؛ لأن ذلك ضد الطبيعة . لم يخلق في الدنيا شيئاً متشابهان تمام الشابه . كل الأشياء مختلفة . لا يوجد شخصان متماثلان بين الأربعين ألف مليون نسمة من سكان العالم ، كما بضمات أصحاب تلك الملايين مختلفة . هذه حقيقة لا سبيل لإنكارها . أي محاولة للمساواة لن تفشل فقط ، بل إنها سوف تفتح الباب أمام مشكلات عديدة قد تؤدى إلى نتائج غير مستحبة . عندما ثار شعب باريس في ١٧٨٩ - ١٧٩٣ وأعدموا الملك لويس الرابع عشر وماري أنطوانيت وعدها آخر من أبناء الأستراتجية الفرنسية ، كانوا يزعمون أنهم سوف يرفعون لواء الحرية والإخاء والمساواة ، ولكن بعد قتل

الألوان والاستيلاء على ثرواتهم لم تتحقق المساواة حتى بين الثوار أنفسهم ، بل إنهم تنازعوا وانختلفوا فيما بينهم .

منذ الثورة الفرنسية والصراع على الملكية والثورة لم يتوقف . خرجت نظريات كثيرة وجريت طرق عدلة لتحقيق المساواة في المجتمع الإنساني ، الاشتراكيون وضعوا نظاماً سياسياً يمكن أن يعطي سلطة العمال الذين يفترض أنهم مظلومون لكن يستخدموا هذه السلطة للاستيلاء على مصادر الثروة ويعوزونها بالعدل . سيكون هناك حقوق متساوية للجميع ودخول متساوية في الدول الاشتراكية ، ولون يكون أحد فوق الآخر ، وإذا لم تكن هناك فرص عمل كافية فسوف يكون للعاطلين حقوق وإعالة من قبل الحكومة . الموارد الطبيعية ملكية عامة للشعب ، وعائد تلك الموارد لا بد من أن يعطى للجميع : العاملين منهم والعاطلين على السواء .

ومن أسف أن الرضا والإخاء لا يتحققان ، بل إن المشكلات الاجتماعية تتزايد كل سنة وكل شهر ، بل كل يوم . هناك أعمال شغب ، الذين تمت المساواة بينهم في الوضع الاجتماعي والثروة المادية يدور بينهم صراع دائم ويستمر العداء ، ومهما كانت المعابر المستخدمة فإن كلاماً منهم يعتقد أن لا مساواة بينه وبين الآخرين . طلب بالمساواة هو طلب المساواة بأخر يمتلك أكثر . ولم يحدث أبداً أن كان هناك بين العمال أو بين الرأسماليين مطالبة بالمساواة مع صاحب دخل أقل . وفي دولة اشتراكية مثل بريطانيا ، حولت المطالبة بالمساواة الدولة التي كانت غنية ذات يوم إلى دولة مثقلة بمشكلات لا حصر لها . في الحقبة الاستعمارية كان عمال مناجم الفحم فئة مظلومة ، كان عملهم خطراً كما كان سيباً في الوفاة الباكرة ، والدخول قليلة .

ونتيجة لمفهوم المساواة الذي يدافع الاشتراكيون عنه ، تمت زيادة دخول عمال المناجم التي استولت عليها الدولة ، وقلت مخاطر العمل عن طريق استخدام الوسائل الحديثة . ارتفع دخل العامل في مناجم الفحم مئات المرات عما كان عليه في نهاية القرن التاسع

عشر . تحسن أسلوب حياته كثيرا ، وأصبح أفضل من سواه لدى العمال الآخرين ، إلا أن عمال المناجم ما زالوا غير راضين ، ويقارنون عملهم بالوظائف المكتبية ، ويقولون إنه لا توجد مساواة ولا عدل . وللحصول على أجور أعلى يضربون عن العمل في فصل الشتاء ، ويعني الإضراب عن العمل في المناجم أن عددا كبيرا من المنازل لن يكون لديه وقد للتدفئة . ويعرض سلوك العمال هذا صحة كبار السن والمرضى للخطر وبالأشخاص بين الطبقات الفقيرة فيصاب بعض أولئك التعباء بأمراض ، وربما يلقون حتفهم من البرد الشديد . وبالنسبة لهم فإن «المساواة» التي يطالب بها عمال المناجم تعتبر قسوة بالغة ، ولكنهم قلة غير منظمة لاستطاع التظاهر والمطالبة بالمساواة والعدل لأنفسهم ، وهكذا يتضح أن الطالبة بالمساواة (والعدل) يمكن أن تكون سببا في الخلل الذي يحدث للمجتمع الإنساني . وتحدث أمور كثيرة مشابهة طوال الوقت نتيجة المطالبة بالمساواة والعدل . مرضى يعانون لأن المرضيات والأطباء يطالبون بالعدل ، عمال يفقدون وظائفهم لأن غيرهم يطالبون بالعدل ، التقدم الذي يطالب به العمال أنفسهم يتأثر ؛ لأن مجموعات متعددة منهم يعملون من أجل مصالحهم فقط .

ويبنوا يعمل الاشتراكيون عن طريق التشريع والإضرابات ، تطالب جماعات أخرى بالمساواة عن طريق الاستيلاء على السلطة . الشيوعيون يعتقدون أن المساواة يمكن أن تتحقق فقط بالقضاء على الفتنة الأرستقراطية والرأسمالية والبرجوازية ، ويستولون على السلطة لكي يقيموا دكتاتورية البروليتاريا . وكما حدث في الثورة الفرنسية كانت هناك مجاذر فظيعة أثناء عملية الاستيلاء على السلطة عام ١٩٧١ في روسيا . لم يكن الأرستقراطيون والرأسماليون والبرجوازيون فقط هم الذين يقتلون ، بل إن القتل امتد إلى العمال والفلسين الذين كانوا يرفضون الشيوعية . ومن وقت لآخر كان الناس يعدمون أو ينفون لكي تتحقق الأيديولوجية الشيوعية التي تزعم أن إزالة الفوارق بين الطبقات من أهدافها ، لكن المجتمع الشيوعي لم يحقق المساواة بعد من إطلاق لفظة «رفيق» على الكل . وفي الدول الشيوعية

التي يقال إن الكل فيها سواسية ، مازالت هناك جماعة تستخدم السيارات وتسكن القصور و تستطيع السفر إلى الخارج ، بينما ٩٠٪ من السكان لا يوجد لديهم تسهيلات من أي نوع .

إن أثر المادية الذى يحفل على المساواة ليس مقصوراً على الاشتراكيين والشيوعيين ؛ ففى الدول الرأسمالية أيضاً هناك مطالبات بالمساواة المادية في كل الأمور . وإلى جانب الحقوق السياسية المتساوية ، فإن جميع المواطنين يطالبون بحقوق متساوية للحصول على الشروء والحرية فى إطار الاقتصاد الحر . والغريب أنه فى كل مرة تتحقق فيها «المساواة» لا يتتحقق العدل ولا السعادة ، بل على العكس ، تظهر فوارق أكثر ولا تتوقف المطالبة بالمساواة ، وهكذا يظل المجتمع فى حالة قلق . هذه الظاهرة الغربية يمكن ملاحظتها فيما يلى : اللون الذى لا يمثل مشكلة بالنسبة للمسلمين أصبح قضية كبيرة للمنادين بالمساواة فى الغرب . الاهتمام لا ينصب فقط على الفوارق فى الحقوق والشروء بين البيض والسود ، بل إن هناك محاولات لتضييق الفوارق فى الهيئة والظاهر ، وبينما يقلل السود لغة ودين وقيم وأسلوب حياة البيض ، تجد البيض يصنفون شعورهم مثل السود ويقلدون لغتهم وثقافتهم .

كل هذه الجهود فشلت فى تحقيق مساواة ؛ لأن المساواة المرجوة ليست روحانية ، وإنما هي خارجية تماماً ؛ حتى وإن كانوا متماثلين فى الدين واللغة والعادات فإن البيض والسود مختلفون فى قلوبهم وعقولهم ... إلخ .

شكل آخر من أشكال المساواة التي يطالب بها المجتمع الغربي هو المساواة بين الجنسين . في البداية ، كانت مطالبة المرأة بحقوق متساوية في التصويت ، لكن المطالبة بالمساواة قد زادت اليوم . النساء يطلقن شعورهن وكذلك الرجال ، وأن الرجال يرتدون البنطلونات أصبحت النساء يرتدن البنطلونات ... إلا أنهم ما زالوا مختلفين . ولتقليل الفوارق بين الرجال والنساء تم صنع ملابس تصلح للجنسين ، ومع ذلك يبقى الرجال رجالاً والنساء نساء ، وهكذا يستمر الصراع الغريب .

وإذا كان الرجال يستطيعون مشاهدة عروض التعرى التي تقوم بها المرأة ؛ فلماذا لا

يشاهد النساء عروض تعرى الرجال؟ إذا كانت بعض النساء يعملن في الدعاارة فما الذي يمنع الرجل من أن يقوم بالعمل نفسه؟ والمؤكد أنه لن تكون هناك مساواة في الحقوق ما دام الرجال والنساء لا يتمتعن بالحقوق نفسها في مثل هذه المجالات . وبالرغم من ذلك لم يتوقف هذا الصراع المجنون ، فقد بربت إلى السطح مطالب جديدة . هل هناك مساواة في الحقوق بين النساء أنفسهن؟ لماذا ينظر المجتمع إلى الدعاارة باحتقار؟ أليس ذلك فرقاً أيضاً (في الحقوق)؟ وهكذا تقوم الداعرات بالظهور ومهاجمة الكنائس حتى يكتف رجال الدين المسيحي عن التمييز بينهن وبين غيرهن من النساء ، وتذهب مثلاً للمهنة لحضور الملتقيات الدولية للمرأة ، وتجدد كل الدعم لطالبيهن بالحقوق المتساوية وبالعدل .

ومن أسف أن ذلك كله قد فشل حتى الآن في تحقيق المساواة في المجتمع الغربي . لماذا تتزوج النساء من الرجال؟ ما الخطأ في زواج نساء من نساء؟ والرجال من رجال؟ ما الخطأ في أين يبحث الرجل عن «عشيق» من الرجال والمرأة عن «عشيقه» من النساء؟ المطالبة بالمساواة اليوم لا تعرف حدوداً ؛ أي أن المطالبة بالمساواة سوف تعيق مشروعة ويتم الاستجابة لها في النهاية . وهكذا تتدحر الأختيارات في الغرب مع تحقيق كل مطلب من مطلب المساواة ، وحيث إن الأطفال والأباء متساوون ، فلا حاجة لأن يحترم الأطفال آباءهم ، وحيث إن التلاميذ والمعلمين متساوون ، فلا حاجة لأن يطيع التلاميذ معلميهم ، وحيث إن المسؤولين ورؤسائهم متساوون فلا حاجة لأن يطيع المسؤول رئيسيه ، الواقع أن الرؤساء لا بد من أن يطيعوا مرؤوسיהם .

المشكلة هي أنه لا يمكن تحديد متى يكون من اللازم أن يطيع المسؤولين رؤسائهم والرؤساء مرؤوسهم . المجتمع يصبح في حالة فوضى ؛ لأن للرؤساء والمسؤولين حقوقاً متساوية في القيادة ، بينما أفكارهم ليست متطابقة .

وبالرغم من أنه من الواضح أن «المساواة» ليست ضارة بالمجتمع فقط وإنما مستحبة ، إلا أنها ما زالت تلقى احتراماً باعتبارها صيغة من صيغ «العدل» الذي يجب أن تنعم به

البشرية . المسلمين أيضا يحترمون تلك الصيغة الغربية ويقبلونها كمرادف للعدالة ، وبالتالي فإن الارتكاك واللاإتزان الذى يحدث فى المجتمع الغربى قد بدأ يتخلل المجتمع المسلم نفسه .

لا وجود للطبقة فى المجتمع المسلم . وبالرغم من وجود أغنياء وفقراء ، إلا أن المجتمع المسلم ليس مقسما إلى طبقات . المسلمين يقدرون الأسرة والعائلة التي ربما تضم الأقارب البعيدين . والأسرة المسلمة - على خلاف الأسرة الغربية - ليست مقصورة على الوالدين والأبناء ، الكل في الأسرة العربية مرتبط بروابط عائلية من الأجداد إلى الأحفاد ، وعائلة بهذا الحجم الكبير لا يمكن أن تكون غنية كلها أو فقيرة كلها . كل أسرة فيها الغنى والفقير ، وهذه الرابطة لا يمكن أن تنفصل بسبب الفوارق في الوضع الاقتصادي .

لكن المسلمين عندما يقبلون الوضع الاشتراكي المادى ، ويسداون في البحث عن «المساواة» المادية ، تبدأ الأخوة الإسلامية والتضامن تفقد جاذبيتها بالنسبة لهم ، وتقل أهمية الروابط الأسرية ، وتصبح الأولوية للطبقة وللملكية . وهكذا لابد من أن يصبح القراء والأغنياء أعداء . الفقير لابد من أن يستولى على ممتلكات الغنى ، الثروة (الغنية) لابد من أن توزع بالتساوي ، وهذا «عدل» لأن العدل يعني «المساواة» .

الأينادى الدين بالعدل؟ إذا كان الفرق بين الغنى والفقير ظلم ، فلا باب أن الدين سيكون ضد هذا الفرق . الاستيلاء على ممتلكات الآخرين محظوظ من الدين ، إلا أنه في تلك الحالة يتم الاستيلاء على هذه الممتلكات لتحقيق العدل . وإذا كان الدين ينادي بالعدل فلا باب إذن أن يكون الاستيلاء على الممتلكات مسموحا به دينيا ، وهكذا يغضى فكر المسلمين الذين قبلوا المادية الغربية ؛ لأنهم أصبحوا مهوسين بالمساواة ، ويلجأون حتى إلى تحرير تفسير التعاليم الدينية بحيث لا يكون هناك صراع بين الحقوق والعدل في الإسلام ، والحقوق والعدل في المادية الغربية .

واليوم ، تحولت بعض الدول الإسلامية إلى الاشتراكية ، بينما أحلى دول أخرى

الأيديولوجيا الشيوعية محل الإسلام ، ويحدث ذلك كله نتيجة الارتكاك وسوء الفهم بالنسبة للمادية والروحانية . من هنا ، كان لابد من تعريف كل من المادية والروحانية بدقة ووضوح . الشروة لا تعني المادية والفقر لا يعني القوة الروحية . الشروة والفقر ليس لهما تأثير مباشر على المادية أو الروحانية . المادية يمكن أن ترجم في الفقر والروحانية يمكن أن تكون قوية مع الشروة ، هذه الحقيقة لابد من أن تكون مفهوماً بالنسبة للمسلمين ، والإفان آية أيدلوجية من صنع البشر يمكن أن تختلط بدين الله ؛ بحيث يخسر المسلمون دينهم . إن أعداء الإسلام يتحركون ، ليس فقط على أرض المعركة ، وإنما في عقول البشر أيضاً . إن الغفلة قد تؤدي إلى أن يتآثر الإسلام بالفلسفة الغربية ولا يعود إسلاماً ، ولو حدث ذلك لقضى عليه .

وإذا كان يريد أن نحافظ على الإسلام وعلى الروحانية ، فلابد من أن يقوى الواقع درجة الإيمان . عندما يعاني شخص ما ، ويكون مجبراً على أن ينسى احترامه لذاته ، يصبح من الصعب عليه أن يصلق أنه يعيش حياة سعيدة بالفعل ، وأنه أسعد حالاً من جاره الذي يعيش في رغد بالرغم من عدم وجود إيمان ديني لديه . بالنسبة له يكون الواقع متناقضاً مع الإيمان ، ولن يقبل عقله أى زعم واضح بأنه غير حقيقي . وإذا اضطر لاستجداء المساعدة من الآخرين أو لأن يعتمد على إحسان جاره الكافر أو الملحّد ، فلا شك في أن إيمانه سوف يضعف . وإذا كان الآخرون من حوله يعانون أيضاً ولا يستطيعون مساعدته ، فسوف يضعف إيمانه أكثر وأكثر . وفي آخر الأمر ، وفي هذه الحالة من القلق ، سيكون إيمانه لا قيمة له في نظر الماديين الذين يقدمون له المساعدة ، فلابد أن ينهار ذلك الإيمان تماماً .

وما يمكن أن يحدث لفرد قابل لأن يحدث لجماعة أو مجتمع أو دولة ما ، وهذا ما نراه أمامنا الآن . في مواجهة الواقع الذي لا يمكن إنكاره أو رفضه عقلياً نجد الإيمان بالقيم الروحانية يتدهور ، وتتشلّج جهود استعادة الإيمان بسبب عدم القدرة على تقديم دليل واضح على أن ما تؤمن به صحيح . وفي حالة اليأس هذه ، تحاول بعض الجماعات أن تجد

أوجه شبه بين الدين أو الروحانية وبين الأيديولوجيات الغربية المادية . قد يقلل ذلك من الشكوك بخصوص الدين ، ولكن الدراسات أثبتت أن ذلك يؤخر فقط عملية فقدان الإيمان ، وفي النهاية تُحمل الأيديولوجيات المادية محل الروحانية .

وتحاول الجماعات الأخرى الحفاظ على الروحانية بأن تخمض عيونها وأذانها عن الواقع . يرفضون كل ما يعتبرونه دنيويا ، ويحاولون أن يعزلوا أنفسهم عن المؤثرات الأجنبية لإحياء الإيمان بالقيم الروحية التي كانت مزدهرة على أيام النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، كما يحاولون أن يمارسوا حياة تلك الأيام . إلا أن ذلك مستحيل . لقد تغيرت الظروف إلى حد كبير ولا يستطيع أحد أن يكون بمقدار عن غزو العالم الحديث . لقد مضى الزمن ولا يقدر أحد على استعادة أساليب الحياة الماضية ، وأى محاولة لعمل ذلك محكوم عليها بالفشل ، كما أن هذا الفشل سوف يعرض القيم الروحية التي يحاول المرء أن يدافع عنها وبقودها إلى الفشل .

يحدث ذلك لأن الذين يحاولون ممارسة أساليب حياة تلك الأيام يصبحون عادة أعداء للآخرين من بنى عقيدتهم ، الذين ليسوا مستعدين لقبول الأزمة الماضية ، وهذا العداء في الحقيقة يتصادم مع الروحانية ، كما يدلر تضامن المؤمنين بها ، الأمر الذي يضعف الجماعة أكثر وأكثر ، وفي النهاية خذلهم يفشلون في تحقيق ما يسعون إليه ، ويفقدون ما لديهم .

ويحدث ذلك في ماليزيا اليوم ؛ فالذين يزعمون أنهم مؤمنون حقيقيون بتعاليم الإسلام وقيمه الروحية ينظرون - ببرود ودون عاطفة - إلى من لا يضمون إليهم ، بل نجدهم يدينونهم ، كما يكيلون الاتهامات لن يضعفونهم بأنهم «جماعة ضالة عن الطريق المستقيم» ، وذلك لكي يظهروا صلاح موقفهم . روحانيتهم لا تنبع من التفوه بما هو غليظ وكاذب من القول ، وذلك كله من شأنه أن يضعف القرى الروحية ، وحيث إن تحديات هذا العصر لا يمكن النجاح في مواجهتها بالعزلة ، وحيث إن القيم المادية من المستحيل أن

تماشي مع القيم الروحية دون أن يكون في ذلك خطورة عليها ، فكيف يكون السبيل إذن لحماية القيم الروحية من أن تدمرها مادية المصر الحديث؟ وعلى نحو أكثر تحديداً ، كيف يجب أن يكون توجه المسلمين الذين يؤمنون بروحانية الإسلام لمواجهة تحديات العصر؟

وبما أن المادية التي هي أساس الحياة الغربية الحديثة يمكن أن توهن ، وربما تدمر ، الروحانة الهشة ، يصبح من الواضح لنا أهمية غرس وتنمية الإيمان بالقيم الروحية . ولغرس ونشر الروحانة ، ينبغي أن تكون قيمها واضحة ومشروحة جيداً . سبب رئيسى للبس هو العلاقة بين الروحانة والوضع الاقتصادي للشخص . الفقر لا يعني قوة روحانية ، كما أن الثروة لا تعنى ضعفاً ، ولهذا فلا وجود للطبقة في مجتمع يهتم بالروحانية ، ولأن «الطبقة» ليست موجودة ، فإن مشكلات الفروق الطبقية - التي هي سبب في كثير من الخلل في المجتمعات الحديثة - لن تهدى صفاء ورفاهية مجتمع متمسك بالروحانية .

وهناك سبب آخر وهو تعريف المادية ، ولأن المادية والمصالح الحياتية تحدثان معاً ، يحدث اللبس بينهما دائماً ، يكون لهما التعريف نفسه . والحقيقة أن الاثنين ليسا مترافقين كما سبق أنينا . عندما يمتلك شخص ما أشياء في الحياة فليس معنى ذلك أنه يرفض الروحانة أو أنه قد أصبح مسكوناً بالمادية . ولو أن ذلك صحيح لكان كل من يدعى التمسك بالقيم الروحية قد رفض كل أشكال الملكية المادية إلا ما هو ضروري منها للبقاء على قيد الحياة ومارسة طقوس العبادة ، ولكننا نعرف جيداً أنه حتى أولئك الذين يتولون مهمة نشر القيم الروحية يحتاجون إلى أجر أو مكافأة تناسب مع ما يقومون به من عمل ، والأجر الكبير أو المكافأة العالمية لا تعنى أنهم قد فقدوا إيمانهم بالقيم الروحية . إن الملكية والدخل ليس لهما أي أثر مباشر على الروحانة . وهكذا لا بد من تعريف المادية بوضوح ، وأن نظل بعيدة عن الملكية ومصالح الحياة الدينية .

يمكن أن يكون للمرة موقف إيجابي من الأمور الدينية ، ويظل في الوقت نفسه متمسكاً بالقيم الروحية ، ويعنى آخر ، يمكن تحقيق التوازن بين الاهتمام بالأمور الروحية

والاهتمام بالأمور الحياتية أو الدينوية ، إلا أنه لابد من التأكيد على أن مثل هذا التوازن لا يمكن أن يتحقق بين الروحانية والمادية . وبما أن المادية لا تعنى فقدان الروحانية ، فإن التوجه الصحيح لم ينمسكون بالقيم الروحية يمكن أن يقرر ذلك . إنهم ليسوا في حاجة لأن يرفضوا الثروة أو الجهد الذى تؤدى إليها ، ولا أن يرفضوا تلك المعارف التى تحافظ على أوضاعهم وحمايتها فى هذا العالم الملىء بالمخاطر . وما دام إيمانهم بالقيم الروحية يلقي اهتماما ؛ فبإمكانهم العمل ومنافسة الجماعات الأخرى للحصول على الثروة واكتساب المعرفة فى مختلف المجالات .

العمل الجاد والثابرة فى بذل الجهد وعدم الاستسلام بسهولة ، كلها وسائل لتحقيق النجاح فى الحياة الدنيا . وما دام ذلك كله لا يتناقض مع تعاليم الإسلام والقيم الروحية فلا يوجد هناك سبب يمنع المسلمين من أن يجدوا ، وأن يجتهدوا .

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾

سورة الأيساء : الآية (١٠٥)

واضح ، كما تقول الآية الكريمة ، أن الأرض تخص الصالحين ، وليس المقصود بالصالحين الفقراء من الناس أو الأغنياء فقط . إن أي مسلم يطبق تعاليم الإسلام بإخلاص وأمانة سوف يقبله الله من الصالحين دون تمييز بين غنى أو فقير ، ولو أن تلك الفروق ينبغي أن تتوضع فى الحسبان لكن القرآن قد نص على ذلك .

الزعم بأن العمل الذى يؤدى إلى الرفاهية وبحبوحة العيش يعبر عن الجشع للأشياء المادية ، لا يجب أن يشى المسلمين عن القيام به ما داموا يؤدون طقوسهم الدينية ويتحمسون بقيمهم الروحية . العمل الجاد لا يعني إغفال الواجبات الدينية . الواقع أن الطاقات والأفكار عندما تتركز على العمل يكون احتمال إضافة الوقت فى الشكوى والأبين من مشكلات الحياة احتمالا ضعيفا . الشكوى والأبين تمولان أفكار المرء إلى المشاغل الدينوية .

عندما يتأمل المرء مصيره في الحياة ، لا بد من أن يصاب بالإحباط . هناك دائماً شيء ما ينقصه في الشروء أو الفرص ، وهناك دائماً ما يميز الآخر . هذا الآخر الذي يعتبره المرء محظوظاً ، عندما تقارنه بشخص آخر أكثر تعملاً سوف يشعر بأنه أقل منه بكثير . ولو أن كل أفراد المجتمع أضاعوا الوقت في مثل هذه الأفكار ، فلن يكونوا فقط غير متخلين ، بل إن المناخ الاجتماعي بكامله سوف يموج بالذلل الذي لا يمكن تخيله .

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَرِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾

سورة إبراهيم : الآية (٧)

هذه الآية القرآنية تؤكد أهمية أن يكون الشخص المسلم شاكراً على ما لديه . والحقيقة أنه لا يوجد إنسان في هذا العالم محروم تماماً من بعض الحظ الحسن لو أنه تأمل قسمته بتعقل وأمانة ؛ فالمسلم محظوظ في المقام الأول ؛ لأنّه يتميّز إلى العقيدة الصحيحة . وإلى جانب ذلك ، هناك دائماً لديه ما هو أكثر عالميًّا من أي شخص آخر ، سواءً كان ذلك الآخر غنياً أم فقيراً . الشخص الغني المتعلى الصالحة يخشى دائماً أن يقع عليه اعتداء ، وأن يفقد ما يملك ولا يستطيع أن يتحرك أو أن يعيش بحرية ، هذا الشخص لا يعتبر أسعد حظاً من الشخص الفقير الذي لا يعاني من شيءٍ من ذلك . ومن جانب آخر ، وخاصة جانب الملكية ؛ فإن الشخص الغني أوفر حظاً بالطبع من الشخص الفقير .

واجب الحمد والشكر على ما حققه المرء ، لا يعني ألا يكون عليه أن يسعى لتحقيق المزيد . عدم العمل دليل على عدم العرفان وخاصة بالنسبة للقادرين على العمل . الشخص المعاذى الذي لا يفيد من فرص العمل هو غير معنٍ لصحته . الشخص الذي أنعم الله عليه بموهبة أو قدرة في أي مجال من المؤكد أنه سيكون جاحداً لنعمة الله إن هولم يستخدم موهبته أو قدرته . موهبة المرء وقدراته ينبغي لاستخدام فقط من أجل التواب في الحياة الآخرة . الاعتماد على الآخرين في الحياة ، بينما المرء يؤدي ما يعتبره طقوس عبادة لضيمان الفوز في الآخرة ، من المؤكد أنه يعبر عن جشع . من الواضح أن الإسلام يطلب ما هو أكثر

من ذلك ، الذين يؤتون الزكاة والصلقات ، الذين يخدمون قضية جيدة ، الذين يضيفون إلى المعرفة الإنسانية ، أولئك جميعاً يعملون بما يتفق والمبادئ الإسلامية . هذه الأعمال كلها تعود بالفعل على المجتمع وعلى العالم . هذه الأعمال كلها تجلب السعادة في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ليس من يقوم بها فقط ، وإنما الآخرين وللمجتمع بأسره أيضاً . إن استخدام نعمة الله من أجل أكبر عدد من الأشخاص وليس لصالح المرء فقط ، لذلك على أن المرء يقدر نعم الله قدرًا كبيراً ، والمؤكد أن ذلك يتفق وتعاليم الإسلام .

الإحباط الذي يتكلم عنه الجيل الجديد يتناقض وروح الإسلام . الإحباط دليل على جحود المرء بدرجة أخرى . يمكن للمرء أن يغير حظه بالجد والاجتهد . ليس مطلوبًا أن يشكو طوال الوقت ويندب حظه . في هذا العالم الراهن بالتحديات التي لا تنتهي ليس هناك من يستطيع الهرب من سوء المazel دائمًا . التحديات هي التي تضع قوة إيمان المرء والقيم الروحية المتأصلة فيه موضع الاختبار .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُفَرِّغُ مَا يَقُولُ حَتَّىٰ يُهْبِرُوا مَا يَأْنَسُوهُ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٰ﴾

سورة الرعد : الآية (١١)

بحكم ما يراه المرء وما يسميه في هذا البلد تبدو كلمتي «محبط» و«حزين» هي الكلمات الأكثر تكراراً على شفاه أبناء الملايين فيهم أولئك الذين يت Sheldonon بأهمية القيم الروحية ومساوي المادية . إذا كان هناك أمر «دنيوي» لا يتحقق مع رغباتهم ، راحوا يرددون الكلمتين : «محبط» و«حزين» مراراً وتكراراً ، وهذا يبين ضعف إيمانهم بالقيم الروحية ؛ لأن أصحاب الإيمان القوي لا يحيطون بسهولة .

إن دراسة جهاد النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - من أجل نشر الإسلام ، سوف تبين لنا كيف أنه بالرغم من التحديات المتواترة التي كانت تخترق إيمانه ، لم يصب الإحباط ولا المحن بسبب ما كان يلاقيه . لقد واصل جهاده بمختلف الطرق والوسائل لكن يعلو على

تلك التحديات التي اعترضت طريقه . وتاريخ انتشار الإسلام في العالم بعد وفاة النبي ، يصور لنا كذلك كيف واجه الخلفاء التحديات بشجاعة دون شعور بالحزن . وأخيرا ، فإن تحول أبناء الملايو أنفسهم إلى الإسلام ، لا بد أنه كان تحديا هائلا بالنسبة للتجار العرب والهنود في عهد مظفرشاه (القرن الخامس عشر الميلادي) . ولو أن أبناء الملايو كانوا قد أصبحوا بالحزن ، لما أصبحوا مسلمين .

وهكذا يتضح لنا أنه لمواجهة التحديات التي تعرّض طريق المؤمنين بالقيم الروحية بنجاح ، يجب ألا يكون هناك مكان للإحباط والحزن ، مشكلة أن يكون المؤمنون بالقيم المادية أكثر تقدما وكفاءة لا يجب أن تكون سببا في الشعور بالإحباط والحزن بين المؤمنين بالروحانية . وإذا وجدوا نقصا في أنفسهم باعتبارهم مؤمنين بالروحانيات ؛ فينبغي عليهم ألا يتربّأ أنفسهم فريسة للإحباط والحزن ، وحيث إنهم مدربون لخطورة الثروة والكافحة لدى الماديين علىبقاء القيم الروحية ، لا بد أن يكون توجههم نحو الشروء «الدينوية» والكافحة واضحًا في أذهانهم . يجب أن يسلكوا كل السبل القانونية للحصول على الثروة وعلى كل أوان المعرفة التي تتحقق لهم القوة ، وتتبّدئ أهمية ذلك على نحو أكثر وضوحا في وجود أساليب القتال الحديثة .

المسلمون معرضون في الوقت الحاضر لاحتمال قوى بأن تختل فئات مختلفة من الماديين بلامهم و تستولى عليها . وسواء كان أولئك من الرأسماليين أو الاشتراكيين أو الشيوعيين ؛ فكلهم حادبون على تدمير الازتمام والإيمان بالقيم الروحية . في الدول الإسلامية التي احتلها الشيوعيون في آسيا الوسطى ، وتزوج الآن تحت الحكم الشيوعي ، فقد الإسلام أتباعه وأنصاره . وهكذا أيضا مصير المسلمين في شرق وجنوب آسيا . الدين لا معنى له دون أتباع وأنصار . والتركيز على الحياة الآخرة واعتبارها أهم شيء ، أمر لا معنى له أيضا ؛ فالدين موجود لأن أتباعه موجودون . ولا شك في أن المسلمين ملومون ؛ لأن بعض الدول الإسلامية - نتيجة لضعف قدراتها - قد تم الاستيلاء عليها كما تم قتل وتعذيب

ال المسلمين وإجراء عملية «غسيل مخ» لهم عن طريق الدعاية المعادية للإسلام ، وإلى أن فقدوا إيمانهم ولم يعد في البلاد مسلمون .

من هنا ، من الواجب على المسلمين أن يطوروا من قدراتهم ، ليس فقط على استخدام الأسلحة الحديثة ، وإنما أيضاً على ابتكارها وإنتاجها . ولبناء القدرة الدفاعية للأمة وللمجتمع الإسلامي لابد من أن يكون لدى المسلمين الثروة الكافية ، حيث إن احتياجات الدفاع الحديث تتطلب رصد مخصصات مالية كبيرة .

﴿وَأَعْدُوكُمْ مَا أَسْتَطِعْكُمْ مِنْ فُؤُدٍ وَمِنْ بَيْاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَذَّرَ اللَّهِ وَعَذَّرُكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تَفْقِهُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفِّي لَكُمْ وَآتَئُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

سورة الأنفال : الآية (٦٠)

في غرب آسيا ، كان المسلمين فاشلين باستمرار إلى أن استطاعوا أن يحصلوا على الثروة من صناعة النفط ، ولكنهم ما زالوا مجبرين على أن يظلوا متسللين فيما يخص تكنولوجيا الحرب . وضع المسلمين هناك ما يزال محفوظاً بالخاطر ؛ لأن الثروة دون معرفة لا قيمة لها ، بالإضافة إلى أن الثروة لا تدوم إن لم يكونواقادرين على الحافظة عليها واستخدامها . في إحدى الدول الإسلامية المهمة ، نجد أن مسئولية الدفاع بكلاملها في أيدي الأميركيين ... غير المسلمين . والحقيقة أن بعض الدول قد بددت أموال النفط بسبب الإنفاق المفرط والجهل بأساليب العمل التجاري .

وهناك ظاهرة عجيبة ، وهي عجز وعدم كفاءة أولئك الذين لا يقدرون قيمة الثروة ولا يحسنون استخدامها عندما تهبط عليهم فجأة . الثروة الناتجة عن البترول مثلًا أحدثت ضرراً بليغاً باقتصاد وقيم الناس الذين كانوا متسمكين بالروحانية ذات يوم . قبل أن يصبح

النفط مصدرًا للثروة ، لم تكن تكاليف المعيشة مرتفعة هكذا في دول آسيا الوسطى . واليوم ، أدى ارتفاع سعر البترول إلى تضخم كبير ، الأمر الذي جعل من الصعب على المسلمين أن يؤدوا فريضة الحج مثلاً بالإضافة إلى سلوك وأخلاقيات محدثي النعمة قد لطخت صورة المسلمين .

الحياة الدنيا في الواقع ليست هي الحقيقة النهائية ، كل إنسان سوف يتنهى أجله ذات يوم ، ولن يأخذ معه من ثروته شيئاً ، تلك الثروة التي جمعها في حياته . في عصر الفراعنة كانت هناك محاولات لحمل بعض الثروة المادية إلى العالم الآخر ، ولكن ذلك كان مجرد حلم ، ولا مكان مثل ذلك في الإسلام . موقف الإسلام بالنسبة لهذا الموضوع يقوم ، بكل وضوح ، على القيم الروحية . ينبغي لا ينسى المسلم أن الثروة الدنيوية مطلوبة فقط من أجل هذه الحياة الدنيا ، السعادة النهائية تعتمد على العبادات والالتزام بتعاليم الدين ، وعلى الأسباب التي أنفقت من أجلها الثروة وكيف كان ذلك ، ولكن بالرغم من أن الثروة الدنيوية لا يمكن أن تقييد أصحابها في الآخرة ، إلا أنها يمكن أن تساعد في حل مشكلات المعيشة ، ليس بالنسبة لأسرته فقط ، وإنما بالنسبة للمجتمع المسلم الذي يتركه وراءه . إن الإنسان المادي الجشع فقط هو الذي سيصاب باليأس ؛ لأنه لا يستطيع أن يحمل ثروته معه عندما يموت . قوى الإيمان بالقيم الروحية لن يكون لديه مثل هذا الشعور بالأسى ؛ لأنه يدرك أن حياة الرغد في هذه الحياة الدنيا عرض زائل . والحقيقة أنه سيكون في حالة سلام روحي عندما يعرف أن سعيه في الحياة الدنيا هو صورة من صور العبادة ، وأن الباقين في الحياة بعده سوف يفيضون من ثروته .

﴿الْمَالُ وَالبَيْوْنِ يَرْبِّيُّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَأَتْيَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِدَّدَ رَيْكَ نَوَابَا وَخَيْرٌ أَمَلَا﴾

سورة الكهف : الآية (٤٦)

مساعدة الناس فضيلة في الإسلام ، كما أنه يحضر المسلمين عليها . وعندما يتوفى شخص ما عن ثروة تقسم حسب الشريعة الإسلامية ، وهو أمر يشبه زكاة المال و Zakat الفطر

وغيرها من الصدقات التي يوجد بها الأحياء . والإنسان الذي يدرك أن الممتلكات لا يمكن حملها إلى الآخرة ، ويواصل كنهه واجتهاده لكي يحقق ثروة ، مثل هذا الإنسان لا يمكن أن يتهم بالجشع ؛ فالجشع ليس هو السعي من أجل الثروة ، وإنما توجهاته ومعتقداته ؛ فإذا كان مسلماً من المؤمنين بالقيم الروحية ومستعداً في الوقت نفسه للعمل من أجل تحقيق الثروة التي ستقسم في النهاية حسب الشريعة الإسلامية ، فلابد من احترامه وتشجيعه .

من جانب آخر ، إذا رفض شخص ما أن يعمل لكي يحقق ثروة في الدنيا ، لأنها لا تذهب معه إلى الآخرة ، فلابد من أن يكون محترقاً ؛ لأنه يقيم وزناً كبيراً للثروة الدنيوية ويعمل من أجل نفسه فقط وليس من أجل المجتمع ، وهذا توجه مادي لا يتناسب مع الروحانية .

في هذا العصر المادي ، يوجد أمام المؤمنين بالقيم الروحية تحدياً عليهم مواجهته ، ومن الواضح أن هذا التحدي لا يمكن التغلب عليه في بعض الدول الإسلامية . المسلمين عزقون بين بذلين ، البعض يقبل والبعض يرفض قيم وأساليب الحياة المادية . الرفض دون فهم الفضائل الممكنة للثروة ، كان سبباً في هزيمة الجماعة المؤمنة بالروحانية . من ناحية أخرى ، فإن من يقبلون القيم المادية يبدون ظهورهم للقيم الروحية . الفهم العميق لما دعا العصر الحديث وال التربية الروحية القوية فقط هي التي تضمن سلامه وبقاء الروحانية .

هذا الفصل من الكتاب ليس فتوى دينية ، وإنما هو تحليل لبيان أن القيم الروحية والدينية يمكن الحفاظ عليها دون التخلص عن استخدام وتقان الوسائل الحديثة التي تحمي وضع وأمن المسلمين . وبالرغم من ذلك فإن القيم المادية مرفوضة ، وهناك اقتئاع بأن الأنظمة الرأسمالية والاشراكية والشيوعية مخططة .

ولكن الخلط بين «الدنوية» و«المادية» لابد من أن يتم تصحيحه . الدنوية لا تعنى الجشع والتکالب على الثروة بالضرورة . الثروة الدنيوية هي هبة من الله ، وليس للMuslimين فقط . ازدواجاً لها غطرسة وجحود لنعمة الله . من واجب المسلمين أن يقبلوا هذه النعمة ، وأن يقدروها حق قدرها دون أن ينسوا أن عليهم واجبات معينة في هذه الحياة الدنيا .

هل يستطيع المسلمون المحافظة على روحانيتهم عندما يكون لديهم ثروة وخبرة هذه الحياة الحديثة؟ أن تدير الملح والماهوجي الدينية رؤوسهم؟ أن يضعف التزامهم بتعاليم الدين لأنهم يكرسون وقتاً أطول وطاقة أكبر للأعمال الدينية؟ ألا يكون مصير الإسلام مثل مصير المسيحية؟ لقدرأينا كيف أضرت الشروق المفاجئة الناجمة عن ارتفاع أسعار البترول باقتصاد وأخلاقيات بعض المسلمين . وهناك بالتأني خطير ما ، وهو أن يصيّب الدمار القيم الروحية بسبب الهجوم الضارى للثروة المادية . ولكن ، لو فهم المؤمنون بالقيم الروحية الفرق بين المادية والدينية ، وعلاقتها بالروحانية فإن إيمانهم لن يتحطم أو يهتز .

لقد تحطم الإيمان بالقيم الروحية بين المسيحيين بسبب ضغط القيم المادية ، وحدث ذلك لأنهم لم يواجهوا العصر المادي بوعي وعيون مفتوحة . فجأة ، اخترقتهم القيم العلمانية التي كان من السهل فهمها وقبولها ، ولكن يحافظوا على القيم الروحية فصلوا الكنيسة (الدين) عن الحياة العلمانية (أى أنهم فصلوا الروحاني عن الدينى) . ونتيجة لذلك أصبحت المسيحية أقل قدرة على الدفاع عن حماية موقفها من تهديد العلمانية ، وحلت القيم المادية للفلاسفة وعلماء السياسة محل الروحانية في المسيحية .

الإسلام لا يفصل الدينى عن العلماني . والإسلام -على الأقل في هذا البلد- ليس منفصلاً تماماً عن السلطة السياسية للحكومة . الإسلام يمكن أن يؤثر ، بل ويتحكم ، في نواح كثيرة في إدارة شئون هذا البلد . وما زال قادرًا على أن يؤكد أن التمسك بالقيم الروحية سيظل قويًا في الكفاح من أجل مواجهة تحديات العالم الحديث .

ما زال هناك أمل في الحفاظ على الروحانية ، حتى عندما يسعى المسلمين ، ويحصلون على الثروة المادية والمعارف الحديثة . والحقيقة أنه عندما يتسلح المسلمون بأدوات ومهارات العالم الحديث ، حيث إن فقط يكون هناك ضمان ، لأن يستمروا في تمسكهم بالقيم الروحية التي ستحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة .

بدون الشروة والكفاءة ، سيخضع المسلمون دائمًا للظلم ، وفي النهاية سوف تفضي العقائد الروحية . هكذا العلاقة بين الروحانية والمادية ، وأثار كلتا المجموعتين من القيم على المجتمع الإنساني بعامة ، والإسلامى ب خاصة .

الفَصْلُ السَّادُسُ

أَبْنَاءُ الْمَلَوِيِّ وَالثَّائِرُ الشَّيْوِعِيُّ

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ حَيْثَا فَطَرَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ مُبَيِّنَ إِلَيْهِ وَأَقْهُوْ وَأَقْيِمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

سورة الروم - الآياتان : (٣٠ ، ٣١)

فشل الحزب الشيوعي الملابي - MCP في خطته للاستيلاء على السلطة في هذه البلاد عن طريق الصراع المسلح في فترة الطوارئ ما بين ١٩٤٨ ، ١٩٦٠ ، وذلك لأن أبناء الملابي رفضوا الانضمام إلى العصابات الشيوعية أو تأييدها . وهناك البعض من يعتقدون أن الشيوعيين هزموا فقط بفضل جهود القوات المسلحة التي كانت تضم جيشاً من بريطانيا وغيرها من دول الكومونولث ، لكننا قد شهدنا في فيتنام مثلاً كيف منيت القوات الهائلة للولايات المتحدة بهزيمة على أيدي الشيوعيين . لقد هزم الأميركيون في فيتنام ؛ لأن شعب فيتنام الجنوبي لم يكن وراء حكومته بقوه أو إجماع . لم يكن له موقف ثابت ضد الشيوعيين ، إلى جانب أن عقيدة الناس هناك لا تقرم الإلحاد الذي هو أحد أعمدة الأيديولوجية الشيوعية .

وفي ماليزيا ، كان هناك من أبناء الملابي من حاربو إلى جانب الشيوعيين ، ولكنهم كانوا أقلة . كان الملابيون ضد الشيوعيين بوجه عام ، ولذلك بعد هزيمته في عام ١٩٦٠ قرر الحزب الشيوعي وخطط لخشى الدعم من أبناء الملابي عندما قام بمحاولة جديدة ، ولو أنه كان قد نجح في الحصول على تأييدهم ، لكن هناك احتمال كبير لأن يستولى الشيوعيون على السلطة في ماليزيا .

وقفة الملايين المناهضة للشيوخين تستند إلى عقليتهم؛ فتعاليم الإسلام هي ضد المفاهيم والفكر الشيوعي على طول الخط. الشيوعيون ينكرون وجود الله ودين الله، بينما الأساس في العقيدة الإسلامية هو الإيمان باليه واحد، وإلى جانب ذلك فإن الإسلام هو الذي يقرر النظام الاجتماعي وكافة جوانب الحياة وعلاقات المسلمين، وذلك كله يتعارض مع الفكر الشيوعي. من هنا تستمرة ثقتنا بأن أبناء الملايين المسلمين متمسكون بدینهم، وأنهم لن يزدروا الشيوعية أو أن يصبحوا شيوعيين.

لأننا نستأكدين من أن إيمان أبناء الملايو بالإسلام سيظل قلعة منيعة أمام الشيوعيين . هناك من هم على استعداد لأن يصبحوا شيوعيين بالرغم من أنهم قلة . في أندونيسيا ، على سبيل المثال ، تذكر كثير من أبناء المسلمين لدينهم وساروا كلهم ذات يوم خلف الآمال الشيوعية . وفي بعض الدول الغربية ، كما في ألبانيا ، هناك مسلمون تذكروا للإسلام وأقاموا حكومات ذات أيديولوجيات شيوعية أو شبه شيوعية . وفي الأجزاء الجنوبية من الاتحاد السوفيتي لم تعد سلالة المسلمين يؤمنون بالإسلام ، وذلك نتيجة لعمليات *(غسل المخ)* التي قام بها الشيوعيون بعد الاستيلاء على تلك المناطق .

والواقع أن غرس الشيوعية بين المسلمين لم يعد أمراً غير عادي أو صعباً، إلا أن ذلك لا يتم على نحو مباشر ، ولكن غرسها بأسلوب غير مباشر أمر ممكن ، حيث توجد شواهد في ماليزيا على أن هذه العملية كانت تجري في ماليزيا منذ وقت طويل ، وأنها قد ساعدت القضية الشيوعية بشكل كبير . وفي وقت ما ، حاول الشيوعيون أن يؤثروا على أبناء الملايو لكي يتخلوا عن دينهم وينكروا وجود الله . وأحد الأدلة على قبول الأفكار الشيوعية التي يسعى إليها الشيوعيون ، كان استعداد بعض المسلمين لأكل الطعام الذي يحرمه الدين . عندما يكون الشخص الذي ينضم إلى الشيوعيين مثلاً على استعداد لأن يأكل لحم الخنزير ، فخدهم يعتقدون أنه قد تخلى عن الإسلام تماماً وأصبح مثلكم . وبالنسبة لأبناء الملايو ، سواء كانوا يمارسون تعاليم الإسلام أم لا يمارسونها فإن أكل الخنزير شيء صعب جداً ، ولذلك لم

يكونوا مستعدين لقبول هذا التحدي الشيوعى ورفضوا الشيوعية ، وحيث إن الشيوعيين أصرروا على هذا الاختبار الصعب ، وعلى الإنكار الصحيح للإيمان بالله ، كان من الصعب على أبناء الملايو قبول الشيوعية .

واليوم ، بعد أن فهم الشيوعيون موقف أبناء الملايو بهذا الشأن ، أصبحوا لا يضططون في اتجاه التخلى عن الإسلام وقبول الأفكار الشيوعية ، وبدلًا من ذلك أصبحوا يركون جل اهتمامهم على تزويق وحدة أبناء الملايو ، وبإياتهم أن المسألة الشيوعية لا تختلف عن المسألة الإسلامية استطاعوا أن يقللوا من معارضه أبناء الملايو لأفكارهم .

الإسلام يحضر المسلمين على الوحدة . المسلم أخو المسلم ، وهذه الأشورة لا تعنى أن المسلمين كلهم لهم نفس المكانة الاجتماعية أو أنهم يتمون إلى مجموعة اجتماعية واحدة . الإسلام يقبل حتمية أن يكون في المجتمع الإسلامي أغنياء وفقراء ، نخبة وعامة ، قادة وتابعون ، وذو سلطان ومن هم بدنوه ، لكن النظام والعلاقة بين جماعة وأخرى يقررها الإسلام على نحو يحقق العدالة والأخوة .

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْرَجُوا فَاصْلَحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ وَأَتَقْوَا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

سورة الحجرات - الآية (١٠)

لقد قرر الإسلام أساليب شرعية وعقوبات لكل الخلافات ، كما أن التوجيه الصحيح والطاعة والولاء للسلطات مقررة أيضًا . وباختصار ، فإن المجتمع الإسلامي مجتمع منظم ، ومزود بكلة الوسائل للتعامل مع كافة المشكلات التي لا بد من أن تكون موجودة في المجتمع . وسبل حلها .

وبالرغم من أنه يمكن أن يكون هناك درجات في المجتمع الإسلامي ، إلا أن المسلمين كلهم سواسية ، كلهم عابدون لله ولا وسيط بين المسلم وخالقه . الأديان الأخرى يوجد بها كهنة أو جمادات ذات مكانة دينية خاصة يمكن أن تتضرع إلى الله نيابة عن الآخرين . لا

كهنوت في الإسلام . لا يوجد «بابا» ولا «كاردينال» ولا «بطريرك» ولا «قسس» . لا ورثة ولا مثيلين مختارين لله أو للنبي في الإسلام كما هو في بعض الديانات الأخرى . أما إذا كانت هناك فوارق فأساسها درجة التقوى والخشوع لله وهو وحده العليم بذلك الفوارق .

إذا فهم المسلمون تعاليم الإسلام وما رسوها بكمال وعيهم ، فلن يتمزق مجتمعهم أو تخترقه أفكار غربية ، ولذلك بالرغم من أن كثيرين من المسلمين تحكمهم حكومات غير مسلمة ، إلا أنهم لا يمكن أن يتخلوا عن الإسلام بسهولة أو طواعية . وأبناء الملايين من بين الشعوب التي شجحت في المفاظ على عقيدتها الإسلامية بالرغم من أن الملايين كانت مختلفة من قبل البوذيين والمسيحيين .

لقد أوضحنا كيف أن الشيوعيين يعون الآن دور الإسلام كعقبة في سبيل غرس الشيوعية بين أبناء الملايين . وفي سعيهم لبث الفرقة بينهم وإضعاف مقاومتهم للهجوم الشيوعي ، فإنهم يستخدمون جماعات من المتعاطفين مع الشيوعية ، والذين يعارضون الإسلام بشكل غير ظاهر ، كما نجد لهم يستخدمون المفهوم الاشتراكي أو الفكرى مادام لا يهتم كثيراً بمسألة الدين . والاشتراكيون يركرون - بشكل أكبر - على النظام الاقتصادي والعلاقة بين الطبقات المختلفة في المجتمع الإنساني . ويرى الاشتراكيون - على نحو خاص - أن الأغنياء كلهم يظلمون الفقراء وخاصة العمال ، ولذلك لا يمكن أن يكون العمال والقراء أصدقاء للأغنياء . لابد من أن يكونوا أعداء لهم - ويحاولون القضاء على الملكية الفردية عن طريق الاستيلاء على السلطة .

الاستيلاء على الثروة أو الملكية ليست هي الطريقة لتحقيق الإخاء والمساواة في الإسلام . الثروة ليست محظوظة في الإسلام مadam الشخص يطيع أوامر الإسلام المتعلقة بزكاة

المال وزكاة الفطر إلى غير ذلك من الصدقات . ومن هنا يلجم الأشتراكيون إلى تأجيج المشاعر بلفت الانتباه إلى الصعاب التي يواجهها الفقراء ، ويقارنون بينها وبين الحياة الرغدة التي يحياها الأغنياء . ويلقون باللوم على الفجوة بين الأغنياء والفقراء وما يواجهه الفقراء من ظلم على أيدي الأغنياء ، ومن السهل توسيع ذلك لأن معظم الرأسماليين ليسوا مسلمين ، وعادة ما يظلمون العمال . وفي نهاية الأمر تخفي النظرة الاشتراكية بالقبول وخاصة من قبل المثاليين من الشباب . عند هذه المرحلة يتم التخلص عن القيم الإسلامية الخاصة بالنظام الاجتماعي والعلاقة بين الجماعات الاجتماعية . وسواء أكان الأغنياء ظالمين أم لا ، فلابد من أن يكون الفقراء في حالة صراع معهم ، أي أن الصراع بين الطبقات ليس في حاجة لأن يكون نابعاً من الظلم بالضرورة ، إنه صراع أيديولوجي محض . هذا الصراع لا يسير في القنوات التي حددها الإسلام ، وإنما يتبع أساليب وضعها الأشتراكيون الغربيون .

ونتيجة الصراع بين الأغنياء والفقراء ، وأصحاب العمال والعمال يحدث الصراع في التضامن الإسلامي ، وعند هذه المرحلة يصبح من السهل على الأشتراكيين أن يعادلوا الأغنياء بالأقواء ، أي قيادات المجتمع الذين يمسكون بزمام الحكم ؛ بحيث يمكن أن تتم الحكومة بالتوافق مع الأغنياء ، وهكذا فإن المسلمين الفقراء (العمال - الفلاحون - الصيادون) يتحولون إلى معارضي الحكومة ، الأمر الذي يعمق الصراع في التضامن والأخوة الإسلامية ، وقد حدثت هذه العملية بكل منها بين أبناء الملايو وكلهم مسلمون . وبالرغم من أن هذه الفلسفة وهذه الرؤية نابعة من الاشتراكية ، إلا أنها لم تعد تعتبر اشتراكية ، بل إن جماعات مختلفة من أبناء الملايو تعتبرها من تعاليم الإسلام ، وأصبح تفسير القرآن والحديث يعدل لكي يتناسب معها .

ما أثر هذه التغيرات التي حدثت لأبناء الملايو على الصراع الشيعي في ماليزيا؟ لقد سبق أن أكدنا أن هزيمة الحزب الشيوعي الملايو في سنوات ١٩٤٨ - ١٩٦٠ كانت بسبب عدم وجود دعم له من أبناء الملايو ، وإلى اليوم وهم يرفضون الشيوعية ، مازال إيمانهم

بالياسلام قرباً . ونستطيع في الحقيقة أن نستنتج من الأدلة الواضحة أمامنا أن أبناء الملايو يولون مزيداً من الاهتمام للإسلام أكثر من ذي قبل ، إلا أن تغيراً مهماً قد حدث من وجهاً نظر الصراع الشيعي .

هناك صراع في التضامن بين أبناء الملايو وهو صراع حدث في أمر مهم ، كونه بين قطاع عريض من أبناء الملايو وقادتهم الذين يسكنون بالسلطة في الحكومة . في وقت ما ، كان الشيوعيون وحدهم هم الذين يعارضون الحكومة (بدعم البعض من غير الملايوين) ، ولكن أبناء الملايو أنفسهم هم الذين يعارضون الحكومة اليوم ، ويكتبون للقيادات كل أنواع الاتهامات .

في تكتيكات القتال ، ليس من الضروري أن تكون هناك صدقة بين فريقين يهاجمان عدوا واحداً ، أما الذي يجعل الهجوم مؤثراً وناجحاً ، فهو أنهما يقوضان بالتنفيذ في وقت واحد . الشيوعيون يعارضون الحكومة ، وبالرغم من أن أبناء الملايو ليسوا أصدقاء ولا حلفاء للشيوعيين ، ولكن بهجومهم على الحكومة عندما تكون في مواجهة الشيوعيين ، فإنهم (أي أبناء الملايو) إنما يساعدون القضية الشيعية . لقد أرينا ذلك في فيتنام الجنوبية . كان البوذيون يعارضون حكومة فيتنام الجنوبية لأسباب لا علاقة لها بالشيعية ، وكان يدعمهم في ذلك الطلاب الذين كانت لهم هموم ومطالب أخرى متفصلة ، وكانت هناك مظاهرات بشكل مستمر . ونتيجة للاتهامات الكثيرة التي توجه للحكومة ، أصبحت الحكومة مكرورة . محاولة الحكومة لحق المعارضة باستخدام قوات الشرطة والجيش ، لم تؤدي إلى صرف الطاقة والعمل بعيداً عن الجهد الموجه ضد الشيوعيين .

الكره الذي بدأ بين الجماعات المارسة للحكومة انتشر واتسع نطاقه ، وانتقلت عدواء إلى القوات المسلحة ، فانهارت قوتها بعد أن ضعفت ثقتها في الحكومة . وفي النهاية سقطت حكومة فيتنام الجنوبية نتيجة الهجوم عليها من المؤخرة ومن الأمام ، ونتيجة تخلي القوات المسلحة عنها بعد أن فقدت الولاء .

وربما يعتقد البعض أن حكومة فيتنام الجنوبية كانت تستحق السقوط لفسادها وقوتها ، ولكن هزعتها لم تكن تعنى الانتصار بالنسبة للقيادات البوذية أو للطلاب ؛ لأن الذين كسبوا في النهاية هم الشيوعيون . الفيتاناميون الجنوبيون لم يفقدوا حريةهم في المعارضة وحقهم في التظاهر فقط ، بل وحرية العبادة أيضا . لم يحصل البوذيون ولا الطلاب على ما قاتلوا من أجله ، بل إنهم فقدوا ما كان لديهم بالفعل . والشروع نفسه بالنسبة لماليزيا ، لو أن أبناء الملايو حاولوا أن يروعوا الحكومة الحالية أو أن يضعوها بافتراض أن ذلك يتم باسم مبادئ الإسلام ، فإن الضعف سوف يمتد إلى القوات المسلحة . وعندما تضيّعت الإدارة والدفاع فلن يكون استيلاء الشيوعيين على السلطة أمرا مستحيلا ؛ أي حكومة شيوعية لن تتخذ الإسلام دينا رسميا ، بل إنها على العكس من ذلك سوف تحاول تدمير الإسلام .

﴿يَسْأَلُوكُمْ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَاتِلُ فِيهِ كَثِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفَّرُ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عَدْدَ اللَّهِ وَالْفَتَنَةُ أَكْبَرُ مِنِ القَتْلِ وَلَا يَرَوْنَ يَقْاتَلُوكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنِ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُو وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيُمَتَّ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبَطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

سورة البقرة - الآية : (٢١٧)

والاحتمال السابق توصيفه ليس من نسج الخيال أو دعاية ، لقد حدث ذلك في بعض الدول العربية التي كانت مراكز للنمو الإسلامي والتربية الإسلامية ذات يوم ، كما حدث في ألبانيا ، وحدث في بعض مناطق الاتحاد السوفيتي وفي جنوب شرق آسيا . صحيح أن أبناء الملايو أقوى إسلاما من أبناء تلك الشعوب ، ولكن الوعي بإمكانية حدوث ذلك هو الذي يمكن أن يقى أبناء الملايو من شرور ومساوئ التأثير الشيوعى .

الفصل السادس

نظام القيم وأيّنة الملايو

إن وجود مجتمع إنساني ما يعتمد على نظام القيم يكون قد برم إلى حيز الوجود أو يكون أفراد هذا المجتمع قد صنعوه ، ودون نظام كهذا لا يستطيع البشر أن يعيشوا معاً في جماعة ؛ لأن العلاقات بين الأفراد لا يمكن تحديدها . لابد من وجود نظام للقيم ، سيشه كانت أو جيدة ، وأن يكون مقبولاً من قطاع عريض من المجتمع لكن يبقى ويستمر .

«السي» و«الجيد» أمور نسبية كما أن تعرifات «السي» و«الجيد» ليست متجلزة في طبيعة الأشياء ، ولكن المجتمع هو الذي يصنفها ويقبلها .

«السي» و«الجيد» يشكلان أساس نظام القيم في المجتمع ، وهو أساس يختلف باختلاف المجتمعات والعصور .

ولزيـد من التوضيـح يمكن أن نقول إن ما يـعتبر جـيداً في مجـتمع ما ، قد يـكون «سيـئاً» في نظر مجـتمع آخر ، كما أنـ ما هو جـيد لمـجتمع ما في عـصر ما ، قد يـصبح سيـئاً في نظر هـذا المجتمع نفسه في عـصر آخر .

الوعي بأهمية القيم واختلافه من مجتمع لأخر أمر ضروري في عصـرنا ، وليس ذلك فقط لأنـ كلـ نظمـة الـقيم تـغيرـ فيـ كلـ المـجـتمعـاتـ ، بلـ لأنـ بعضـ المـجـتمعـاتـ يـرـ بـعملـيةـ تـغيرـ عـكـسـيـ فيـ الـقـيمـ ، فـماـ كـانـ «جيـداًـ»ـ قدـ يـصـبـحـ «سيـئـاًـ»ـ ، وـ«الـسيـئـاـ»ـ قدـ يـصـبـحـ «مـقـبـلـاـ»ـ أوـ «جيـداـ»ـ .ـ وـهـنـاكـ أـمـثلـةـ عـلـىـ تـغـيرـ الـقـيمـ هـذـاـ فـيـ جـمـيعـ أـنـحـاءـ الـعـالـمـ .ـ العـرـىـ -ـ عـلـىـ سـبـيلـ المـثـالـ .ـ كـانـ يـعـتـرـ أـمـراـ سـيـئـاـ فـيـ نـظـرـ كـلـ المـجـتمعـاتـ فـيـ الـعـالـمـ ،ـ وـلـكـنـ بعضـ المـجـتمعـاتـ الغـرـيـبةـ تـعـتـرـ أـمـراـ «ـعـادـيـاـ»ـ وـ«ـصـحـيـاـ»ـ ،ـ كـماـ أـنـ العـرـىـ عـلـىـ الشـوـاطـئـ قدـ يـصـبـحـ أـمـراـ عـادـيـاـ ،ـ وـلـمـ يـعـدـ مـحـرـماـ فـيـ المـجـتمعـاتـ الغـرـيـبةـ كـذـلـكـ .ـ

ومنذ وقت قريب كان تدخين الماريجوانا يعتبر أمراً سلبياً وكان محظوظاً في السنتينيات بدأ استخدامها يتشرىء في أمريكا . وما كان له أن يصبح خطرًا لو أن المجتمع الأمريكي كان قد اعتبر الماريجوانا «سيئة» ، أو كان على استعداد لاتخاذ إجراء ضد مدخنيها ، لكن العقلاء من الناس من غير المدخنين كانوا يسألون أنفسهم : «هل تدخينها أمر سلبي؟»

وإذا كانت الماريجوانا تجعل المرء يفقد حواسه ، لا يحدث الكحول الآخر نفسه؟ وإذا كان الكحول ليس محظوظاً ، فلم تخطر الماريجوانا؟ وعندما يبدأ العقلاء من الناس بخوضون معتقداتهم للمساءلة (أى القيم المقبولة من المجتمع) ، فسوف يفقد هذا المجتمع شعوره بالاتجاه ويبدأ في التخطيط . وفي هذه الحالة فإن أولئك الذين يستهينون بمنع تدخين الماريجوانا ويتحدونه ، سوف يفعلون ذلك علنًا وعلى نحو أكثر وضوحاً ، والذين يحاولون التمسك بالقيم القديمة سوف يوصيون بأنهم «موضة قديمة» ، والذين يضعون القيم القديمة موضع المسائلة سوف يعتبرون ليبراليين وتقدميين .

إن مجتمعنا مواجه بمثل هذا التحدى لا يمكنه اتخاذ أي إجراء شامل ؛ لأن قوة المجتمع في النهاية تعتمد على رغبات الأغلبية . ووبروز الجماعة الليبرالية والتقدمية التي تحضرها بشكل غير مباشر الجماعة المحايدة ، لن يصبح المتمسكون بالقيم القديمة يمثلون أغلبية ، وبذلك تغيرت قيمة الماريجوانا بالنسبة للمجتمع .

الأفراد المحايدون أو السليون في المجتمع يلعبون دوراً مهماً وفعلاً ، بالرغم من أنهم لا يعترفون بذلك ؛ فهم في واقع الأمر يدعمون الجماعات النشطة والتقدمية . والقيمة الاجتماعية تصبح مؤثرة إذا كانت الأغلبية تحميها . وفي حالة الأغلبية المحايدة يصبح من المستحيل حماية القيمة ، وعليه فإنها لا تصبح قيمة بالنسبة للمجتمع المعنى ، وذلك هو ما حدث في الغرب بالنسبة لتدخين الماريجوانا ؛ إذ لم يعد تدخينها يعتبر أمراً سلبياً .

من المهم جدًا فهم الدور الذي تلعبه الأغلبية الصامتة وخاصة في نظام ديمقراطي .

الصمت من جانبهم عند حدوث شيء جيد هو أمر جيد ، ولكن هل ينبغي أن نظل تلك الأقلية على صمتها عند حدوث شيء سيء؟ إن التأييد سوف يتتحملها الكل . ومن أسف أن معظم الناس أحياناً يجدون من الصعب التأكيد ما إذا كان الشيء جيداً أو سيئاً ، وفي مثل تلك الأحوال لابد من أن يكون الذين يشعرون بالمسؤولية على استعداد لشرح الموقف الحقيقي .

وإحدى الصعاب التي تواجهها الديموقراطية هي أنها تضمن حقوق كل فرد . الديموقراطية تسمح بالمعارضة وتحمي حقوق الأقليات والأفراد ، ولكن لا توجد إجابات قاطعة عن نوع المعارضة التي يمكن أن يسمح بها ، ولا عن الأوقات التي تدافع فيها عن رغبات الأقليات ؛ لذلك عندما ترفض جماعة ما في المجتمع إحدى قيمه ، ولنصل مثلاً حظر تدخين الماريجوانا ، يصبح المجتمع غير قادر على اتخاذ إجراء حاسم . سوف يظهر أفراد من الأقلية نفسها ليجادلوا في الأمر ، ليس ما إذا كان تدخينها جيداً أو سيئاً ، وإنما من وجهة نظر ممارسة الديموقراطية التي تكتفى حقوق الأفراد والأقليات . أما إذا كانت تلك المخوف تنس عن شيء جيد أو سيء ، فذلك أمر لا تم مناقشته . الشيء المهم هو أن حقوق الأفراد والأقليات لابد من أن تكون مصونة ؛ حيث إن ذلك أحد أحسن ممارسات الديموقراطية .

إلا أنه لابد من أن نذكر أن السلوك الواضح للأقلية يمكن أن يكون ضاراً ، وأن تلك الأقلية سوف يزيد عددها . وعندما تصبح أقلية كبيرة فلن تصبح الأقلية قادرة على السيطرة عليها حتى بالوسائل الديموقراطية . عند بلوغ هذه المرحلة ، تضيع القيم القديمة وتكون قيم الأقلية قد تغلبت في المجتمع ، وأصبحت جزءاً من قيمه . وواضح من هذه الظاهرة أن الاهتمام الزائد عن الحد بحقوق الأقلية في النظام الديموقراطي ، يمكن أن يؤدي إلى التضييق بالأقلية .

واليوم ، هناك تحول عكسي كبير في القيم ، أو انهيار لنظام القيم في المجتمعات الإنسانية كانت النظم والقوانين تعتبر ضرورية وكانت تحترم ، واليوم أصبحت تعتبر عقبات

في طريق الحرية ، ولذلك أثره السيء على القيم الأخرى التي يحترمها المجتمع . على سبيل المثال ، نجد أن التعليمات والنظم التي تحظر زيارة الطلبة الذكور للطلابات في السكن الجامعي ، تجلدها من وجهاً نظر الطلبة عقبة في سبيل حريةتهم . وتحت ضغط منهم ، أعاد المسؤولون النظر في الأمر ، وتوصلا إلى نتيجة وهي أن الطلبة لهم «وجهة نظر» ! واليوم هناك مساكن مشتركة يعيش فيها الطلبة والطالبات معاً ، ويتوافرون في حجراتهم بحرية تامة . ولن يتصر على اعتراض طلبة الجامعات الأمريكية على حظر زيارة الطالبات ، بل إنهم يعتبرون كل القوانين والنظم مقيدة لحريةتهم وبممارضونها كلها بإصرار وعناد . والنتيجة هي التخلص من كل النظم والقواعد . الطلبة يستطيعون أن يفعلوا ما يحلو لهم ، وفي مثل هذا الجو من الحرية غير المنضبطة تم الاستيلاء على مكتب إدارة إحدى الجامعات ، وقام الطلبة بتدمير كل السجلات والوثائق وأثاث المكتب .

وكما أن الاستيلاء على أحد المكاتب يعتبر حرية ، فإن أعمال التخريب التي قام بها الطلاب لم يعتبرها أحد أمراءينا أو خطأ ، كما لم يتخذ حيالها أي إجراء قانوني . لم يقدم الذين حطموا المكتب للمحاكمة ، ولم يكن هناك عقاب من أي نوع .

الواضح من ذلك أن هناك انهيارات في منظومة القيم . ذات يوم كانت النظم والقوانين تعتبر جيدة ومفيدة بالنسبة للمجتمع ، واليوم لم يعد الأمر كما كان ، بل إن أعمال الشعب والتجاوزات والإكراه والتهديد إلى غير ذلك تعتبر أحداثاً عادلة لا يجب إيقافها أو الرد عليها أو معاقبة مرتكبيها قانونياً .

إن رفض النظم والقوانين ليس مقصوراً على الجامعات . في المجتمع الغربي كله ، هناك انتهاء للقيم التقليدية أو العادلة . اللباس النظيف والثياب المهدمة كانت تعتبر ذات يوم سلوكاً اجتماعياً عادياً ، بينما أصبحت الملابس الرثة والممزقة والشاذة هي العادلة اليوم . وإذا كان المجتمع في الماضي كان يحرض على أن يقص الشخص شعره بانتظام وأن يصففه ، فلابد من أن يترك اليوم ليطول ويتسخ ويشعث باعتبار ذلك شعاراً لأولوية «الحرية» في

منظومة قيم المجتمع . هنا هو تحول القيم في المجتمع الغربي الذي يعتبر صاحب الشعر «المنكوش» الأشعت واللحية الكثة غير المشذبة والملابس الشاذ ، يعتبره «وسينا» ، بينما يعتبر «قيحًا» صاحب الشعر القصير المشط ، نظيف الوجه ، حليق الذقن ، الذي يرتدي المطف وربطة العنق .

كل الفروق بين الرجل والمرأة مرفوضة . ما يفعله الرجل لابد من أن يسمح للمرأة بعمله . بدأ الأمر باللباس ؛ فإذا كان الرجل يرتدي البطلون ؛ فالمرأة لابد من أن ترتدي البطلون . ووصل رفض القيم القديمة في النهاية إلى الدعارة ؛ فإذا كان الرجل يستطيع أن يذهب إلى الداعرات ؛ فالمرأة يجب أن تذهب أيضا إلى الدواعر من الرجال . الزواج حسب الدين أو القانون المدني مرفوض ، والعيش غير الشرعي معاقبول كأمر عادي . وليت الأمر قد اقتصر على ذلك ، هناك رجال يتزوجون من رجال ، كما أن هناك الانحراف الذي وصل إلى درجة أن يعيش رجل مع رجل وامرأة ليكون عشيقاً لكليهما !

إن ذلك كله يمثل رفضاً للقيم الاجتماعية «العادية» ، ولأن الرفض هو رفض للقوانين والنظم ، يعامل المسؤولون عن تطبيق القوانين بازدراء واحتقار . رجال الشرطة ينتون بـ«المخازير» ، ويصبح دورهم لحفظ الأمن والنظام «مارسة للظلم» .

ما علاقتنا نحن في ماليزيا ، وبخاصة أبناء الملايو المسلمين ، برفض الغرب لقيمه؟ لأن أحداً ، فرداً كان أو مجتمعاً ، لا يستطيع أن يعيش في عزلة ، وسيسبب وسائل الاتصال الحديثة ، فإن ما يحدث في أي جزء آخر من العالم لابد من يكون له أثره على الحياة هنا ؛ فإذا كان الغرب يرفض القيم القديمة ويضع قيمًا جديدة معكوسه ؛ فإن مجتمعنا سوف يمر بتغيرات مماثلة عاجلاً أو آجلاً ، وقد حدث ذلك بالفعل . أما التغيير الأسرع فقد حدث بالنسبة للملابس ، إلا أن تغيير الأزياء ليس مشكلة خطيرة في حد ذاته ، ولكنه يصبح مشكلة عندما يكون متبعاً بتغيرات في قيم أخرى ، كأن يصبح لباس «الهيبيز» - على سبيل

المثال - تدخين الماريجوانا ، وتم ممارسة قيمهم مثل عدم الرغبة في العمل . . إلى غير ذلك .

العيش معًا خارج إطار الزوجية ليس متشاراً بين أبناء الملايو ، ولكن هناك دلائل على أنه يحدث . القيم التي تسمح بالجنس وتقبل به خارج إطار الزوجية موجودة بين أبناء الملايو ، كما أن هناك أشكالاً أخرى من السلوك التي تعتبر عادلة ومقبولة ، بينما كانت تعتبر سيئة وكانت ممنوعة في الماضي . انهيار القيم بالنسبة للدين والاكتراث برأى المجتمع ، واضح في أحداث كثيرة . الفتاة الملايوية التي تذهب للدراسة في الخارج ، تتزوج رجلًا من عرق آخر . وحسب تعاليم الماضي ، لم يكن مثل ذلك الأمر ليحدث إلا إذا أشهر ذلك الآخر إسلامه لكي يشبّ أبناؤهم مسلمين . صحيح أن ذلك يمكن أن يحدث من الناحية الشكلية فقط ؛ إذ إنه ليس هناك من سبيل للتأكد من كون الزوج والأبناء مسلمين حققيين ، كما أنه ليس من السهل أيضًا التأكد ما إذا كان أى مسلم مسلماً بحق ، لا أحد يملكه أن يشق عن قلب الآخر ، والله وحده هو الأعلم بالحقيقة .

في حال زواج الفتاة الملايوية يحدث الآتي : أولاً ، الرجل لا يتحول إلى الإسلام وذلك لأن الفتاة - استجابة لمعنى الحرية على النطع الغربي - تعتبر مسألة الدين حرية شخصية ، حتى وإن أصبح زوجها مسلماً فسوف يعتبر ذلك عاراً ؛ لأنها عملية نفاق لخداع المجتمع ، وعانياً فتاة أمنية فهي ترفض النفاق . واتساقاً مع حرية العبادة هذه فإنها عندما ينجبان طفلان تنشئه حسب تعاليم الإسلام ؛ حيث إنه - كما تقول - لا بد من أن يكون حراً في اختيار دينه وسواء اختار دين أبيه أو دينها فذلك حقه ، وهو الذي يقرره .

هذا الموقف يصور لنا بوضوح تغير القيم الذي يمكن أن يحدث بين أبناء الملايو . قد تكون تلك حالة متطرفة ، إلا أن التطورات التي تتجاوز الحدود غالباً ما تبدأ بانحراف طفيف ، ولا نستطيع أن نتبين متى يتبع تحول طفيف في القيم تحولاً طفيفاً آخر ، إلى أن يحدث الاتهام الكامل للقيم القديمة كما حدث في الحالة السابقة .

هناك تحولات طفيفة كثيرة في القيم تحدث في مجتمع أبناء الملايو وليس كلها سيئة ، ولكن ، كما أن معظم التحول في القيم في الغرب إلى الأسوأ ، وحيث إنه من السهل تقليد الأسوأ ، فإن هناك مؤشرات معينة على أن مجتمع أبناء الملايو يتحول إلى الأسوأ .

وهذا مثال آخر : أبناء الملايو عادة يحترمون كبار السن ، ويعتبرون المسنين حكماء ويكونون لهم احتراماً شديداً ، بينما المؤكد أنه ليس كل كبار السن حكماء أو عقلاً أو يستحقون الاحترام . بعضهم غبي ومتخلف في أفكاره . احترام الكبار كلهم وبلا استثناء لمجرد أنهم مسنون ، أو كمبدأ عام ، قد لا يكون صواباً ، ولكن عدم احترام الكبار بشكل عام ليس صواباً كذلك . لابد من أن تدرك أن كبار اليوم كانوا صغاراً بالأمس ، ولو أنهم كانوا يستحقون الاحترام في صغرهم (فتحن ترددات الصغار) فإن التقدم في العمر لا يعني أن ينقص من قدراتهم . ومن أسف أن كبار السن اليوم ، في نظر الصغار ، لا يستحقون الاحترام .

التحول من مجتمع يحترم كبار السن ، إلى مجتمع يحقر المسنين . هذا التحول يعتبر انحرافاً في إحدى قيم أبناء الملايو . الأب الذي كان يحترم ابنه من أحد المخاطر في الماضي ، يجد ابنه اليوم يقول له : «انتبه ! الصغار اليوم ، والحاصلون منهم على تعليم عال ب خاصة ، يكتبون عادة لأبائهم يذكرونهم بما يبغى عليهم عمله . إنهم يصدرون التعليمات لأبائهم ، ومن ناحية أخرى لا ياليون بأى تعليمات أو توجيهات من آبائهم على اعتبار أنهم جهلة ، فهل يمكن أن يؤدي مثل هذا التغير في القيم إلى تحسن المجتمع ؟ منطقياً . لن يحدث ذلك . الصغار سيكبرون ، وسوف يعاملهم الصغار باحتقار مهما كان ما كافحوا من أجله وما حققوه في شبابهم . سوف تستمر ثنائية الكبير والصغير ، وسوف تقاس الصلاحية بال مصدر وليس بالجدرة . إذا فعل المسن شيئاً « فهو سيء » ، وإذا فعل شاب الشيء نفسه فلا بد من أنه « جيد » .

وبالإضافة إلى مسألة الكبير والصغير ، هناك أمثلة أخرى كثيرة على قيم جيدة في

مجتمع الملايو ، حل محلها قيم غريبة سينثـة . بعض القيم الغريبة التي تم تحـلـلـهاـ آثارـ بـسيـطةـ ، إـلـاـنـ هـنـاكـ قـيـماـ أـخـرىـ سـوـفـ تـدـمـرـ مجـتـمـعـ أـبـنـاءـ المـلاـيوـ .

إن المجتمع الصحي المعافى لا يمكن أن يوجد وأن يستمر دون قانون أو نظام . القانون والنظام يعنيان وجود حدود حرية الفرد ، والحرية لها حدود حيث إن حرية فرد ما يمكن أن تؤثر على حقوق الآخرين أو على الإسلام وأمن المجتمع نفسه .

فعلى سبيل المثال ، لابد من أن يكون الفرد حرًّا في التعبير عن رأيه ، ولكن إذا كان ذلك ينطوي على إساءة إلى الآخرين أو ابتزازهم ، فإن المجتمع لا يمكن أن يسمح بمثل تلك الحرية . وبالمثل ، يمكن أن يعمل الفرد للمحصول على ما يعتقد أنه حقه ، لكن ينبغي لا يؤثر على حقوق غيره أو على حقوق المجتمع نفسه .

ولتمكين كل فرد في المجتمع من الحصول على حقوقه دون التأثير على حقوق الآخرين ، وعلى الحق الجماعي للمجتمع نفسه ، توضع القواعد لضبط هذه الحرية في طرق ووسائل المطالبة بالحقوق . القواعد والقوانين لا يمكن أن تطبق من تلقاء نفسها ؛ لذلك يجب على المجتمع أن يعين هيئة مسؤولة عن تطبيق هذه القوانين ، ويعين على كل أفراد المجتمع أن يطبوعا تعليماتها ، وهنا نقع في مأزق ؛ فإذا كان لهذه الهيئة سلطة غير محدودة ، سيكون هناك احتمال لأن يساء استخدامها ، ولمنع ذلك لابد من أن يكون لهيئة أخرى سلطة التصرف في حال حدوث استغلال أو سوء استخدام للسلطة . الهيئة التي تقوم بالسيطرة تسمى «الشرطة» ، والسلطة المنوحة لها خاصة للقانون ، وعملها مهم بالنسبة للمجتمع ، وإذا أساءت الشرطة استخدام سلطتها ؛ فهناك وسائل لوضع حد لذلك ، إلا أنه في سعيها لتأمين المصالح الجماعية للمجتمع - الصالح العام - فلابد من أن تكون هناك أطراف تشعر بضغوط القوانين التي تطبقها ، وهذه الأطراف سوف تعتبر هذا النوع من الضغط «ظلمًا» ، وما داموا هم فقط الذين يعتبرون عمل الشرطة ظلما ، فالأمر لديهم ، ولكن إذا تعاطف المجتمع معهم فسوف تبدأ المشكلات . وإذا أدان المجتمع جهاز الشرطة بسبب تنفيذه للمهام

المدد له ، فإن سلام المجتمع سوف يتمزق . وإذا أصبحت الشرطة تنت بـ «الخنازير» تقليداً لما يفعله الطلاب في أمريكا ، فسيصبح من المستحيل تطبيق القوانين التي تحفظ أمن المجتمع ، وعندما تكون هناك قوانين لاتطبق ، فذلك أسوأ من عدم وجود قوانين على الإطلاق . المجتمع الذي لاتطبق قوانينه لابد من أن يتفكك ، سوف تعم الفوضى ويغيب النظام والسلام ، وتكون السيادة للعنف . توجه الشباب الغربي بالنسبة للشرطة ليس توجهاً صحيحاً ، ونظام القيم في مجتمع الملايين يحترم الإدارة ؛ لأنه يدرك الرفض والسلطة التي تتمتع بهما ، والشرطة جزء من الإدارة ، ولا يوجد دليل في ماليزيا على تجاوزها الحدودها القانونية . الحكومة المنتخبة من الشعب لها سلطة على الشرطة ، وفي دول أخرى عندما تكون الأنظمة غير منضبطة يمكن أن تروع الشرطة الشعب ، وبالتالي سوف يعتبرها الشعب جهازاً ظالماً . وفي بلاد كذلك يصبح نت الشرطة بـ «الخنازير» له ما يبرره ، أما في ماليزيا ، فإن ذلك النوع من «الظلم» يهدف إلى تأمين مصالح الأغلبية الذين لا يريدون أن يكونوا عرضة للظلم من أولئك الذين يريدون تكدير السلام . دفع كل رجال الشرطة بأنهم خنازير وظلمة ، هو صورة من صور انهيار القيم في المجتمع . ما هو جلبر بالاحترام يتم احتراره ، بينما يحترم ما يستحق الاحترار . وإذا سمع لهذه القيم بأن تنشر لتصبح هي قيم المجتمع كله ، فمن الممكن أن يحدث شيطان : الأول ، هو أن تلجم الشرطة بالفعل إلى الظلم لكنها تحافظ على سلطتها ، ويمكن أن يحدث ذلك فجأة (على شكل انقلاب مثلًا) أو بالتدريج ، ولكن النتيجة واحدة : دولة بوليسية أو الشيء الثاني هو أن تصبح الشرطة ضعيفة وعاجزة عن حفظ الأمن والنظام ، وفي النهاية سوف تفقد فعاليتها ، ويصبح من السهل كسر قوانين المجتمع ، والتنتيج هي انهيار قيم المجتمع ثم انهيار المجتمع نفسه . هذه الأمثلة تبين لنا بوضوح عملية انهيار أنظمة القيم في مجتمعات العالم .

وهناك حدث آخر يستحق الإشارة إليه باعتباره دليلاً آخر على مثل هذا الانهيار . لقد ألقى القبض مؤخراً على أحد الشبان في إنجلترا حاولته إطلاق «غاز الضحك» في قاعة

المحكمة . كانت إجراءات الدعوى جادة ، وتشير إلى أن أي إخلال بهيبة المحكمة سوف يعتبر تغيرا للقضاء ، وسوف يواجهه بعقاب صارم . وعند محاكمة الشاب قال القاضي بأنه إذا كانت الشرطة تستخدم قابل الغار أثناء عملها ، فلا يمكن توجيه اللوم للشاب لاستخدامه «غاز الضحك» . هذا الحكم يمثل عملية عكس للقيم . الأمر السئ أصبح يفسر على أنه جيد ، ولو امتد منطق حكم هذا القاضي ، يصبح من حق أي شخص أن يستخدم أي جهاز أو معدة من التي تستخدمها الشرطة لأى غرض يريد . استخدام الغاز المسيل للدموع والسيارات المدرعة والأسلحة النارية .. إلخ ، لن يكون محظورا على أي شخص . واضح إذن ما يمكن أن يحدث بالنسبة للمجتمع .

الأمثلة والمناقشة كلها ، حتى الآن ، تدور حول العواقب الوخيمة للتغيير في نظام القيم ، إلا أنه ليست كل التغيرات ضارة للمجتمع . الواقع أن كل ما هو جيد الآن في المجتمعات الإنسانية ، إنما جاء نتيجة تغيير القيم ، أو تحول الاحترام من السلوك السئ إلى السلوك الجيد .

الإسلام واحد من أقوى المؤثرات في إحلال القيم الجيدة محل السيئة . في مرحلة ما قبل الإسلام ، كان قتل البنات حديثات الولادة تعتبر سلوكا عاديا ، ولكن الإسلام أعلن أن ذلك جريمة شنعاء . قبل المجتمع العربي القيمة الجديدة التي جاء بها الإسلام ومنع وأد البنات ، وكانت أي محاولة لممارسة القيمة القديمة تعاقب بشدة من المجتمع ، الأمر الذي يوضح لنا أن التغيير إلى الأفضل قد حدث في نظام القيم العربي . المؤاند التي عممت على المجتمع العربي نتيجة التغيرات في نظام القيم بعد قبول الإسلام تثبت لنا أن التغيير في القيم ليس دائما إلى الأسوأ . المشكلة هي في ضعف الإنسان عندما يستدعي الأمر فحص ودراسة الآثار والتائج المتضمنة ، عندما يواجه محاولة تغيير قيمة ما .

في هذا العصر الحديث ، القيمة التي تعطى الأولوية دائما هي «حقوق الإنسان الأساسية» . في البداية كان مفهوم كون كل إنسان له حقوق مفهوما مقبولا ، فلا يجب أن

يتعرض أحد للظلم . ظلم للإنسان شئ « بعيد عن العدل ، وهذا أمر منطقى . («المنطق» هنا هو المنطق حسب نظام القيم الحالى عندنا ، أما إذا تغير هذا النظام فإن هذا المنطق قد لا يصبح كذلك) . وعند صياغة هذا الفمهموم (مفهوم حقوق الإنسان الأساسية) في البداية ، كان هناك بكل تأكيد أسباب تجعله يحظى بهذه الأولوية . العبيد لم يكن لهم حقوق في الماضي ، ولم يكن وضعهم أفضل من وضع الحيوانات . نظام القيم في عصور العبودية ، كان يعتبر الوضع القانوني للعبيد وضعًا عادلًا وليس سيئًا أو غير عادل على أي نحو ، ولكن كان يوجد في كل مجتمع بعض الأفراد من هم أكثر إنسانية لم يستطعوا أن يتحملوا رؤية البشر يعاملون معاملة الحيوانات ، وكانت تسؤالهم رؤية المعاملة القاسية للعبيد . كانوا أقلة في البداية ، ولكن عددهم تزايد وقويت وجهة نظرهم ، وفي النهاية أصبحوا مستعدين للصراع لكي يحصلوا على الحرية للعبيد . من المخجل أن يكون رأى المجتمع قد تغير في تلك المرحلة قبل فكرة أن استعباد البشر أمر سيء ؛ أي أن القيمة القديمة الخاصة بالعبيد حل محلها قيمة جديدة أكثر إنسانية . واليوم ، أصبح أمرًا عادلًا أن ندين العبودية ، ولا يستطيع أحد أن يقول إن تغير القيمة هذا كان إلى الأسوأ .

لقد كان القضاء على العبودية خطوة ثورية ، واعتبرت في ذلك الوقت أقصى عمل تم ليضع نهاية لشكلة استعباد وظلم الإنسان . واعتقد المجتمع العالمي أن الجنس البشري ، بالقضاء على العبودية ، كان يولي كامل الاحترام والتقدير «للإنسانية» باعتبارها قيمة ، ولكن بعد القضاء على العبودية بوقت قصير ، بدأت مشاعر الرضا بهذا الإنجاز تلوي ، فالعبيد المحررون ونسلهم - بالرغم من أنهم أحراز - لم يكن لهم نفس الوضع الاجتماعي الذي كان لسادتهم السابقين ونسلهم . عدم المساواة هنا كان ينظر إليه باعتباره صورة من صور الظلم ؛ فتم تبني القضية والضلال من أجلها إلى أن قبل المجتمع وطبق مفهوم المساواة بين العبيد السابقين ونسلهم من جانب ، وسادتهم السابقين ونسلهم من جانب آخر . وهكذا تغيرت قيمة أخرى من قيم المجتمع .

هذا التغير في القيمة كان مقنعاً لجميع الأطراف لفترة ، ولكن ذلك لم يستمر . لم تكن المساواة كافية . المتحررون من أولئك العبيد (نسليهم) لا بد من أن يكون لديهم الفرصة ليصبحوا قادة ورؤساء على نسل سادتهم السابقين ، وتواصلت الجهد لتغيير قيم المجتمع وسوف تتواصل .

لكن تغير القيم بالنسبة لظلم الإنسان لأن فيه الإنسان لم يته بالقضاء على العبودية . وبالرغم من عدم وجود عبودية اليوم ، إلا أن هناك صوراً أخرى للظلم تنشأ وتنشر . احتلال دولة لدولة أخرى مثلاً هو شكل من أشكال الظلم . كان هناك نضال للقضاء على الاستعمار ، وسقوط الاستعمار نتيجة للنضال يمثل تغيراً آخر في القيمة وهو تغير إلى الأفضل . وبالرغم من أنه لم يعد هناك وجود لاستعمار دولة لأخرى ، إلا أن ظلم الإنسان للإنسان ما زال موجوداً . إن حكومة دولة ما ، تستطيع ، غالباً ما تظلم الشعب بالرغم من أن كلها من جنس واحد ، والمسألة هي درجة هذا الظلم ، فما الحرية التي تمنع للفرد؟ ومن الذي ينبغي أن يقرر درجة تلك الحرية؟

في الديمقراطية ، الأغلبية هي التي يمكن أن تقرر درجة الحرية الواجب إعطاؤها ، ولكنهم لا يستطيعون اتخاذ قرار أمام كل بادرة من بوادر الاستبداد ، ولذلك يشكلون حكومة ، ويعطونها حق تقرير الحريات التي يجب أن تمنع ، ولكن من الذي سيتخذ القرار عندما تعارض آراء الحكومة التي تمثل الأغلبية وأراء الأقلية أو الفرد؟ إذا كان فرد ما يريد أن يفعل شيئاً والقانون يمنعه ، ألا يصل ذلك إلى مرتبة ظلم الأغلبية للأقلية؟ سوف يقول المفكرون والفلسفه ، بشكل محايد وموضوعي ، إن القيود القانونية على رغبات الفرد تعتبر -حسب تعريفها- نوعاً من الظلم ، وحيث إن المجتمع يقدر الحرية وحقوق الإنسان الأساسية ويدين الظلم ، فإنه لا يمكن أن يقف حائلاً ضد رغبات الفرد . وبالمثل ، إذا كانت «عادات» المجتمع -تخطر أو تمنع عملاً بعينه ، وهناك فرد يحاول أن يقوم به ، فإن المجتمع لا

يسقط أن يمنع الفرد من ذلك ، حتى لا يتم به يظلم الناس ويخرق قوانين حقوق الإنسان الأساسية .

وسوف يكشف لنا التفاصيل الدقيق عن أن التغير في القيم قدقطع شوطاً بعيداً ، لدرجة أن التحرر من كل صور الظلم يأتي في المرتبة الأولى ، غير عابي بالقوانين والعادات . هذا التغير حدث كعملية مستمرة منذ الكفاح للقضاء على العبودية ، والتي كانت قضية جيدة بلا شك ؛ فهل الأولوية التي تعطى للتتحرر من كل أشكال «الظلم» قيمة جيدة مثل قيمة تحرير العبيد ؟ لهم هذا السؤال والإجابة عنه ، فإننا نحتاج للدراسة مختلف الممارسات والتفسيرات المتعلقة بحقوق الإنسان الأساسية وأثر ذلك على المجتمع .

في أوروبا ، كما في غيرها ، كانت علاقات الجنسية المثلية محظوظة ومدانة من قبل المجتمع ، إلا أن البعض يجب أن يتغمس في هذا السلوك المنحرف . العادات الاجتماعية والقواعد ، في نظرهم ، شكل من أشكال «الظلم» .

وفي السنوات الأخيرة ، كانت هناك حركة تناضل من أجل «الحقوق الأساسية» لهؤلاء المنحرفين . في البداية ظل المجتمع على موقفه ، ولكن بعد أن بدأ اللعب على أوتار مسألة الحقوق وظلم الأقلية للأقلية ، بدأ بعض الأفراد المفترض أنهم «عقلاء» يتذكرون في موقف المجتمع من المسألة ، إذا كان المجتمع ، بالفعل ، يقدر الحقوق الأساسية للإنسان ويرفض كافة صور الظلم ؛ فهل يعتبر أميناً عندما يسمح لقوانين العادات بأن تکبح رغبات مجموعة معينة؟ السؤال أزيك المجتمع . وفي نهاية الأمر ، وت نتيجة لایمان المتعنت بقدسيّة حقوق الإنسان الأساسية ، تم إلغاء القوانين أو العادات وتحبّتها ، للسماسرة مثل هذا السلوك الإنساني المنحرف . كان ذلك هو التطور «المتنقى» للقضاء على العبودية . وعلى افتراض أن ذلك يحدث باسم «الإنسانية» تحول البشر إلى حيوانات ، ولكن ما زال هناك قوانين وعادات كثيرة في المجتمع ، وأولئك الذين لا يحترمون قوانين وعادات بعينها ستكون رغباتهم محجوبة ، ومنعنى ذلك أنه ما دامت هناك قوانين وعادات ، سيظل هناك ظلم للأقلية

أول للفرد ، وحيث إن التحرر من كل صور وأشكال الظلم يعطى أولوية في النظم الإنسانية الحديثة ، فإن القوانين والعادات سوف يتم خرقها علينا من قبل أي شخص دون مواجهة أي إجراء عقابي من أي نوع .

في هذه الظروف ، فإن القواعد والعادات مثل الملبس اللاتق والسلوك الدment ، واحترام الدين والأسرة والعمل ، والاحترام المتبادل والأمانة ، وغير ذلك كثير ، لم يعد لها مكان في المجتمع الحديث . الأولوية والولاء والتلف أصبحت تعطى «الحقوق الأساسية» ، وأى شىء يتبرجمه أي شخص على أنه «حق أساسى» لابد من أن يسمع به ، بصرف النظر عن الآثار والتائج . وهناك حقيقة غريبة ، وهي أنها عندما نحلل ذلك ، سوف يتضح لنا أن هذه «الحقوق الأساسية» و«التحرر من الظلم» هي نفسها شكل من أشكال الظلم - ظلم الأقلية أو الفرد للأغلبية . في النظام الديمقرطي مثلاً ، يعطى العمال الحق في الإضراب لمنع الظلم الواقع عليهم من أصحاب العمل . في البداية ، ساعد ذلك على حماية حقوق العمال ؛ لأن أصحاب العمل كانوا يواجهون خسائر مالية بسبب إضراب العمال عن العمل ، ولكن اتحادات العمال والنقابات قد كبرت حجماً ، بحيث أصبح الإضراب لا يؤثر فقط على أصحاب العمل المستهدفين ، وإنما على بقية المجتمع أيضاً . وفي يوم ، عندما يضرب العمال عن العمل ، فلابد من أن الجمهوز البرىء سوف يعاني ، وهكذا أصبح الإضراب سلاحاً فعالاً ، وأصبح العمال ، بما لديهم من حق في الإضراب ، أقوىاء ، ومثل هذه القوة الهيئة عرضة لسوء الاستخدام .

عندما يضرب عمال مناجم الفحم في بريطانيا ، يعاني تقريباً كل سكان بريطانيا بسبب نقص وقود التدفئة ، كما يموت البعض من المسنين بسبب البرد . عندما يضرب الأطباء وهيئة التمريض ، يتآثر المرضى - الذين هم أكثر منهم عدداً - على نحو سواء ، عندما يضرب عمال مصانع محركات السيارات ، فإن عمالة آخرين يستخدمون تلك المحركات في مصانع أخرى ، لابد من أن ينخفض عددهم . وهكذا يتضح لنا أن حق الإضراب الذي كان

هدفه في البداية حماية العمال من الظلم ، قد تتحول إلى سلاح يستخدم لظلم الآخرين .

في الولايات المتحدة ، وفي منطقة سكنية تعيش فيها بعض الأسر العادلة حياة هادئة ، قام أحد رجال الأعمال ببناء دار للسينما تعرض أفلاماً إيجابية . أدرك كل سكان المنطقة أن ذلك من شأنه أن يفسد الأخلاق ويكتدر السلام ، ولكن المحكمة كان من رأيها أن حق صاحب السينما لا بد من أن يكون محفوظاً ولا يعتدى عليه أحد ، أما حق سكان المنطقة - والذين هم أكثر عدداً بالتأكيد - في حماية أنفسهم من الآثار الضارة للأفلام الإيجابية ، فلم يعط أى اعتبار ؛ أى أن حق أساسياً لفرد واحد ينبع في احتجاز الحقوق الأساسية للأغلبية .

هذه الأمثلة تبين لنا أن «حقوق الإنسان الأساسية» و«التحرر من الظلم» ، بالرغم من أنها محترمة لصحة منطلقاتها وسمو مهادفها ، إلا أنها يمكن أن تصيب شكلاً من أشكال الظلم والقمع عندما تترجم ترجمة متطرفة . وهكذا كان تطور القيم المتعلقة بحقوق الإنسان الأساسية . في البداية ، جلب التغير في القيم تحسناً ، ولكنه أدى إلى عكس الموقف الأصلي بالتدرج ، وبعد أن كانت الأغلبية تظلم الأقلية ، أصبحت الأقلية أو الفرد هم الذين يظلمون الأغلبية . وبالرغم من الإيمان القوي بالقيمة الجديدة ، أى قدسيّة حقوق وحرية الفرد ، إلا أن الظلم الذي تتعرض له الأغلبية لم يلقي أى اهتمام أو اعتبار ؛ فليست المرضى والمسنون ، ولتفسّد أخلاقيات الأسرة ، ولينهار اقتصاد البلاد ، ما دامت «حقوق الإنسان الأساسية» مصونة .

لابد من أن يتتبّع أبناء الملايو لتاريخ تحول القيم هذا ؛ حيث إن نظام القيم في أي مكان لا يمكن أن يبقى معزولاً عنه في أي مكان آخر من العالم . الغزو الذي تم من قبل نظام القيم الغربي لنظام القيم في مجتمع الملايو يحدث منذ زوال احتكاكه بين ولايات الملايو والغرب . لم تكن كل نتائج ذلك الغزو سعيدة . بعض القيم الملايوية القديمة حل محلها قيم غربية أكثر «إيجابية» ، لكن كثيراً من القيم الغربية غير المرغوب فيها تسررت إلى نظام قيم المجتمع الملايوى .

وفي هذا العصر ، عصر الاتصال السريع ، لا يمكن أن يعزل أبناء الملايو أنفسهم عن الأنظمة الأخرى ، لكن أي دولة لديها إيمان بنفسها ، يمكن أن تمارس الرقابة على كل العناصر التي احتلت منظومة قيمها . ينبغي لأنترنوكيم مجتمع آخر تنشر دون رقابة ، والأمر متروك لكل مجتمع لكي يضع الحدود التي لا يسمح بعدها بقبول تأثير نظام أجنبى .

في بداية هذا الفصل ، قلنا إن وجود أي مجتمع متجلز في نظام قيمه الذي يتطور أو الذي يتطور المجتمع . وهذا الفصل يؤكّد أن حالة المجتمع ، أي تقدمه أو تخلفه ، يقرره نظام قيمه . وحيث إن نظام القيم مهم في تحديد مصير المجتمع ، فإن التغير في نظام القيم يعني تغيراً في حالة المجتمع . والمجتمع عندما يضع في اعتباره أهمية نظام القيم ، لابد من أن يكون يقظاً ومتبهلاً للتغيرات المهددة التي يمكن أن تحدث له في أي وقت ، ويعنى ذلك أن التغيرات ينبغي أن يسمح بحدوثها على نحو عشوائي . المجربون ذوي السلطة في المجتمع ، لابد من أن يقوموا بدور مهم في اختيار وتشكيل قيم جديدة وإحلالها محل القديمة . إن وضعماً يستطيع فيه أي شخص أن يحدث أي تغيير بتصوره ، لابد من أن يؤدي إلى عاقب وخيمة .

في مجتمع الملايو - كما في غيره - يلعب نظام القيم الدور الأول في تحديد المصير ، والقيم الملايوية تتغير اليوم دون دراسة منهجية ، وعلى غير Heidi . أي شخص يمكنه أن يهاجم النظام القائم ويضع قيمًا جديدة ، وهذا ينبع عنه صراع لامعنى له ، وارتباك وفوضى . لقد حان الوقت لأن يدرك أبناء الملايو ذلك ، وأن يفكروا في الخطوات الصحيحة لكي يضمنوا أن أداة مهمة ذات كفاءة ، مثل نظام القيم ، سوف تستخدم على النحو الصحيح ، ولصالح مجتمع الملايو .

الفَصْلُ الْشَّامِنْ الرُّوفَحَانِيَّةُ وَالسَّجَدَىُ الْعَدِيدُ

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلنَّاسِ الْقِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرْدَلَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَنِ يَقْدَعُونَ﴾ (٤٦) مَنْ
كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَأَنفُسِهِمْ يَمْهُدُونَ (٤٧) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَمْتَهَا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَاكِيرِينَ﴾

سورة الروم - الآيات : (٤٣ - ٤٥)

هذه الآيات تحث المسلمين (المؤمنين) على العمل الصالح والقبيح وعدم عصيان أوامر سبطاته وتعالي . الشكلة التي تنشأ هي أن العلماء ومفسري تعاليم الإسلام يقدمون تفاسير مختلفة . وبالرغم من اتفاق الجميع - بشكل عام - على ضرورة فعل الخير ، إلا أن هناك خلافات في الرأي بالنسبة لتعريف الخير وسواء . وأحيانا تكون تلك الخلافات بينة للدرجة أن يصبح المسلمون أعداء . والنتيجة أنه بالرغم من أنهم مطالبون بأن يكونوا إخوة ، إلا أننا نرى الدول الإسلامية تحارب بعضها (مساعدة غير المسلمين) ، كما نجد مسلمي الدولة الواحدة متقسمين على أنفسهم ، ويحاول كل منهم أن يدمر الآخر .

ففي مصر - على سبيل المثال - تجد جماعة من الناس الذين يزعمون أنهم وحدهم المسلمون الحقيقيون ، وأن من حقهم أن يقرروا نوع الحكم في مصر ، ثم يذهبون الحكومة التي يؤيدوها عدد كبير من المسلمين في مصر . ولكن يتحققوا أهدافهم فإن أعضاء هذه الجماعة الصغيرة مستعدون لاغتيال علماء الإسلام الذين يؤيدون الحكومة ، وربما كانوا أيضا على استعداد لإضعاف مصر ، وذلك بتحريض المسلمين في الجيش والمؤسسات الحكومية الأخرى على عصيان تعليمات الحكومة . وفي وضع تواجه فيه مصر الاعتداءات الإسرائيلية ، فإن هذه المحاولات لو ثبتت ؛ فمن المؤكد أنها سوف تحقق لإسرائيل الانتصار .

ولكن بالرغم من ضرورة أن يكونوا مدركون لذلك ، إلا أن أعضاء هذه الجماعة القليلة ، يظلون على اقتناعهم بأن كل ما يقومون به «خير» ويتفق مع تعاليم الإسلام .

وهكذا فإن أمراً يبدو واضحـاً أنه «سيء» ، يمكن أن يفسـر على أنه «جيد» من قبل بعض المسلمين ، عندما يكون لهم زعيم أو قائد متـحرف عن جادة الصواب ، وهـكذا تكون العـاقـبـ أيـضاً .

إن الخطأ ليس في الإسلام ، وإنـاـ فى علمـاءـ المـسـلـمـينـ غـيرـ المـعـصـومـينـ منـ اـرـتكـابـ الأـخـطـاءـ وـالـخـضـوعـ لـدـوـافـعـ دـنـيـةـ . ولوـاـنـ جـمـيعـ عـلـمـاءـ المـسـلـمـينـ اـتـفـقـواـ عـلـىـ تـفـسـيرـ مـشـرـكـ لـتـعـالـيمـ إـلـاـسـلـامـ ، لـماـ انـقـسـمـ الـمـسـلـمـونـ ، وـلـنـ يـكـونـ عـلـىـ الـمـسـلـمـينـ غـيرـ الـمـفـقـهـينـ فـىـ الدـيـنـ أـنـ يـخـتـارـوـاـ بـيـنـ التـفـاسـيـرـ وـبـيـنـ الـعـلـمـاءـ ، وـلـكـنـ بـيـنـ الـعـلـمـاءـ مـخـلـفـوـنـ فـيـمـاـ يـبـنـهـمـ ، فـإـنـ الـمـسـلـمـ غـيرـ الـمـتـخـصـصـ فـيـ الدـيـنـ سـوـفـ يـقـومـ بـالـاـخـتـيـارـ عـلـىـ أـسـاسـ مـعـرـفـتـهـ الضـصـلـهـ ، ذـلـكـ هـوـ الـمـأـزـقـ الـذـيـ يـجـدـ أـبـنـاءـ الـمـلـاـيـوـ أـنـفـسـهـمـ فـيـهـ (وـكـلـهـ مـسـلـمـونـ) هـنـاـ فـيـ مـالـيـزـياـ . وـالـأـمـرـ نـفـسـهـ بـالـنـسـبـةـ لـلـارـتـبـاكـ فـيـ فـهـمـ مـعـنـىـ (ـالـرـوـحـانـيـةـ) بـيـنـ أـبـنـاءـ الـمـلـاـيـوـ الـيـوـمـ ، عـنـدـمـاـ يـطـلـبـوـنـ التـوـجـيهـ وـالـإـرـشـادـ مـنـ الـعـلـمـاءـ . فـيـ دـوـلـةـ دـيـقـرـاطـيـةـ ، حـيـثـ يـبـغـيـ أـنـ يـحـدـدـ كـلـ فـردـ خـيـارـاتـهـ ، يـصـبـحـ الـأـمـرـ مـحـيـراـ ، عـنـدـمـاـ يـتـصـارـعـ الـوـاقـعـ وـالـمـنـطـقـ وـالـعـقـيـدةـ . نـتـيـجـةـ هـذـهـ الـحـيـرـةـ سـتـكـونـ اـجـيـارـاـ لـيـسـ فـقـطـ غـيرـ حـكـيمـ ، بـلـ رـبـماـ كـانـ ضـارـاـ بـالـفـرـدـ وـبـالـجـمـعـمـ .

فـيـ الـفـصـلـ الـذـيـ يـحـمـلـ عـنـوانـ (ـالـلـادـيـةـ وـالـرـوـحـانـيـةـ) ، تـاـولـنـاـ عـجزـ الـلـادـيـةـ عـنـ تـحـقـيقـ السـعـادـةـ لـلـجـنسـ الـبـشـرـىـ ، فـهـلـ يـكـنـ لـلـمـجـتمـعـ الـمـؤـمـنـ بـالـقـيـمـ الـرـوـحـيـةـ أـنـ يـحـقـقـ السـعـادـةـ فـيـ هـذـاـ الـعـصـرـ؟ـ فـيـ الـعـصـورـ الـقـدـيـمةـ عـنـدـمـاـ كـانـ الـجـمـعـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـعـزـلـ نـفـسـهـ فـيـ مـنـطـقـةـ مـعـيـنةـ وـيـقـطـعـ عـلـاقـتـهـ بـكـلـ الـجـمـعـاتـ الـأـخـرـىـ وـبـالـعـالـمـ الـخـارـجـىـ ، كـانـ مـنـ السـهـلـ أـنـ تـحـقـقـ لـهـ مـارـسـةـ الـفـلـسـفـةـ ذاتـ النـوـجـهـ الـرـوـحـانـيـةـ السـعـادـةـ ، وـلـكـنـ فـيـ الـعـصـرـ الـخـدـيـثـ ، لـاـ يـسـتـطـعـ أـىـ مـجـتمـعـ أـنـ يـعـزـلـ نـفـسـهـ تـامـاـ عـنـ بـقـيـةـ الـعـالـمـ . وـسـوـاءـ قـبـلـوـاـذـلـكـ أـوـ لـمـ يـقـبـلـوـهـ ، فـإـنـ النـاسـ فـيـ أـىـ

مجتمع سيكون عليهم مواجهة زحف العالم المخارجي عليهم ، وهو أمر لا يمكن تجنبه أو إيقافه .

وكلما أصبح الاتصال أكثر سهولة بين جماعة إنسانية وأخرى ، يصبح تجنب هذا الزحف أكثر صعوبة ، وحيث إن المجتمعات لاتمارس كلها القيم الروحية ، فإن أي مجتمع من تلك التي تقوم بذلك سيكون عليه أن يتماشى مع المؤثرات المادية ، والنتيجة هي أن قيمة وفلسفته المادية سوف يلطفها الجشع والتکالب على الماديات ، وهو ما يشكل الأساس الفلسفي للمجتمع المادي الحديث . ولابد من أن نؤكد هنا أن الاهتمام بالأمور الدينية ليس مرادفاً للمادية . المرء لا يمكنه تجنب امتلاك الأشياء ، وقد يكون هذا الشيء مجرد الشوب الذي يرتديه . لابد من أن يكون لديه اهتمام وحرص على ما يملك ، ولكن ذلك لا يعني أنه جشع للأشياء المادية أو أنه قد تحول إلى شخص مادي . إن المسؤول سيحاول دائمًا أن يضيف إلى ما يملك ، وكذلك فإن أي شخص لديه أي شيء سوف يحاول أن يضيف إليه . السعي للإضافة إلى ما يملكه الشخص لا يجعلنا نقول إنه قد تحول إلى شخص مادي ، ولكن المسؤول أو صاحب الملايين سيصبح شخصًا ماديًا عندما يكون على استعداد لفعل أي شيء بهدف الإضافة إلى ما يملك وإلى ثروته ، ويصبح السعي إلى الثراء هو السيطرة على حياته فكراً وعملاً . ومثلاً أولئك الناس لن يعودوا للمجتمع أى قدر من ثرواتهم على شكل إسهام تطوعي أو غيره لكن يساعدوا الأقل حظاً ، بل إنهم سيحاولون دائمًا - ويدافع من الطمع - تجنب أي شكل من أشكال المسئولية الاجتماعية .

من الواضح إذن أن الملكية أو السعي إلى الثراء لا يجعلان المرء شخصًا ماديًا إلا إذا أصبح ذلك هاجساً ينسيه مسئولياته نحو المجتمع الذي يعيش فيه ؛ أي أنه قد أصبح مجردًا من «الإنسانية» . ومن المهم أن نفهم ذلك ؛ لأن من السهل جداً على مجتمع ما أن يخلط الأمور ويعتقد أن الفقر يعني الروحانية ، وأن امتلاك الثروة الدينية مرادف للمادية .

إن تاريخ الإسلام يبين لنا أنه ليس هناك علاقة تلازم بين الفقر والروحانية أو بين الثراء

والحادية ، والمؤكد أن الفقر أو الثراء لا يحدان عقيدة وإيمان المرء . كثير من العلماء وأئمة المسلمين أغنياء ، ولكن أحدا لا يشك في التزامهم تعاليم الإسلام التي تولى أهمية كبيرة للقيم الروحانية . سيدنا عثمان - على سبيل المثال - كان غانيا ، كما أن السيدة خديجة - أولى زوجات الرسول - كانت سيدة أعمال غنية . كان أولئك الناس أغنياء ، ولكنهم لم يكونوا من الذين نذروا حياتهم للمحادية ، بل إنهم وغيرهم من أقارب وصحابة الرسول وكبار المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين الأربعه وبعده ، أنفقوا ثرواتهم على المساعدة في نشر الإسلام في بقاع الأرض . وكون أبناء الملايو المسلمين اليوم ، يرجع في جزء منه لثروة التجار العرب والهنود الذين أبحروا في كل مكان من أجل التجارة ، التي كانت مرتبطة مباشرة بالسعى من أجل الثروة والملكية .

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَأَوَى (١) وَرَجَدَكَ حَالاً فَهَدَى (٢) رَوَجَدَكَ عَالِلاً فَأَغْنَى (٣)﴾

سورة الضحي - الآيات : (٨-٦)

لم يكن الإسلام أبدا ضد الشروة الدينية . لابد من أن يكون هناك توازن بين «الدنيا» و«الآخرة» ، ومن هنا فإن المسلمين مطالبون بالعمل كأنهم مخلدون في هذه الحياة ، وأن يؤدوا واجباتهم الدينية كأنهم سيرحلون عن هذه الحياة الدنيا غدا .

كما تبين لنا الآية الكريمة التالية قيمة العمل والسعى في الحياة الدنيا :

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَأَنْتُرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لِمَلْكُمْ تُلْحِنُونَ (٤)﴾

سورة الجمعة : الآية (١٠)

إن الإسلام لا ينظر إلى الأمور الدينية نظرة الزهد والتقطش الموجدة في بعض

العائد الأخرى ، ولا يطلب من أى تابعه العيش فى دير أو مكان مقطوع لحياة وهبانية أو أن يظل عزياً أو يكون ناسكاً فى الجبال . فى المسيحية ، مثلاً ، توجد شواهد كثيرة على رفض الحياة الدنيوية . ليس مسموحاً للقتاوس الكاثوليك بالزواج . وفي عقائد أخرى حيث توجد نواه كثيرة ، يعزل أفرادها أنفسهم عن المجتمع ويتخلون عن كافة الشئون الدنيوية ، ومؤخراً أصبحت هذه الأوامر والنواهى أقل صرامة ، إلا أن مفهوم رفض الحياة الدنيا مازال قائماً بين أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . إن رفض الحياة الدنيا (التي خلقها الله) فى نظرهم شكل من أشكال التقوى التى تكسبهم ثواباً روحانياً .

لاكهانة فى الإسلام ، ولا وجود لأمر تنهى عن الحياة الدنيا ، لأن رفض الحياة الدنيا وثرواتها لا يزيد أو يعزز التمسك بالقيم الروحية . وبالرغم من أن المتصوفة المسلمين يدرسون لكن يصلوا إلى أسمى القيم الروحية ، إلا أن التصوف ليس نظاماً دينياً يرفض كل أمور الدنيا .

لامكان فى الإسلام للنظريات أو الممارسات المطفرة ، وهذا واضح من قوله تعالى :

﴿وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْاتِلُوكُمْ وَلَا تَقْنُدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُغَنِّمِينَ﴾

سورة البقرة - الآية : (١٩٠)

وفي سورة المائدة :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

الإسلام لا يطلب من رفض الحياة الدنيا . ما يطلبه هو الوعى والمشاعر الإنسانية . إن فعل العبادة يذكر المسلمين - مهما كانوا أغبياء أو أقوباء أو أذكياء - بأن هناك قوة أعظم وأكبر في كل شيء . كما يذكرنا أيضاً بآياتنا سواسية ، سواء كانت أغبياء أو فقراء ، ملوكاً أو من العامة ، قادة أو مرؤوسيـن . وذلك هو الذي يحمينا من الغرور الزائد الذى سرعان ما يسيطر على عقول الأذكياء والأغبياء والآقوباء . إن المجتمع يصبح أكثر عدلاً وسلاماً وسعادة دون هذا الغرور الذى يسبب سوء الفهم ويزرع الحقد بين الناس .

الصوم ، الذى هو فرض على كل مسلم ، يجعل المسلمين يشعرون بمعاناة الفقراء .

أثناء شهر الصوم ، لا يشعر المسلم بوخذ الجوع فقط ، وإنما عليه كذلك أن يرفض الأفكار والنيات والأفعال التافهة والممتوطة من قبل الدين والمجتمع . إنه تدريب روحاني قاسي وفعال . والمتوقع من المسلم - وهو في قبضة الجوع والعطش - أن يسيطر على الدوافع الجامحة التي يمكن أن تكون ضارة به وبالمجتمع ، ولاشك في أن مثل هذا التدريب يزيد من قدرة المسلم على مواجهة تحديات الحياة بنجاح ، وأن يجعل المجتمع الإسلامي أكثر نظاما وأمنا ، إلى جانب أن ذلك سوف يزيد من تقدير المرأة لقيمة المأكل والمشرب العاديين ، ويحل الشكر والامتنان محل غطرسة المنعمين المترفين الذين لم يعرفوا المعاناة في حياتهم .

والزكاة ، التي هي فرض ديني ، أو دفع ضرورية عن الممتلكات ، تضيق الفوارق بين جماعة وأخرى في المجتمع ، وبذلك تحافظ على السلام وتحجب الصراع . إن الزكاة تخلق مشاعر المسئولية والاعتبار وتتميّها بين المسلمين ، وبذلك تقل مشاعر الغيرة والحق التي كثيراً ما تغزو نسيج المجتمع .

أما الغرض الأخير وهو حج بيت الله الحرام ، فيجيء تبريراً لكل تلك الممارسات والتديّيات فيجعلها أكثر تأثيراً ، كما أنه يغرس في النفوس وعي الأخوة بين جميع المسلمين بصرف النظر عن اللون أو الجنس أو الطبقية أو أي فروق أخرى بين البشر .

من الواضح أن طقوس العبادة في الإسلام قد وضعت لكي تجعل المسلمين على وعي بما يتبعهم من توجهات ومسؤوليات أمام الله والمجتمع . هذه التوجهات والمسؤوليات يمكن تففيذها بكلفة لأن المسلم قام بيدوره كاملاً في المجتمع ، أما لو انسحب منه ليصبح ناسكاً يؤدي طقوس العبادة بمفردة ، فلن يكون قادراً على القيام بأى دور ؛ أى أن المسلم ليس مطالباً بأن يرفض الحياة الدنيا برمتها ، ويعزل نفسه عن المجتمع . كل ما يطلبه الإسلام هو ألا يترك المسلم مشاغل الدنيا تستحوذ على فكرة دوّنته ويهمل حقوق الآخرين ومشاعرهم ، ولا يشعر بالمسؤولية أو الجوانب الإنسانية .

إن طقوس العبادة في الإسلام مختلفة عنها في الديانات الأخرى . هناك طقوس

تمارس في ديانات أخرى؛ لأنها - كما يقال - تحقق السعادة لن يقوم بها وتجعله شخصاً تقياً مفضلاً عند الله، وذلك من شأنه أن يؤدي إلى نشأة فتنة تكرس كل وقتها للعبادة وترفض الحياة الدنيا لكي تصل إلى المرتبة الدينية الرفيعة ورعاها إلى لقب «قديس». من يرفض الحياة يرفض المجتمع أيضاً. الطقوس التي يؤديها، إنما يؤديها نفسه فقط، ولو فعل كل فرد الشيء نفسه فلسوف تسوء أحوال المجتمع ورعاً تخلل المجتمع تماماً. ولو أن كل الشباب الذكور أصبحوا رهباناً وكل البنات راهبات فسوف يصبح مجتمعنا «تقيناً»، ولكنه سوف يتعرض بعد وقت قصير، وبانفراط المجتمع سينظرن الدين؛ لأن الدين لا معنى له دون تابعين. الدين يعيش عندما يعيش تابعوه. وحياة الأتقياء تعتمد على حياة «غير الأتقياء» الذين لا يرفضون المشاغل الدنيوية. بدون الجهد الديني للناس «العاديين» لن تستطيع الفئات أو الأفراد الذين ينشدون السعادة لأنفسهم فقط أن يفعلوا ذلك، وهذا يدلنا مرة أخرى على أهمية السعي في الحياة، حتى بالنسبة لمن يرفضونها.

وإذا كانت الجهود الدنيوية والسعى في الحياة ضرورية ومهمة لأداء طقوس العبادة والالتزام بالقيم الروحية، فما مدى ذلك السعي أو ما حدود تلك الجهود؟ لا يكفي أن يكون السعي من أجل الثروة الدنيوية إلى الحد الذي يمكن المرء من أداء طقوس العبادة؟ ومافائدة الحصول على ثروة زائدة لتساعد على أداء تلك الطقوس؟ إننا إذا نظرنا إلى الشروة من وجهة نظر الفرد الذي يمتلكها فقط، سيكون صحيحاً بالطبع أن الثروة الزائدة لفائدة لها بالنسبة له إذا كان متمسكاً بالقيم الروحية أيضاً، ولكن من وجهة نظر المجتمع فإن الثروة التي يمتلكها الفرد يمكن أن تعود بفائدة ومنفعة. إذا فرضت ضرائب عالية على مكاسبه في حياته وعلى تركته بعد وفاته فإن ثروته يمكن أن تحسن أحوال الآخرين من غير الموسرين في المجتمع. ولو لم يكن هناك أغنياء فإن الضرائب الضرورية لتمويل إدارة المجتمع سوف تفرض على الفقراء، والمؤكد أن إجراء من هذا القبيل لن يجعل المجتمع أكثر سعادة.

وهكذا فإن دور الغنى قد تقرر في الإسلام بدفع الزكاة، وهذه الزكاة لن يكون لها

معنى لولم يكن هناك أغنياء في المجتمع الإسلامي . إن الهدف من زكاة المال و زكاة الفطر هو أن جزءاً من المال الذي يحتفظ به الفرد لابد من أن يوجه إلى أولئك الأقل حظاً وثراء . وتقسيم تركة الشخص المتوفى معناه أن تلك الثروة ليست مقصورة على سلسلة واحدة من الورثة . الأسلوب الإسلامي يوزع هذه التركة ، وهكذا يساعد في الوفاء بمسئوليية المجتمع تجاه أفراده على نحو مباشر وغير مباشر . إن الفارق بين الأغنياء والأغنياء يضيق إلى حد ما عندما يتم تقسيم إرث عن طريق الفرائض .

دور الثروة التي علّكها فرد أو مجموعة في المجتمع هدفه أبعد من تطوير المجتمع والقضاء على الفقر . الثروة طاقة وقوة كامنة . ومن خلال القنوات الاقتصادية والاجتماعية ، عن طريق شرعى أو غير شرعى يمكن أن تشكل الثروة تفكير وتوجهات المجتمع ، والحكومة نفسها ليست محصنة ضد نفوذ الثروة .

والأيديولوجيات الغربية تقوم على الثروة بالفعل على نحو مباشر أو غير مباشر . النظام الرأسمالي الحر ظهر إلى حيز الوجود عندما سيطرت الثروة على فكر المجتمع بالكامل . ومن الناحية الأخرى فإن النظم الاشتراكية والشيوعية ظهرت كرد فعل للحقد على احتكار جماعة صغيرة للثروة . وهكذا نجد أن النظم أو الأيديولوجيات الثلاث متطابقة ، كلها تقوم على الجشع والتکالب على أمور مادية .

وعلى ضوء الدور الذي تلعبه الثروة المادية في تشكيل هوية المجتمع الذي يملّك فيه أفراد أو جماعات الثروة ، يصبح ذلك مسألة مهمة . إذا كانت الجماعة التي تعبد الماديات ؛ أي التي تهتم فقط بالقيم المادية ، إذا كانت هذه الجماعة تحترم الثروة فإن المجتمع سوف يتحول إلى مجتمع رأسمالي أو اشتراكي أو شيوعي عاجلاً أو آجلاً على السواء . هذا التحول يمكن أن نجد له في بعض الدول العربية التي رفضت الإسلام . احتكار الثروة في يد الماديين أثار الحقد والحسد بين الفقراء . ومن خلال الإقتصاد القادم من الخارج ، تم قبول الأيديولوجيات الاشتراكية والشيوعية ، وحيث إنها أيديولوجيات تقوم على المادية ، تم

تنحية الإسلام والروحانية . واليوم ، ليس هناك للدين أو الروحانية مكان في الدول التي كانت إسلامية ذات يوم . كل فرد في المجتمع مهم فقط بـ «العدل» في توزيع الملكية .

وإذا كانت ملكية الثروة بواسطة من يعبرون المادة تؤدي إلى الدمار الاجتماعي ، لا يمكن أن تؤدي ملكية المؤمنين بالقيم الروحانية لها إلى التسليجة نفسها؟ ألم تغير الثروة توجهات وفلسفه هذه الجماعة في الحياة كذلك؟ إننا لا يمكن أن نضمن أن الالتزام بالقيم الروحية لن يتآكل بسبب أثر الثروة على طمع الإنسان الطبيعي ، ولكن إذا كان التدريب الروحي قوياً والمجتمع تسوده القيم الروحية فاحتسب أن سيطر الجميع على العقل لا بد من أن يكون أقل . كلما كان التدريب الروحي قوياً ، قل احتمال أن تطغى القيم المادية على الروحية .

على أية حال ، الخيار المطروح أمام المتسكين بالروحانية ليس رفض أو قبول الدنيا وما فيها من ثروة . الحياة الدنيا بما فيها من ثروة وأنشطة اجتماعية أخرى كثيرة ستكون موجودة بصرف النظر عن أي فلسفات في الحياة أو المولت تسيطر على العقل البشري . الخيار أمام الجماعة الروحانية هو إما أن يتركوا الم الدين الجشعين يمتلكون ثروة الدنيا وما يتبعها من سلطة ، أو أن يمتلكوها هم ؛ فإذا تملكت الجماعة المادية هذه الثروة فلابد من أن تواجه الجماعة الروحانة الدمار ، ومن الناحية أخرى ، إذا تملكت الجماعة الروحانة الثروة ، يظل هناك بعض الأمل في أن يتمكنوا من تجنب الانحلال الأخلاقي .

لامفر من الاختيار ؛ حيث إنه لا يوجد مجتمع إنساني متجانس بالكامل في هذا المخصوص . يوجد في كل مجتمع من هم مهوسون بالأشياء المادية ومن هم متمسكون بالروحانية ، والمنافسة حتمية بين الجماعتين ، كلتاهمما تحاول التغلب على الأخرى . ويصبح الاختيار شديد الأهمية ؛ حيث إنه لا يوجد أي مجتمع في هذا العصر الحديث محض من تأثير العالم الخارجي ، والعالم الخارجي لا يمكن التحكم فيه بواسطة مجتمع يريد التمسك بالقيم الروحية . والحقيقة أن الواقع على العكس من ذلك ، حيث إن ما يدعوه المسلمون بـ «العالم الخارجي» لم يعد يتأثر بالدين ، وإنما تسيطر عليه الماديات .

حتى «مكة» ، الديار المقدسة ، لابد من أن تشعر بآثار الأفكار والأنشطة والخلافات الموجودة في العالم الخارجي . لا يستطيع أحد أن ينكر أن التقدم الهائل في مجال الاتصالات مثلاً ، قد غير الظروف في مكة وحولها . لقد زاد عدد الحجاج بنسبة عالية للدرجة أن مشكلات الإسكان والإعاشة أصبحت تتطلب توفير كل وسائل الراحة الحديثة لتأمين أداء فريضة الحج بشكل مرضٍ وفي سلام ، كما أن أثر التضخم ملحوظ أيضاً في مكة كمما في أي مكان آخر ، وأثاره على الحج واضح .

وإذا كانت الديار المقدسة نفسها تشعر بضغوط الأمور الدينية ، فإن المجتمعات الأخرى التمسك بالقيم الروحية لا يأمل لديها في أن تكون بمنجاة منها . الوضع في غرب آسيا مثال واضح على ذلك ، ٧٠ مليون عربي معظمهم من المسلمين لا يملكون أي ثروة (لا ممتلكات ولا قدرة) فشلوا في الدفاع عن أنفسهم دون مساعدة الشيوعيين والرأسماليين . اليوم ، توجد لديهم الشروة المادية (من البترول) ولكن ما زالت تقصصهم القدرة «الدينية» والكافحة (نتيجة السعي غير الكافي للحصول على المعرفة الدينية) . هجمات ٢ مليون إسرائيلي ما زالت تهدد العالم العربي ، والعرب ما زالوا يعتمدون في دفاعهم على الأمريكيين (الرأسماليين) والروس (الشيوعيين) .

هذه الحالة من عدم الأمان تضعف روابط الأخوة بين المسلمين ، ولكن ينجو المرء بنفسه ينسى إخوانه المظلومين . ضغط المشكلات الدينية يضعف الالتزام بالروحانية بشكل مباشر أو غير مباشر ، ومن المحتمل جداً أن يتزعم الإيمان الديني نفسه إذا استمر هذا الضغط ، كما يجب أن نلاحظ ثانية أن الإسلام قد فقد المؤمنين به في بعض الدول العربية حيث إنه لم يعد دين الأغلبية ولا الدين الرسمي للدولة .

ولو أن الجماعة التمسك بالقيم الدينية كانت غنية وقدرة وكفأً ومطلعة على كل مجالات المعرفة في هذا العالم (والعالم هنا ليس مرادفاً للمادية) ، بالإضافة إلى مصدر الشروة الهائل الذي أعطاه الله للدول العربية ، لاستطاعت الجماعة أن تؤمن التهديدات

الإسرائلية ، ولما كانت إسرائيل قد وجدت أصلا . من الغريب والخجل أن ٧٠ مليون نسمة ، وفي يديهم ثروة عاجزون عن الدفاع عن أنفسهم ضد مليونين لا يملكون ثروة .

هذا هو الواقع ، وقد يقول البعض إن هناك مصلحة خاصة أو حكمة في الوضع الحالى في غرب آسيا ، وإننا لستا في حاجة للقلق بسببه أو للخروج منه بدرس ، وإنه ليس هناك ما يدعونا للتغيير توجهاتنا أو محاولة إيقاف الآخرين من يؤمنون بالقيم الروحية من المصير نفسه . قد يقولون إن الغرب بالرغم من أنه يفوق الدول الإسلامية في الثروة والقدرة ، إلا أن الدول الإسلامية مازالت موجودة ، وإن الإسلام مازال قوياً ومتجرداً في قلوب المؤمنين به ، إلا أن الواقع يكذب هذا القهوم . دول إسلامية كثيرة في آسيا الوسطى سقطت في أيدي الشيوعيين ، والجحيل الجديد في تلك الدول لا هو مؤمن بالإسلام ولا بالقيم الروحية . وباعتبارهم شيوعيين فإنهم يعتقدون أن الطريق إلى السعادة الإنسانية هو دكتاتورية البروليتاريا والتوزيع المتساوي للثروة . الدين بالنسبة لهم حلم فارغ ، وهكذا راحوا يهدمون المساجد أو يحوّلونها إلى متاحف لعرض الثقافات والحضارات القديمة .

وفي بعض الدول العربية أيضاً حلّت الأفكار الاشتراكية والشيوعية محل الإسلام والقيم الروحية . وتم تخفيض عدد المساجد والمدارس الدينية ولم يعد اسم الله يذكر . وبدلًا من نشر الإسلام في أرجاء العالم ، كما كان يفعل أسلافهم ، أصبح أولئك الناس يرفضون الإسلام صراحة ، ويشرون بدلاً منه أفكاراً متناقضة له على طول الخط . ويحدث ذلك كله ؛ لأن ما يؤكده عليه علماء المسلمين يخالف الواقع وربما يتعارض معه . في العالم الحديث ، حيث لا يرى المسلمون سوى التقدم المادي والثروة في الدول الأخرى ، يصبح من الصعب أن يقبل المسلمون الذين تنقصهم قوة الإيمان أن يصدقوا تلك الادعاءات ، هذه الادعاءات تحتاج إلى حقائق تبين أن القيم الروحية يمكن أن تساعد المؤمنين على أن يصمدوا أمام الماديين ، وأن يجدوا السعادة أيضًا .

ومن الحقائق التي لا يمكن إنكارها اليوم أن المسلمين مضطرون للاتجاه أمام الماديين ،

ليطلبوا منهم المساعدة والحماية . وراء هذا الواقع يصبح من الصعب إقناع أحد بأن الروحانية تحقق السعادة . اللاجئون الفلسطينيون الذين يعتدى عليهم ويطردون وينبذون على أيدي اليهود وأيدي مسلمين مثلهم ، من الصعب أن يقبلوا الزعم بأن القيم الروحية تحقق الشعادة . كل ما يعرفونه هو أن الماديين يظلمونهم ، وأن من يتكلمون عن السعادة التي تحملها الروحانية أضعف من أن يقدموا لهم مساعدة مؤثرة .

واليوم ، هناك نداءات متكررة للحفاظ على القيم الروحية ورفض المادية . الكل متفق على أن القيم الروحية أمر مطلوب ، إلا أن هناك ليسًا وعدم وضوح في التعريفات وفي أدوار المادية والروحانية ، كما أنه ليس هناك فهم واضح للتتحدي الذي تواجهه الروحانية هذه الأيام . في هذه الحالة من الارتباك الذهني من الصعب اتخاذ قرارات بمقابل وتداير فعالة . والنتيجة وجود مواقف كثيرة متباعدة من جماعات مختلفة تدافع عن الروحانية وتبناها البعض يعتبر ملابس وألوانها بعينها وأجهزة التليفزيون والسيارات وغيرها من التسهيلات الحديثة ، يعتبرها رموزاً للمادية (عرض الدنيا) ويشن عليها حرباً شعواء من صنفهم ، وأخرون يحاولون عزل أنفسهم عن الآخرين ويدينون من لا ينضم إليهم في «كفاحهم» . وهناك آخرون مستعدون لقتل وتعذيب مسلمين مثلهم (اغتيال الوزير المصري) زاعمين أنهم يقاتلون دفاعاً عن الإسلام والقيم الأخلاقية الحقيقة .

الإنسان ، ذلك المخلوق الذكي ، سوف يفني ويختفي لو ترك العواطف والرغبات تتحكم في أفعاله ، وهو باعتباره كائن عاقلاً في حاجة إلى أن يبحث ويدرس المشكلات التي تواجهه بهدوء .

إن التتحدي الذي يواجه القيم الروحية في عصرنا الحديث واضح بلا شك ، ويمكن مواجهته . ولقد بين لنا التاريخ كيف كانت الرغبات هي التي تحكم السلوك الاجتماعي في الجاهلية ، كما بين لنا أيضاً كيف أن الإسلام في مدى ٢٣ عاماً استطاع أن يكبح جماح الرغبات الإنسانية وقود المجتمع إلى الطريق السليم ، وكيف أنه استطاع في القرون اللاحقة

أن يواصل الانتشار ويحطم القيم غير المرغوب فيها في ثالث العالم المعروف آنذاك تقريرا . فإذا كانت الروحانية مهددة اليوم أيضا ، فلابد من أن يكون الدفاع عنها والحفاظ عليها مؤسسين على تحليل متعقل وعمل حكيم . إن الحرب الرمزية لا معنى لها ولن تتحقق نهائيا . والشيء نفسه ينطبق على محاولة فرض العزلة على النفس و TZقيرق وحدة المسلمين الملتزمين بالقيم الروحية بالفعل .

إن أعداء القيم الروحية ليسوا الماديين فقط ، الأعداء الأكثرا هى العواطف الجامحة والمعرفة السطحية لدى من يحاولون الحفاظ على الروحانية ، ولكنهم لا يعرفون بوضوح التحديات التي تواجهها وتضيق بها بالفعل . الروحانية لا تواجه تحدي القيم المادية فقط ، الروحانية مواجهة كذلك بقلة المعرفة وبالغرور المفرط للملتزمين بها . ويدون مواجهة هذا الواقع ، فإن مهمة الدفاع عن القيم الروحية ستظل مهمة فاقعة الصعوبة .

الفَصَالُ الْمَتَاسِعُ

جَمَاعَاتُ الصَّفْغَطِ فِي دُولَةِ دِيمُقْرَاطِيَّةٍ

يوجد في كل مجتمع جماعات بعینها تحاول دفع أفكارها عن طريق الحكومة الموجودة في السلطة ، هذه الجماعات تسمى جماعات الضغط ؛ لأنها تحاول بكل قوة أن تفرض أفكارها على الحكومة بمختلف الطرق سواء أكان ذلك بشكل منظم أم غير منظم . معظم هذه الجماعات لا يضر منها ، بل من الممكن أن تكون مفيدة ، إلا أن هناك جماعات ضغط يمكن أن يكون لها تأثير عكسي على الحكومة أو الدولة .

وجماعات الضغط موجودة بكثرة في المجتمع الديمقراطي ؛ حيث إنها عادة ما تمارس عملها في «ردهات» المجالس التشريعية ، ولما كانت كلمة «ردهة» تعنى Lobby بالإنجليزية (وهى أيضا فعل (V) إلى جانب كونها اسمـا (N)) . أصبح يوصف نشاط هذه الجماعات بأنه Lobbying ، وأصبح ذلك العمل جزءا لا يتجزأ من النظام الديمقراطي (٤) ولكن بعض تلك الجماعات ، في الفترة الأخيرة ، لم تعد تكتفى بذلك كأسلوب للعمل ؛ إذ إنها تزيد أن يكون لوجهها نظرها سيادة على أفكار مثل الشعب والحكومة ، بصرف النظر عمـا إذا كانوا موافقين عليها أو غير موافقين .

الديمقراطية تسترشد بأراء وإجماع الأغلبية ، بينما جماعات الضغط أقلية ، وبناء عليه يتضح أن جماعة الضغط لا تأثير لها خارج ردهات المجالس التشريعية ، إلا إذا استخدمت أسلحة غير ديمقراطية .

أحد الأسلحة التي تعتبر مؤثرة في العصر الحديث هي التظاهر ، الذي كان وسيلة سلمية في البداية ، فبإذن من السلطات كانت تنظم المسيرات التي يرفع المشاركون فيها

* محاولة التأثير على الأعضاء لكسب التأييد أو الدعم لمشروع قانون ما (المترجم) .

لافتات تحمل شعارات يرددونها . في اليابان ، تظاهر الطلبة بقيامهم برقصة الشعبان - مشكلين أربعة صفوف أو خمسة وهم يرقصون مقلدين حركة الشعبان . الحكومة نفسها قد تلجم أحياً للتظاهر بفرض إظهار التأييد الشعبي لسياسة ما . كان «سوكارنو» يقوم بمظاهرات كثيرة دعماً لسياسة المواجهة التي كان يتوجهها ، وذات مرة تحولت إحدى تلك المظاهرات إلى أعمال تخريب ، عندما أشعل المتظاهرون النار في مباني السفارات الأجنبية في جاكارتا .

وفي الولايات المتحدة ، استخدم الطلبة وغيرهم من الشباب المظاهرات ضد حرب فيتنام ، لكن لا يكونوا من ضحاياها . كانت الولايات المتحدة معتادة على كسب الحروب بسرعة ، ولكن بعد تورطها العدة سنوات في فيتنام ، كان من الواضح أن الانتصار قد أصبح بعيد المثال ، وأن الشباب الأمريكي قادر على الاعتراف بأمانة بأنه أجيئ من أن يذهب إلى الحرب ، فحاولوا أن يظهروا أنهم يفعلون ذلك بدافع من الإشراق على الشيitamيين الذين تذبحهم القوة العسكرية الأمريكية . وبلغت التظاهرات ذروتها بإحراق بطاقات التجنيد لكي يتعرّج تسجيلهم للخدمة العسكرية . كان ذلك هو الدافع الحقيقي ، وفي النهاية استطاعوا أن يجبروا الحكومة على تخفيض المشاركة الأمريكية في فيتنام ، الأمر الذي أدى إلى هزيمة فيتنام الجنوبية .

ما زال الشيitamيون يعانون من آثار الحرب ، لكن الشباب الأمريكي فقد الاهتمام بذلك ، وبعد أن حققوا أهدافهم أصبحوا يركزون على دراستهم لكي يومئذاً لأنفسهم ولبلادهم مستقبلاً أفضل ، والواضح أن تلك المظاهرات لم يكن دافعها العطف ، وإنما المصلحة الشخصية .

و بالرغم من أن قوة الطلبة لم تعد مستخدمة في الولايات المتحدة ، إلا أن النظر إلى الطلبة باعتبارهم جماعة ضغط ، أصبح حقيقة مقبولة ، يقلدها ويمارسها الطلبة في الدول الأخرى . في فرنسا ، وفي غيرها من الدول الأوروبية ، يقوم الطلبة باستمرار بدور جماعة

الضغط ، ولكن أهدافهم عادةً ما تكون محدودة ولا تتضمن الاستيلاء على السلطة أو إسقاط الحكومة القائمة . وفي الشرق ، ييدو أن فعاليتها باعتبارها جماعة ضغط قد تأكّدت بسقوط «سوكارنو» في إندونيسيا و «ثانوم كيتيكا كورن» في تايلاند . نجاح الطلبة الإندونيسيين والتايلانديين شجع غيرهم على العمل كجماعات ضغط ، مستخدمين الظاهر وسيلة سياسية .

وفي بلد تصبح فيه الحكومة فاسدة وردية لدرجة تدمير الشعب والبلاد ، ربما يكون للتظاهر مكان ، حتى وإن حدث ذلك فإن الدراسة المتألقة سوف تدلنا على أنه حتى في حال تغيير الحكومة عن طريق التظاهر ، فإنه لن يكون من السهل القضاء على الفساد وعدم الكفاءة . من ناحية أخرى فإن استخدام التظاهر كوسيلة ضغط في الدول التي تكون حُوكِماتًّاً بعد ما تكون عن الفساد والرداة ، فإنه لن يسفر سوى عن زيادة الأمور تردياً . وسواءً كانت التظاهرات مسموحاً بها قانونياً أم غير مسموح ، فالنتيجة واحدة ، وهي تدمير حكم القانون وإشاعة الفوضى ، كما يمكن التدليل على ذلك بتتبع تاريخ التظاهرات الطالية في ماليزيا من البداية ، وكذلك مسارها المنطقى إلى النهاية . بدءاً بالمتديلات والخوارارات بارزة ، ومسيرات واجتماعات جماهيرية في الحرم الجامعى ، ثم خارج الحرم الجامعى ، وقاتل مع رجال الشرطة ، واللجوء إلى العنف وتكميم الألسن .

لم يكن هناك أي مشكلة في إيجاد سبب للتظاهرات . يمكن أن يكون السبب هو اختيارات نائب رئيس الجامعة ، أو موقع جامعي آخر ، أو رسم ب أحد القيادات الطالية في الامتحانات ، أو الاعتراض على سلم الرواتب في التوظيف بعد التخرج . . . أو أي مشكلة جامعية أخرى ، ثم تحول السبب إلى «الموت جوعاً» ثم ضد التعيين في مناصب مهمة ، ثم بسبب الفقر وتأمين التجارة والفساد . . . وهلم جرا . وعندما تحدثت الحكومة إجراء تحول

الظاهر ليكون بسبب إجراءات الشرطة والقبض على زعامات والاتهامات الموجهة إلى الطلبة ، كما قامت تظاهرات أيضًا ضد استخدام وحدة الاحتياط الفيدرالية ، وبعد استبدالها بالقوات الميدانية أصبح ذلك سببًا آخر للظاهر ؛ فإذا دخلت الشرطة الحرم الجامعي يقال إن ذلك استفزاز وإحداث تظاهرات ، وإذا خرجت الشرطة من الحرم الجامعي تواصلت التظاهرات . والواضح أن أي شيء يمكن أن يستخدم ذريعة للظاهر . لم يكن السبب هو المهم ، وإنما المهم هو استعراض القوة .

هل يمكن أن توقف التظاهرات لو أرخت الحكومة قبضتها؟ الإجابة هي أنه عندما تخضع الحكومة لطلاب المتظاهرين فسوف يتبعها تظاهرات أكبر ، لأن الظاهر بسبب تعيين نائب لرئيس الجامعة تم الاستجابة له ، كانت هناك تظاهرات أوسع من أجل أشياء أخرى ... حتى سلم الرواتب قبل أن يتخرج الطلبة في الجامعة ، «الجوع» و«الشعر الطويل» ، ولو أن تظاهرات «الجوع» نجمت ، فلاشك في أن الطلبة كانوا سيقومون بتظاهرات أوسع . مشاركـات سكان الأحياء الفقيرة في كوالالمبور وكـيـداـه جـعـلـتـ سـيـطـرـةـ الشرـطـةـ عـلـىـ التـظـاهـرـاتـ أـمـرـاـ بـالـغـ الصـعـوـدـةـ .ـ فـيـ كـيـداـهـ ،ـ نـهـيـتـ الـحـالـ ،ـ وـاسـتـخـدـمـتـ الأـسـلـحةـ ،ـ وـامـتـهـنـ عـلـمـ الدـوـلـةـ ،ـ وـتـمـ اـحـتـالـ المـكـاتـبـ وـمـسـاـكـنـ كـبـارـ الـمـوـظـفـينـ .ـ حـتـىـ مـاطـبـيـخـ تـهـيـبـهاـ .ـ كـمـأـنـ اـسـتـخـدـمـ الـأـطـفـالـ دـرـوـعـ بـشـرـيـةـ جـعـلـ الـأـمـرـ أـكـثـرـ صـعـوـدـةـ بـالـسـبـبـ لـلـشـرـطـةـ لـكـيـ تـحـافـظـ عـلـىـ الـأـمـنـ ؛ـ فـالـهـجـومـ عـلـىـ الـأـطـفـالـ يـكـنـ أـنـ يـشـعـلـ الـزـيـدـ مـنـ الغـصـبـ ،ـ وـعـدـمـ الـهـجـومـ سـيـزـدـيـ إـلـىـ مـزـدـ منـ العنـفـ خـلـفـ خطـ الـأـطـفـالـ الـأـمـامـيـ .ـ

بـمـجـرـدـ أـنـ تـرـسـخـ لـدـىـ النـاسـ فـكـرـةـ أـنـ يـكـنـهـ الـهـرـوبـ بـأـفـعـالـهـ الـإـجـرامـيـةـ ،ـ وـفـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ يـجـعـلـونـ الـحـكـومـةـ تـسـتـجـيبـ لـطـالـبـهـمـ ،ـ فـانـ جـمـاعـةـ بـعـدـ أـخـرـىـ سـوـفـ تـلـجـأـ إـلـىـ الـتـظـاهـرـ :ـ الـمـوـظـفـونـ .ـ الـعـمـالـ .ـ الـأـحـزـابـ الـسـيـاسـيـةـ .ـ هـؤـلـاءـ كـلـهـمـ جـمـاعـاتـ يـكـنـ أـنـ تـلـجـأـ إـلـىـ الـتـظـاهـرـ مـنـ أـجـلـ مـصـالـحـهـاـ الـخـاصـةـ ،ـ وـقـدـ تـظـاهـرـ عـدـةـ جـمـاعـاتـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ مـاـ يـزـدـ الـأـمـرـ تـعـقـيـداـ بـالـنـسـبـةـ لـلـشـرـطـةـ لـكـيـ تـعـامـلـ مـعـ الـمـوـقـعـ .ـ

والظاهرات لن تكون مقصورة على المدنين؛ ففي كثير من الدول تلجم الشرطة والقوات المسلحة أحياناً إلى التظاهر، وعندما يحدث ذلك يختفي النظام، والدولة التي لا يوجد بها نظام أو اضطراب لا يمكن أن تعرف الأمان أو الطمأنينة. الفوضى تعم، وعندما تعم الفوضى لن يكون هناك ضمان لأنّ أو سلاماً أحد، مستباح تلك مسؤولية كل على حدة.

ونحن في ماليزيا مبالغون دائمًا للاعتقاد بأن ما يحدث في دولة أخرى لا يمكن أن يحدث لدينا . قبل عشر سنوات تقريراً، لم نكن نتصور أن التظاهرات الطلابية يمكن أن تحدث هنا . قبل عشر سنوات لم نكن تصور أو تخيل - ولافي الأحلام - أن أمورا مثل تعاطي المخدرات وثقافة الهبيز واستخدام الإسلام لحساب الشيوعية . . . وغير ذلك من المظاهر ، لم نكن نتصور أن ذلك يمكن أن يكون له وجود في بلادنا ولكن ذلك كله جاء ، ولا يمكن أن يقول أحد إننا نرى الغوضي ونخطم حكم القانون في هذا البلد .

من هنا ، لابد من أن تراقب الحكومة ، وأن ترصد نشاط جماعات الضغط ، والأمم من ذلك أن يكون الشعب يقظاً . إن قيام وسقوط نظام حكم يتضمن مجموعة صغيرة من الناس فقط ، ولكن إذا تركت جماعات الضغط للتمادي في تحدي القوانين وأالية سلطة الحكومة ، وخلق حالة من الغوضى ، فإن الكل سوف يعاني ، ولن يكون هناك خروج من الغوضى ولا عودة إلى الأمن والنظام .

ولسوف تتوالى أشكال صراع القوى ، ولو حدث ذلك سيكون الحلم بعودة حالة الهدوء السابقة قد ولد زمنه .

إن جماعات الضغط لا دور لها حتى ، ولكن هناك خطورة- شأن كل الأسلحة- في استخدامها .

الفصل العاشر

تأميم الصناعات الأجنبية

تأميم الصناعات والأصول الأجنبية هو أحد الإجراءات التي تخذلها عادة الدول المستقلة حديثاً . يحدث ذلك لإثبات أن الاستقلال والحرية اللذين تم تحقيقهما أصبحا واقعاً ، وأن أحداً لا يستطيع أن ينتهي الدولة المستقلة حديثاً عن فعل ما ت يريد . وقد يحدث ذلك أيضاً بداعٍ من رغبة حقيقة لتحرير الاقتصاد من القيود الأجنبية ، والاعتقاد العام هو أن أرباح الصناعات الأجنبية سوف تعود إلى الدولة التي أهنتها ، كما أن أحداً لا يمكن أن ينكر أن تلك خطوة شعبية أو أن الحكومة التي تلجم إليها سوف تحصل على إعجاب الشعب الفرج باستقلاله الجديد .

وفي فورة تحقيق الاستقلال والاستيلاء على الأصول والصناعات الاستعمارية ، نادرًا ما يدرس أحد أو يناقش الصحيح المؤيدة أو المعارضة للتأميم ، وأى شخص يفت الاكتفاء إلى عيوب محتملة سوف يعتبر صوتاً ناشزاً ، وسيجلب لنفسه الأذى ، ولذا نادرًا ما يجرؤ أحد على الكلام ضد الاستيلاء على المؤسسات التجارية والصناعية الأجنبية .

ويصرف النظر عن أن فكرة الاستقلال والسيادة الوطنية لابد من أن ترافق السيطرة على كل الصناعات الأجنبية ، إلا أن تأميم الصناعات مفهوم اشتراكي يتم التباين به ، للدرجة أنه يتم تطبيقه ليس في الدول المستقلة حديثاً فقط ، وإنما في الدول التي لم يسبق أن احتلت أيضاً . عندما شكل حزب العمال البريطاني الحكومة ، قام بتأميم السكك الحديدية ومناجم الفحم وصناعات الصلب التي كانت مملوكة لشركات خاصة ، أصحابها مواطنون بريطانيون . حدث ذلك استجابة لمبدأ اشتراكي بفرض تحقيق مساواة في الدخل وفرض «العدل» .

وبالرغم من أن التأمين في ماليزيا المستقلة ليس سياسة ولا طموحاً حكومياً ، إلا أن هناك كلاماً كثيراً عنه ، ولا يعدم الحصول على تأييد مجموعة أخرى من الشعب . معظم الناس يعتقدون أن الاستيلاء على صناعات أجنبية سوف يسفر عن عودة الأرباح والفوائد للدولة ، كما يعتقد عدد كبير أن الصناعة عندما تؤمن تصبح ملكية للعمال الذين سيحصلون على الثروة التي كانت تذهب إلى أصحاب العمل الأجانب .

وفي الفترة الأخيرة ، عاد موضوع تأمين الصناعات إلى النقاش مجدداً . وبعض الجماعات حرّضو على ذلك ؛ للدرجة أنهم مستعدون للتعاون مع أولئك الذين يعملون كواجهة للفكرة الشيوعية ، وينكرون أن خطوة كتلك من شأنها أن تخرّب اقتصاد دولة وتسفر عن وضع سياسي يؤدي إلى نجاح الحركة الشيوعية . إن حلم الثراء عن طريق التملك يستحوذ عليهم ؛ للدرجة أنهم يتوجهون مثل ذلك الأسلوب في الدول الأخرى ، ويغمضون عيونهم عن تلك الحقائق في غمرة افتراضهم بما يبذلو طريقاً سهلاً نحو الثروة ، وحيث إن التأمين يتضمن كل ما هو مؤثر على الناس ، ينبغي دراسته وتحليله بشكل علني وصريح . لابد من أن يعرف الشعب مزايا وعيوب خطوة كتلك لكي يتفق على موقف إزاء هذا الأمر .

إن أي مشروع تجاري أو صناعي لا ينجح لمجرد وجود رأس المال وتحطيم ؛ فلو أن شخصاً ما لديه رأس مال مثلاً وفتح محل خردوات في قرية صغيرة ، فهو لا يمكن أن يكون متاكداً من أنه سوف يحقق ربحاً من ورائه . كثيرون من فتحوا محلات كتلك يشهدون على صحة ذلك . النجاح يتحقق فقط إذا كان صاحب العمل يعرف تعقدات تجارة التجزئة ، وما هرافي الحاسبة والإمداد وفن البيع . نجاح العمل التجاري ، باختصار ، يعتمد - إلى حد كبير - على المهارة في هذا المجال .

الشركات التجارية الأكثر تعقيداً والأكبر حجماً ، مثل تلك التي تشمل مصانع وأنشطة تصدير واستيراد ووكالات توزيع وأسواق عبر البحار وما شابه ذلك ، تحتاج إلى

مهارة أكبر وخبرة فنية وشخصية مناسبة . بدون المهارة والخبرة الفنية لا يتحقق العمل التجارى ربحا . وزيادة المبيعات فى التجارة لا تعنى بالضرورة زيادة الربح ، بل على العكس ، مما تعنى زيادة فى الخسارة .

وعن دراسة بعض الحالات فى الدول الأخرى لإثبات صحة ذلك ؛ فقبل الحرب العالمية الثانية ، كانت صناعات الفحم والصلب من بين الصناعات الإنجليزية التى حققت أرباحا طائلة للمساهمين فى تلك الشركات . وقد صنعت تلك الصناعات عددا كبيرا من أصحاب الملايين البريطانيين ، وأدت إلى ازدهار بريطانيا ، وجعلت منها دولة صناعية مرمودة .

عندما رأت حكومة حزب العمال المكافحة التى يحصل عليها رجال الصناعة ، قامت بتأميم الصناعات مع تأييد كامل من العمال على وجه المخصوص . كانت الحكومة والعمال يعتقدون أنه عن طريق تأميم تلك الصناعات ، سوف تعود الفائدة إلى الدولة ، وأنها سوف تستخدم لصالح العمال ، والشعب بوجه عام .

وقد أثبت التاريخ أن الصناعات قد لقيت خسائر فادحة بعد وقت قصير جدا . الأغرب من ذلك أن العمال الذين كانوا سعداء باستيلاء الحكومة على الصناعة لم يعتبروها صاحب عمل جيد ، بل كان رأيهم أنها - الحكومة - أسوأ من صاحب العمل ، الرأسمالي القديم .

كانت هناك إضرابات كل عام ، ولم تكن الصناعة تحقق ربحا ، كما كانت الإضرابات متواصلة سواه ، وكان الموجود في السلطة حكومة للعمال أم للمحافظين . وكانت الأضرابات تحدث في أوقات حرجة ؛ إذ إن العمال كانوا يضربون عادة في الشتاء ، لكنه يتعرض حياة كثير من الأبراء للخطر ، وتم الاستجابة لطلابهم على وجه السرعة . وبعد أن كانت الحكومة قد حصلت على عائد كبير عن طريق الضرائب التي تفرضها على الصناعة ، إلا أنها لم تعد قادرة على ذلك مرة أخرى ، بعد أن أصبحت الصناعة خاسرة ، بل إن

الحكومة كان عليها أن تدعمها الكى تظل مستمرة . وبالرغم من خسائرها ، إلا أن الحكومة لم تكن تستطيع أن تفلتها لأن العواقب كان يمكن أن تكون أكثر سوءا ، كما أن خطوة كتلك ، كان يمكن أن ينجم عنها نقص في الفحم والصلب ؛ مما يؤثر على الصناعات الأخرى ، بالإضافة إلى البطالة التي ستكون عبئا على الحكومة . وهكذا لم يكن أمامها سوى أن تدعم تلك الصناعات بواسطة الضرائب التي تجمعها من الصناعات التي لم تكن قد أدمتها بعد .

وفي بريطانيا ، تستطيع الحكومة أن تدعم الصناعات الموزعة ؛ حيث إنه مازالت هناك صناعات خاصة تحمل أرباحاً وتدفع الضرائب . ولو كانت كل الصناعات قد أدمت وتوقفت عن تحقيق الربح ، لما كان عند الحكومة عائد كافٍ من الضرائب يمكنها من تقديم مثل ذلك الدعم .

وبالإضافة إلى احتمال أن تخسر كل الصناعات الموزعة ، فإن التأمين الذي يشمل كل الصناعات في حد ذاته كفيل بأن يعوق نجاح التجارة ؛ فلو أن الحكومة أدمت كل المصانع التي تتبع القمchanan مثلًا ، طبقاً للنظرية الشيوعية ، فسوف يرتفع ثمن القمchanan ؛ لأن الهدف من التأمين هو أن تعود الفائدة على العمال . وبالرغم من أن الحكومة قد لا ترغب في زيادة الرواتب ، إلا أن العمال سوف يضطرونها لذلك عن طريق الإضراب كل عام .

وعما أنه لن يكون هناك وجود للأغنياء في دولة اشتراكية بالكامل ، فلا بد من أن تكون القمchanan التي يتم إنتاجها من النوع الذي يمكن أن يقدر العمال على شرائه ، ولكن نتيجة لتكلفة الإنتاج المرتفعة ، وأسعار البيع المتداينة ، فإن أرباح القمchanan ستكون منخفضة وربما معروفة . الأرباح ضرورية في العمل التجاري ليس مجرد إثراه ، بل إنها توجه عادة نحو دفع الضرائب والاستثمار لزيادة حجم العمل نفسه أو لبدء أنشطة تجارية جديدة . الحكومة في حاجة إلى الضرائب لتمويل الإدارة وغيرها من الالتزامات ، والاستثمار من أجل زيادة حجم العمل التجاري أمر مهم ؛ حيث إن الطلب على المنتجات يتزايد ، والحكومة باعتبارها

صاحب عمل لا يكفيها أن تلافي زيادة الإنتاج؛ لأن بصرف النظر عن الزيادة في الطلب، هناك مشكلة إيجاد فرص عمل جديدة. ولو تم تأميم كل الصناعات وأصبح الكل يواجه المشكلات نفسها، فلربما عجزت الحكومة عن تحمل هذا العبء. مع الرواتب المرتفعة، والأرباح المنخفضة، وال الحاجة إلى زيادة حجم الصناعات وبناء صناعات جديدة، واحتياج الحكومة إلى ضرائب أو جزء من أرباح الصناعة كصاحب عمل، من أجل تمويل خدمات اجتماعية كثيرة مثل التعليم والصحة والأمن والاتصالات وغيرها.. في وجود ذلك كله، من المؤكد أن الحكومة لن تكون قادرة على إدارة شئون البلاد أو المحافظة عليها.

وخلال مشكلة نقص الاعتمادات المالية الازمة للإدارة، قد تلجأ الحكومة إلى فرض ضريبة على الدخل. ومرة أخرى، إذاً يكن هناك وجود للتجارة أو الصناعة الخاصة، فلن يكون هناك تجارة أو رجال صناعة أغبياء سيكون هناك العمال فقط لكي تجمع منهم الضريبة. وإذا كان على العمال أن يدفعوا ضرائب، بصرف النظر عن سخف ذلك، فإن الرواتب العالية التي ترفقها الحكومة لعمالها ستكون عدالة القيمة مادامت الحكومة تسترد نصفها تقريباً منهم. وهذا ما حدث في بريطانيا، العمال يضطرون للحصول على أجور أعلى، تسترد الحكومة نصفها (٦٠٪) على هيئة ضرائب مختلفة. يمكن أن يكون من الأفضل دفع أجور منخفضة دون دفع ضرائب؛ حيث إن النتيجة ستكون واحدة؛ بمعنى أن الأرباح التي تحصل عليها الحكومة ستكون بمقدار الضرائب التي تجمعها من العمال الذين تدفع لهم رواتب عالية. الرواتب العالية ليست عالية حقيقة، ما دام هناك ضرائب لا بد من أن تدفع، ولا معنى للإضراب من أجل زيادة الأجور لكي تدفع هذه الزيادة على هيئة ضرائب.

إن الأيديولوجية الاشتراكية لا يمكن تطبيقها بالكامل في أي مكان؛ لأن تأميم كل الصناعات والشركات التجارية - في الحقيقة - لن يضعف اقتصاد الدولة فقط، بل إنه سوف يؤثر كذلك على إنتاج سلع كثيرة أساسية. التأميم يمكن بشرط أن يكون مقصوراً

على عدد من الشركات الصناعية والتجارية المهمة . إن قدرًا كبيراً من الصناعة والتجارة في الدولة الاشتراكية لابد من أن يكون في يد القطاع الخاص لكي يتم فرض ضرائب على أرباحها لمساعدة الصناعات الوطنية ؛ أى أن المبادئ الاشتراكية لا يمكن أن تطبق إلا إذا كان هناك مؤسسات خاصة . الاشتراكية التي تعتمد على الرأسمالية ادعاء كاذب .

الصناعات المؤعة لا تواجه خسائر دائمًا ؛ فالصناعات البترولية المؤعة مثلاً تحقق للدول المعنية أرباحاً هائلة ، ولكن ذلك لأن هناك دول رأسمالية تمارس الاقتصاد الحر وتحتاج إلى استهلاك كميات ضخمة من البترول . ولو أن المعروض من البترول قد زاد عن الطلب ، وكانت القصة مختلفة . الدولة المنتجة للبترول لا يمكن أن تصبح غنية اعتماداً على السوق المحلي وحدها ، والدول التي تدير صناعات بترولية مؤعة تعتمد على أسواق في دول لا تطبق المبادئ الاشتراكية .

مرة أخرى نقول إن الاشتراكية والتأمين لا يمكن أن تنجح مع وجود الرأسمالية ، والواقع أن تأمين الصناعات على أساس من مبدأ أو أيديولوجية دون دراسة للعواقب الترتبة على ذلك سيكون عملاً بلا جدوى .

هذه الأمثلة ربما يرد عليها بالقول إن الدول الشيوعية تؤمن الصناعات كلها ، وبالرغم من ذلك فإن الاتحاد السوفييتي مثلاً يظل دولة قوية ، ويإمكانه أن يصبح قوة عالمية توزع المساعدات على الدول الأخرى ، والشيء نفسه يمكن أن يقال عن جمهورية الصين الشعبية .

إننا لا يمكن أن ننكر أنه بإمكان دولة شيوعية أن تؤمن الصناعة دون أن يؤثر ذلك على الاقتصاد القومي ، إلا أن العامل الحاسم في تجاحها ليس هو التأمين ، وإنما نظام الحكم الدكتاتوري الذي لا يسمح بالظاهرات ولا بأى شكل من أشكال المعارضة . والحكومة بسلطتها المطلقة ، تدفع للعمال أجوراً منخفضة ، وتذكر عليهم نصيباً من ثروة البلاد . هذه الثروة ، إلى جانب ناخج جهة العمال ، تستولى عليها الحكومة لصيانته الآلة التي تقيد حرية

الناس وللاتفاق على القوات المسلحة . وسواء أكانت الحكومة شعبية أم غير شعبية ، عادلة أم مستبدة ، فإن الشعب لا يملك حق معارضتها أو تغييرها .

في نظام كهذا ، نجد أن النخبة المنتمة تضم زعماء الحزب الحاكم وقطاعاً صغيراً من الناس الذين هم أعضاء في الحزب الشيوعي ، ومعنى ذلك أن أقلية هي التي تفرض إرادتها على الأغلبية ، ولو كان أغلبية الناس سعداء باستبعادهم ، لكن من الممكن أن تنجح سياسة تأمين الصناعة ، إلا أن الناس لا يمكن أن يحصلوا على الآتين معاً : الرفاهية والتأمين .

قد ينجح التأمين في دولة غير شيوعية لو أن كل العمال كانوا مستعدين لقبول وضع يحصلون فيه على أجور منخفضة ، وحيث لا يمكنهم الإضراب ولا يمكنون حرية تغيير وظائفهم ولا يستجوبون أصحاب العمل الذين يعملون لديهم (الحكومة) ، وعندما لا يكونون ميسرين ولا يستطيعون شراء الكمالات مثل الدراجات البخارية أو أجهزة التليفزيون أو السيارات أو الملابس الفاخرة ، ولا يستطيعون الانضمام إلى حزب أو تأييد أي حزب سوى الحزب الحاكم . . . إلخ .

لو طبق مثل هذا النظام في ماليزيا ، فلابد من أن يقنع عمالنا ويرضون بالأجور المتدنية ، وينبغي ألا يلجأوا إلى الإضراب العام ، وألا تكون لهم مطالب من أي نوع . أما من الناحية السياسية فسوف يكون مسمواً للحزب واحد فقط بالعمل ، وفي الانتخابات سيحصل هذا الحزب على نسبة ٩٩٪ من الأصوات . زعماء الحزب الذين سيشغلون المناصب المهمة سوف يعيشون في رغد . الشروط الناتجة عن جهد العمال سوف تؤول إلى الحكومة لتعلن بها ما تشاء ، الجزء الرئيسي منها سوف يوجه إلى التواحى التي تعززبقاء الحكومة في السلطة . وباختصار ، إذا كانت ماليزيا ت يريد أن تؤمن الصناعات كلها فلابد من أن يتحول نظامها السياسي إلى دكتاتورية .

بدون دكتاتورية أو نظام شيوعي فإن تأمين الصناعة ، وخاصة في ماليزيا ، من المحم أن يسبب تدهوراً اقتصادياً ، والسبب بسيط : الماط والقصدير والأخشاب ليست بأهمية

البترول ، وإذا هبطت أسعار هذه السلع فلابد من أن الصناعة سوف تعانى من جراء ذلك ، بينما إذا زاد الإنتاج وارتفعت الأسعار فإن الدول المستهلكة (كل الدول الرأسمالية) سوف تستخدم مواد بديلة ، وبالتالي فإن الأسعار سوف تنخفض ، وفي الحالتين سيتأثر الاقتصاد الماليزى على نحو سلبى .

الصناعات المتقدمة تتطلب مهارات فنية ، السلع الإلكترونية والآلات والأقمشة وغيرها من السلع المصنعة لاتتج في ماليزيا ، ونحن في حاجة إلى المهارة الفنية الموجودة لدى الدول الأخرى والرأسمالية منها وخاصة . هذه المهارة يمكن الحصول عليها بالرغم من ارتفاع الثمن ، لكن الأساليب والنظم والتصميمات تتغير مع التحديث المستمر . المهارة الفنية لا فائدة ترجى منها إذا كانت قديمة ، ولذلك فإن الصناعات المؤمة في حاجة باستمرار لزيادة رأس المالها إن كان لها أن تتجدد ، وهذا لا يمكن تحقيقه لأن الصناعات المؤمة - كما سبق أنينا - لا تحقق أرباحا كثيرة .

في ماليزيا ، تم تأمين مؤسسات تجارية مختلفة مثل السكة الحديد والمخطوط الجوية الماليزية وهيئة الكهرباء ومؤسسات أخرى مثل «برناس» و«برتوناس» والصناعات الموجودة في إطار مؤسسات التنمية الاقتصادية المملوكة للدولة مثل «مراسي» و«فاما» و«فيماسا» و«فييلدا» وغيرها . هذه المؤسسات المملوكة للدولة لديها رأس المال كاف ، والصناعات التي تتوجه قابلة للازدهار ، بل إنها أحياناً تقتل احتكارا ، أى أنها مقتصورة عليها ، وبالرغم من ذلك نادرًا ما نسمع عن تحقيق أرباح جيدة أو عن عائد كبير من الضرائب .

ما نعرفه هو أن السكة الحديد وصناعة تعليب الأثاث والصناعات أخرى عديدة تخسر ملايين الدولارات كل عام ، وبخسارتنا الشك في وجود نقص في الكفاءة والبراعة الإدارية . وأيا كان السبب ، فمن الواضح أن تأمين التجارة في ماليزيا لن يكون مفيدا ، بل على العكس هناك احتمال كبير أن يحدث انهيار اقتصادي .

وأخيراً هناك الدافعية . التجارة تنمو بسبب دافع أو حافز الربح . في الصناعات المؤمة

لن يكون لدى المرأة دافع للربح ،سواء ربحت الصناعة أو خسرت فلن يتغير شيء في دخل المرأة ، وهو لن يتغير لأن التأمين وسيلة اشتراكية لمساواة دخول العاملين ، والتأمين لن يكون ذا معنى لو أن المرأة حصلوا على رواتب أو أجور أعلى من رواتب وأجور العاملين الآخرين ؛ لأن ذلك يضع نهاية للحافز وبالتالي للنجاح التجاري . بدون حافز قوى وداعم قوى لا بد من أن يفشل العمل التجاري أو الصناعي .

ذلك كله يبين لنا أن تأمين الصناعة ليس أمرا سهلا ، ومن المحموم جدا أن يثبت عدم صلاحيته . بيد أن هذه الصورة ليست دقيقة تماما الدقة . هناك صناعات لا بد من أن تؤمن ، فالبترول مثلا سلعة حيوية اليوم ، والخبرة الفنية ورأس المال والمهارة الإدارية يمكن الحصول عليها بالرغم من التأمين الجزئي لهذه الصناعة . الشيء نفسه ينطبق على الاتصالات والكهرباء والسكك الحديدية والطيران والصناعات التي يمكن احتكارها . في هذه الأحوال لا يجب أن يكون الهم الرئيسي هو الربح ، بل المصلحة الوطنية ، وخاصة في أوقات الطوارئ مثل الحروب .

ومن وجهة نظر عملية ، لو أتناقمنا بتأمين أي نشاط مثل إدارة العقارات أو الاستيراد والتصدير والتوزيع وتوكيلات الواردات المختلفة وتوكيلات المشتريات للتجارة الخارجية . . . إلخ ، فإن أول مشكلة ستكون هي دراسة وفهم كل مجالات العمل في هذا النشاط التجاري . هناك نقص باستمرار في الموظفين الحكوميين ، وهناك عجز دائما في الإدارات القانونية ، ولذلك ليس من السهل شغل المناصب المهمة في الصناعات المؤلمة ، حتى لو شغلنا تلك المناصب فإن النجاح ليس مضمونا . وإذا كانت الأجهزة والإدارات القائمة من سنوات مازالت عاجزة عن تحقيق أرباح كبيرة أو أن تساهم في تحقيق عائدات الدولة عن طريق الضرائب ، فمن المستحيل القول ما إذا كان بالإمكان الحفاظ على الأرباح الناجمة عن التأمين ، وخاصة في الصناعات الصعب إدارتها . إن خبرتنا توضح أن التجارة المعنية تتدحرج ، وأن الخسائر مستمرة .

وهناك فئة من الناس مفهومهم عن التأمين هو أن تقوم الحكومة بالاستيلاء على الصناعة أو التجارة دون تعويض أصحابها ، وهذا وهم . إذا لم تدفع تعويضات فيمكن أن تفرض الشركات المملوكة للأجانب عقوبات على الحكومة عن طريق حكماتها وعن طريق العلاقات التجارية ، الأمر الذي يمكن أي خرب التجارة ، وخاصة إذا كانت تتضمن سلعة أساسية يوجد بديل لها ، وبالتالي ليست ذات أهمية كبيرة .

إن الحكومة الماليزية عليها أن تتفق سنويًا ما بين ٦٠٠٠ مليون إلى ٧٠٠٠ مليون دولار على الإدارة والتطوير ، ومعظم هذا المبلغ يأتي منضرائب على الشركات الصناعية والتجارية . ومن البديهي أن هذه الشركات لو أمنت ، وبالتالي حققت خسائر ، فلن تستطيع الحكومة أن يكون لديها ميزانية ، بل إنها أيضًا لن تجد ما يكفي لدفع تعويضات ، وسيكون عليها أن تستبدل ما تحصله من ضرائب لوقف التدهور أو الفشل في الشركات المؤمدة .

ولو أن العمال في وضع كهذا طالبوا بأجر أعلى ، ولجأوا إلى الإضراب عن العمل لعدم تنفيذ مطالبهم فإن المشكلة سوف تتفاقم الصناعات الوطنية مثل السكة الحديد والخطوط الجوية الماليزية والهيئة القومية للكهرباء تعرضت لإضرابات العمال أكثر من مرة ، وليس هناك ما يمنع العمال في غيرها من الصناعات المؤمدة من الإضراب ، ولم يحدث أن منصب الخسائر العمال من المطالبة بأجر أعلى واللجوء إلى الأحزاب .

كل هذه المشكلات واجهتها كل الدول الديمقراطية التي اتخذت خطوة تأميم التجارة والصناعة . عوّاقب هذا العمل الشعبي والمعاطفي يمكن أن يشهدها كل مهمتهم بذلك ، قد يكون هناك من يشعر بأننا لابد من أن تكون مستعدين لمواجهة انهيار اقتصادي من أجل العدل والشعور بالرضا ، إلا أنه لن يكون هناك مثل هذا الشعور عندما تضطر في النهاية دولة تكون قد تصرفت بداع من العاطفة ، إلى أن ترسل رئيس وزارتها إلى الخارج كل عام ليطلب مساعدة دول تطبق النظام الرأسمالي الحر الذي تمقته .

هذه هي ورطة العديد من الدول النامية التي كانت تزهو ذات يوم باشتراكيتها ،

وبتأمين الصناعات الأجنبية ؛ فهي لا تجد لديها اليوم ما تباهى به سوى بعض الأبنية التي أهدتها إليها الدول الأخرى . ودون الإحسان الذي تقدمه الدول الأجنبية المهمة بذلك ، لما كان لدى تلك الدول النامية أي شيء تقدمه دليلاً على النجاح منذ أن استولت على الصناعات الأجنبية .

أما الأكثر خطورة فهو أن التدهور الاقتصادي سوف يسبب الفقر والمعاناة للغالبية من الشعب . وفي مناخ كهذا ، يصبح من السهل على أي شخص أن يفسد أخلاق الناس ويحدث القلق والاضطراب ، والمؤكد أن الشيوخ عينين سيكون لديهم فرصة أفضل للاستيلاء على السلطة ، وسواء نجحوا أو فشلوا ، فلسوف تغر البلاد بأوقات حالكة السوء شديدة الاضطراب ، ولن يكون معظم الناس غير قادرين على تحقيق مستويات معيشية متزايدة فقط ، بل إن أنفسهم سيكونون معرضًا للخطر ، ويكونون هم أنفسهم معرضين للظلم من قبل زعمائهم .

لقد قمت بهذا التحليل ؛ لأن الدعوة إلى تأمين الصناعات الأجنبية تحظى غالباً بتأييد عام . العواطف التي تولدها هذه الدعاوى يمكن بسهولة أن تطغى على أي تفكير عاقل ، وقبل الاستجابة لهذه الدعاوى ، لابد من أن يفهم شعب ماليزيا ، حيث ما زال الاقتصاد قوياً مقارنة ببعض الدول التي لا تنتهج سياسة الاقتصاد الحر ، ما ينطوي عليه تأمين الصناعات وعواقب ذلك .

الفصل الخامس عشر

الضماء والانضباط

منذ القرن الخامس عشر عندما أبحر فاسكودا جاما إلى الشرق الأقصى ، وإلى بداية القرن العشرين ، كان تاريخ آسيا مليئاً بعمليات الغزو واحتلال مناطق كثيرة منه بواسطة الدول الغربية . كل الدول الآسيوية تقريباً مرت بتجربة الغزو والاستعمار - تايلاند والصين واليابان كانت هي الاستثناء ، ولكن هذه الدول كان عليها أن تخضع للقوى الغربية إلى حد ما .

ويينما من الصحيح أن الاستعمار الغربي انتشر في تلك القرون في أرجاء العالم بما في ذلك أفريقيا وشمال وجنوب أمريكا ، إلا أن هناك فرقاً . كانت أفريقيا وأمريكا مسكونة بقبائل بدائية إلى حد ما (باستثناء الإنكا) ، بينما كانت شعوب آسيا قد عرفت الثقافة والنهضة والحضارة قبل الأوروبيين ، كما كانت أكثر عدداً ، وتشغل مساحات أوسع ، بل إن الأغرب من ذلك هو أن القوات الغربية التي قامت بغزو واحتلال الدول الآسيوية كانت صغيرة مقارنة بتلك الدول . ربما كانت فعالية الدول الغربية ترجع إلى تسليحها الأفضل ، إلا أن الدراسات سوف تثبت لنا أن السبب الأهم كان تنظيمها وانضباطها .

والمؤكد أنه بالرغم من وجود درجة من التنظيم في القوات المسلحة الشرقية ، إلا أنها كانت أقل تمسكاً وترتباً من الغربية ؛ فعلى سبيل المثال ، بالرغم من وجود جنرال أو قائد عسكري في الجيش الذي كان يدافع عن «مالقة» ضد البرتغاليين ، إلا أنه لم يكن هناك تسلسل قيادي بينه وبين الجنود . الجيوش الآسيوية كان يوجد بها جنرالات ولكن يبدو أنه لم يكن هناك مستويات أخرى من الضباط الأصغر لضمان وصول الأوامر إلى صفوف الجنود بدقة وفعالية .

الأوامر المباشرة من الجنرال أو القائد الأعلى قد تصلح لو أن القوة العسكرية كانت

صغريرة الحجم ، ولكن في حال وجود جيش كبير ، فإن مثل تلك الأوامر لن تصل إلى صفوف القوات والوحدات بدقة وفعالية في الوقت الذي يجعل العمل المنقى صعباً ورعاً مستحيلاً ؛ حيث إن الجيش الكبير لا يمكن أن يكون فعالاً دون وجود تنسيق بين وحداته .

وبالرغم من وجود ضباط كثيرين في الجيوش الآسيوية ، إلا أن مراكزهم ورتبهم ومسئوليّتهم لم تكن واضحة أو متسقة . كانت المراكز والرتب تختلف من مكان لأخر . لم يكن في حكومة «مالقة» في وقت الغزو البرتغالي شخص معين كقائد عام للجيش . السلطان والبنداهارا (رئيس الوزراء) والتيمجونج (وزير الداخلية أو قائد الشرطة) كانت لهما كل السلطة على القوات المسلحة بالإضافة إلى أن أبناء السلطان المختلفين كان لهم حق قيادة القوات بالرغم من أن مراكزهم لم تكن واضحة .

لم يكن هناك جنود انتظاميون في القوات المسلحة ، معظمهم كانوا أناساً يأمرهم الحاكم من وقت لآخر للمساعدة في الدفاع عن الدولة ، ولم يكن هناك أي نوع من التدريب باعتبارهم كانوا عسكرياً ولا في فكرة عن مراكزهم في القوات . لم يكن هناك رزي رسمي ، والكل كانوا يخوضون الحرب بنفس أسلوب المبارزة الفردية . وما يحكي عن معارك تلك الأيام المعايرة أن الجيوش كان يقودها المال والنموذج أكثر من الأوامر المحددة . عندما كان الجنود يرون قاددهم يتقدّم ، كانوا يفعلون مثله ، وعندما كان ينسحب ينسحبون ، وفي وضع مثل هذا كان موت القائد يعني الهزيمة بالرغم من ضخامة عدد القوات ، وبالرغم من أنها كانت قادرة على مواصلة القتال .

وفي «بالي» مثلاً حدث أن انتحر كل الجنود اتحاراً جماعياً (بويوتان) بعد أن مات أحد الملوك في قتال ضد الهولنديين ، بالرغم من أنهم كانوا مازالوا قادرين على مواصلة المعركة ، وبالرغم من أن بسالتهم لم تكن موضع شك .

على العكس من ذلك ، نجد أن القوات الغربية التي تحتل الدول الشرقية كانت جيدة التنظيم بالرغم من صغر حجمها . في الجيش الغربي عادة توجد وحدات صغيرة بقيادة

ضباط صغار ، وهذه الوحدات تكون وحدة أكبر تحت قيادة ضابط أكبر رتبة ، ثم تجد عدداً كبيراً من هذه الوحدات الأكبر يكون وحدة أكبر تحت قيادة قائد عام أو «جنرال» . وفي النهاية تجد جميع الجزر الالات والوحدات الموجودة تحت قيادتهم موضوعة كلها تحت قيادة رئيس للأركان يضمن أن تكون كل مراحل وخطوات الحرب منسقة حسب خطة استراتيجية شاملة مبنية بناء على معلومات من الاستخبارات العسكرية .

في القوات الغربية ، جميع المراكز والرتب محددة وثابتة ، وكذلك كل الواجبات والمسؤوليات ، وذلك بالإضافة إلى أن جميع الأفراد العسكريون انتظاميون يعملون كل الوقت ، وليسوا مجموعة من يتم تجنيدهم من وقت لآخر بشكل مؤقت ، كما كان يتم تدريسيهم على العمل كفريق واحد وليس كأفراد منفصلين ، كما كانت أساليب القتال باللغة التنظيم والتدریب عليها إجبارياً على كل المستويات . الأوامر تصدر من ضباط محددين وبعبارات وإشارات محددة تجنبها لسوء الفهم ولتلقي الارتكاك أثناء سير القتال . كان ذلك هو التنظيم الذي حقق النصر للقوات الغربية الصغيرة ، أي أن النظام هو الذي قام بالدور المؤثر بالدور المؤثر في نجاح القوات المسلحة الغربية .

إلى جانب حسن التنظيم ، كانت القوات المسلحة الغربية تفرض درجة عالية من الانضباط الصارم . كان يتم التأكيد من أن الأفراد على جميع المستويات يعرفون واجباتهم ومهامهم ، وكان كل منهم يتنفذ أوامر قائده الأعلى ، ولم يكن متوقعاً أو مطلوباً من الجنود أن يقلدوا قادتهم وإنما أن يطيعوا أوامرهم . لم يكن هناك وجود لمسألة شجاعة القائد أو عدم شجاعته ، لابد من أن يظل في أمان يواصل إصدار الأوامر ، على أن موته لم يكن يعني الهزيمة لقواته . كان من يخلفه في القيادة محدداً سلفاً ، وتسلّم الزمام بعده مباشرة ليواصل القتال . هذا الانضباط الصارم كان يضمن لا يتكلّم أحد عن أحقيته في خلافة القائد السابق .

كان للانضباط دور فعال في القوات المسلحة الغربية . في إحدى المعارك الهجومية

عندما واجهت قوة بريطانية صغيرة مدفعية روسية كثيفة ، صدرت الأوامر للقوة البريطانية بالتقدم والهجوم ، وبالرغم من أن ذلك كان يعني الموت بالنسبة لكثيرين منهم ، إلا أنهم نفذوا الأوامر دون تردد ، وبالفعل قتل عدد كبير منهم وهزمت القوة ، لكن الحدث يقى في الذاكرة ؛ لأنّه أوضح لأعداء البريطانيين أنهم لا يمكن أن يتوقعوا انتصارا سهلا ولو كان أمام قوة بريطانية صغيرة ، ولربما ساعد ذلك أيضاً على إتقان قوات بريطانية أخرى بيت الرعب في قلوب أعدائهم .

كان دور الانضباط في غزو القوات المسلحة الغربية الناجح للدور الشرقية ، كان دوراً متسقاً ؛ فبدون استثناء تحكمت قوات غربية صغيرة من هزيمة قوات آسيوية كبيرة بسبب حسن التنظيم والتحركات القتالية الدقيقة . وكان الشذوذ عن هذه القاعدة نادراً . كانت القوة العسكرية الغربية مثل الآلة الحرية ، بينما كانت القوة الشرقية تحارب كأفراد متفرقين دون تنسيق بين أفرادهم أو نظام . الأوامر في القوة الغربية تتفق بدقة بالغة ، أما في القوة الشرقية فلم يكن هناك نظام أو تسلسل قيادي ، كما أن الأوامر لم تكن تنفذ على الفور بكفاءة ، وربما كان يتم تجاهلها .

وبالنسبة لأبناء الملايو وبخاصة والآسيويين بعامة ، فإن الدرس المستفاد من الغرب هو أن النظام والانضباط شديد الأهمية والتأثير في أي مجال ، فدورهم ليس مقصوراً على القوات المسلحة أو الحرب بالرغم من أهميتها القصوى هنا . النظام والانضباط مهمان في كل المجالات الأخرى لضمان النجاح .

كانت اليابان هي الدولة الأولى التي أدركت أن النظام والانضباط هما أساس النجاح . وبينما من الصحيح أن اليابانيين كانوا ملمنين عباديًّا، الانضباط الأساسية عندما بدأت صلاتهم بالغربيين ، إلا أن انضباطهم كان ينبع من النظام الجيد . وبواسطة المبادئ التي كانت لديهم استطاعوا أن يستوعبوا النظام والانضباط الغربيين في كل نواحي الحياة في مجتمعهم . وفي وقت قصير جداً ، نجح الأسلوب الغربي في التنظيم في أن يجعل من

اليابان قوة عالمية . وإذا وضعتنا في الاعتبار أن اليابان لا يوجد بها موارد طبيعية تساعده في عملية التحديث ، نجد أن النظام والانضباط قد لعب دوراً أكثر أهمية في تقدمها . لقد كان النظام والانضباط فعالين ومؤثرين لدرجة أن ندرة الموارد الطبيعية لم تمثل مشكلة ألمعقة .

كما أن نضال الدول الآسيوية من أجل الاستقلال عن الاحتلال الغربي مدين بتجاهه للنظام والانضباط . في الهند مثلاً ، شكل «غاندي» حزب المؤمن على النسق الغربي ، ولأن الأعضاء كانوا على استعداد لتنفيذ وإطاعة التعليمات ، أى أن يقبلوا الانضباط الحربي ، وبالرغم من عدم وجود أسلحة لديهم شجع غاندي في إضعاف الإدارة البريطانية في الهند عن طريق المقاطعة الجماهيرية السلبية التي لا تعرف العنف . ولم تستطع القوة العسكرية البريطانية ولا الإمكانيات أو الثروة أن تقضي على انضباط وتنظيم حركة المقاطعة التي قادها غاندي دون عنف . وفي ولايات شبه جزيرة الملايو ، سُجِّل أبناء الملايو في صراعهم ضد اتحاد الملايو وفي نضالهم من أجل الاستقلال ؛ لأنهم كانوا مستعدين للانضمام إلى منظمة سياسية وأن يطبعوا تعليمات زعيمها . الواقع أن المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو «أونتو» التي أنشئت لمعارضة اتحاد الملايو ، كانت تعانى من نقص شديد في التمويل وفي القيادات المتعلمة ومن أمور أخرى كثيرة ، ولكن لأن أعضاءها كانوا أكثر تنظيماً مما كانوا عليه في الماضي ، وكانوا على استعداد لتنفيذ تعليمات زعيمهم ، لم تستطع بريطانيا أن ترفض مطالب «أونتو» .

إن كون أبناء الملايو قد نجحوا في تحرير أنفسهم من قيود الاستعمار لا يعني أنهم لم يعودوا في حاجة إلى ممارسة النظام والانضباط الذي تعلموه . أبناء الملايو مازالوا يمثلون مجتمعاً صغيراً مختلفاً في بلادهم نفسها ، وحيث إن النظام والانضباط يمكن أن يمنحا الضعف قوة ، فمن المهم أن يستمر أبناء الملايو في ممارستهما ، وليس ذلك في السياسة فقط ؛ لأنهم ضعاف في ميادين أخرى مثل النشاط التجاري والتعليم .

النظام مهم جداً في التجارة الحديثة مثلاً ، وهو لا يتضمن فقط تنظيم الموظفين

والعمال ، بل المهام والواجبات أيضا ؛ بحيث يسير كل شيء طبقا لخططة ويعمل على الأفعال المعنى بالأمر ، وتنظيم المهام الالزمة لإعداد حساب شامل لتاجر واحد هو على نفس درجة الأهمية مثله بالنسبة لشركة عملاقة . تخصيص المسؤوليات بين الأشخاص جانب مهم في تنظيم العمل التجارى ، ويبدون مثل هذا التنظيم فإن العمل سوف يعتمد على التخمين أو التوهم ، وسوف يؤدي ذلك إلى خسائر دون قصد .

والانضباط في العمل التجارى أيضا عنصر لا يقل أهمية ؛ فالناتج الذي يغلق محله على هواه أو حسب تصوراته سيفقد عملاء . وفي الأعمال التي تستخدم موظفين برواتب ، فإن عدم استعداد المستخدمين لإطاعة التعليمات وتتنفيذ التوجيهات لأبد من أن يؤدي إلى الفشل . المطعم مثلا يعتمد على الخدمة الجيدة ، وإذا لم يتم العاملون به بتنفيذ واجباتهم كما يوجهون فإن الزبائن لن يأتون إليه مرة أخرى مهما كانت جودة الطعام ، كما يمكن أن نضرب مثالاً الأمثلة على أهمية الانضباط في التجارة . ولن تكون مبالغين إذا قلنا إن فشل مالزيما في العمل التجارى يرجع - في جزء كبير منه - إلى غيبة الانضباط من قبل رجال الأعمال ومستخدميهم .

كما أن دور النظام والانضباط في مجال مثل التعليم لا يحتاج إلى شرح مفصل ، لكن بينما نجد أن النظام والانضباط من الأمور الجيدة بشكل عام ، إلا أنهما يمكن أن يؤديا في ظروف معينة إلى دمار من يمارسونها . عندما يتجمع الناس معا في مؤسسة تعمل بانضباط صارم ، فإن القيادة الخطأ يمكن أن توصلهم إلى مازق رهيب . النظام والانضباط في ألمانيا تحت زعامة «هتلر» ، واليابان في عهد نظام «توجو» العسكري ، هي أمثلة واضحة على النتائج الشنيعة للقيادة الخطأ . النظام الصارم يجعل معارضة الزعيم أو القائد مستحيلة ، كما يجعل اكتشاف الشيء الخطأ في وقت حدوثه أمرا صعبا .

عندما أعاد «هتلر» بناء ألمانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى ، كان معظم الألمان لا يستطيعون أن ينكروا أن أساليبه وإجراءاته كانت ناجحة في إنشاش ثروة ألمانيا وقوتها .

وهي عزيمة الألمان بسبب هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى حل محله روح إيجابية جديدة وثقة شديدة بالنفس . ومن هنا كانوا مستعدين لقبول حكم هتلر بما ينطوي عليه من انضباط صارم ، ولدعم مشروعه للسيطرة على العالم . أما الذين كانوا في شك في ذلك الوقت ، فلم يكونوا يجرؤون على التعبير عن تلك الشكوك ، وحتى لو أنهم كانوا قد فعلوا ، لكانوا أقلية لا تذكر ، وكان تقديمهم سبب جلب عليهم العقاب ، بالإضافة إلى عدم جدواه .

وعندما بدأت الحرب العالمية الثانية بالعدوان الناجح الذي شنته آلة الحرب الألمانية ، لم يكن يستطيع أي عضو أو قائد في الحزب النازي أن يقول إن هتلر قد أساء استخدام النظام والانضباط الألماني . كان هتلر شخصياً يدير دفة الحرب بالرغم من أنه لم يكن قائداً عسكرياً محنكاً . هكذا كان الانضباط للدرجة أن أحد المعارضين ، بالرغم من أن التاريخ يبين لنا أن أساليبه واستراتيجياته العسكرية أدت إلى سقوط ألمانيا .

ومع مرور الوقت كان يتضح أكثر وأكثر أن زعامة هتلر سوف تجلب الهزيمة والدمار لألمانيا ، لكن الانضباط كان ما يزال يعني من يدركون ذلك من نصخ هتلر أو معارضته ، ولم يختل هذا الانضباط إلا بعد أن لطمت الهزيمة وجه ألمانيا وأصبح مؤيدوه السابcovون يديرونها ، ولكن الوقت كان قد فات لإنقاذ ألمانيا . كان الموتى بالمالين ، وكان الكرب عظيماً .

ويوضح لنا ذلك أن الانضباط (والنظام) يمكن أن يكون سبباً في دمار جماعة معينة ، بالرغم من أنها ليست قاعدة ، كما أن هناك أدلة كثيرة على مزايا الانضباط والنظام . الاستثناء لا يمكن أن يثبت (أو أن ينفي) القاعدة ، وحالة استثنائية لا تثبت مبدأ عاماً . والحقيقة أنه بالرغم من أن الانضباط قد أوصل الألمان إلى حالة من الترد الشديد ، إلا أنهم لم يرفضوه . لقد مارسوا الانضباط مرة أخرى لكنه يعيدهوا تأهيل بلاهم وإعادة الاعتبار لها . واليوم ، بالرغم من أن الدولة قد قسمت إلى دولتين ، إلا أن ألمانيا الغربية قد حققت النجاح والتقدم ، متوفقة – إلى حد ما – على دول انتصرت في الحرب العالمية الثانية مثل بريطانيا التي أصبحت معروفة الآن كدولة فقدت ما كان لديها من انضباط أيام مجلدها .

نعم ، للاتضباط والنظام مخاطر ، إلا أن الفوائد أعظم . العادات الفعالة والمفيدة للمجتمع لابد من الحفاظ عليها ، بل إنها يجب أن تخلق إن لم تكن موجودة . ورفض النظام والانضباط يعني تعويق النجاح ، وتبني تلك القيم لا يضمن النجاح بنسبة مائة في المائة ، إلا أن النجاح لن يتحقق ، بل سوف يكون هناك فرصة لتحقيقه على الأقل .

لقد تناولنا النظام والانضباط - إلى الآن - من وجهة نظر ذرية ، ولكن الاتجاه صلة بين الدين والروحانية وبين النظام والانضباط؟ الإجابة عن هذا السؤال بسيطة : الاشتراك الناجح للإسلام في أرجاء العمورة كان أساسه في انضباط ونظام المجتمع الإسلامي ، مقارنة بجهالية المجتمع السابق عليه ، كما كان أساسه أيضاً في استعداد المسلمين للعمل بنظام وانضباط . العادات في الإسلام منظمة بدقة . والحقيقة أنه لا يوجد ما هو أدق تنظيماً وانضباطاً من طقوس العبادة الإسلامية . في الصلاة ، وصلة الجمعة بالأخضر ، يولي ملايين المسلمين وجوههم شطريت الله في مكة على اختلاف أماكن وجودهم وينفذون تعاليم الزعيم الإسلامي العظيم قبل ألف وربع مائة عام تقريباً ، والذين شاهدوا صلاة الجمعة في الحرم المكي يرون كيف يتحلق المسلمون حول بيت الله في صفوف متنظمة ، ليس في المسجد الحرام أو حوله فقط ، وإنما في كل أرجاء العالم بما يعني أن بيت الله الحرام هو قبلة المسلمين حقاً .

طقوس العبادة هي بيان مادي على النظام والانضباط في الإسلام ، لكن الإسلام أكثر من أي دين آخر يكفل أن تكون كل جوانب الحياة بطريقة منتظمة ومتضبطة بقوانين وقواعد محددة . القوانين والقواعد الإسلامية مثل غيرها من القوانين والقواعد لن تكون مفيدة أو مؤثرة إلا إذا كان المجتمع المعنى أو المؤمنين بها يطاعونها وينفذونها . وهذا معناه أن النظام والانضباط أمور حيوية بالنسبة لجواهر الإسلام مثل الإيمان الحقيقي .

ولابد هنا من أن نقدم مثالاً على العوائق التي يواجهها المسلمون عندما يتم تجاهل النظم والقواعد . في غزوة أحد ، كانت أوامر النبي للواء من حملة الأقواس والسمام أن

يحلروا هجوم العدو عليهم من الخلف . هذه الأوامر تم تنفيذها في البداية ، وبينما كانت هزيمة العدو قد أُوشكت ، ترك جنود ذلك اللواء مواقعهم ، وتدافعوالكى يحصل كل منهم على نصيحة من الأطفال ؛ فكانت النتيجة أن استطاع العدو أن يقوم بالهجوم من الخلف ليوقع بجيشه المسلمين خسائر فادحة ، بما في ذلك استشهاد سيدنا حمزة . كان ذلك - على سبيل المثال - عاقبة من عوّاقب اندفاع الانضباط في تاريخ الدفاع عن الإسلام . وحدث شيء مشابه في غزوة «حنين» ؛ حيث تعرض جيش إسلامي كبير وقوى لخسائر قاسية بسبب غيبة التنظيم والانضباط أثناء مسيرته عبر وادي حنين . والحقيقة أنه لا يوجد طقس من طقوس العبادة ، أو حكم في الإسلام لا يحتاج إلى نظام أو انضباط .

البشر يعيشون عادة في مجتمعات ، والمجتمع الإنساني لا يمكن أن يوجد دون تنظيم أو انضباط . ومهما كان المجتمع بداياته على الأقل يتكون من رؤساء ومرؤوسين ، وكلما كانت الحضارة أعظم وأسمى ، يكون المجتمع أكثر ترقيتاً وتعقيداً . إنبقاء المجتمع نفسه يتوقف على درجة تنظيمه وعلى استعداد أفراده أن يطبلوا الأوامر والذواهـى التي يصفها هذا المجتمع ، أي أن المجتمع مدين بأمنه واستقراره للنظام والانضباط . والانضباط هنا يعني وضع حدود للرغبات والمصالح الفردية لكي تكون الأولوية لصالح المجتمع ككل . قد تختلف تفسيرات المقصود بمصالح الفرد أو صالح المجتمع ، من مجتمع لأخر ، ولكن أيا كان التفسير أو التقويم ، فإن الهدف من تحديد المصالح الفردية هو الحفاظة على المجتمع والإبقاء عليه .

ولربما أصبحت القيد المفروضة على كل عضو في المجتمع باعتباره فرداً ، ربما أصبحت محبيطة له بعد وقت قصير ، إلا أن الأمـن الاجتماعي الذي يتحقق نتيجة لذلك سوف يكون مفيـدـاً له في نهاية الأمر . ويعـكـنـ أنـ نـلاحظـ ذلكـ منـ نوعـ المجتمعـ الذـىـ تـشكـلـ فـيـ الأـيـامـ الأولىـ للـغـربـ الوحـشـىـ فـىـ أمـريـكاـ . كانـ مجـتمـعاـ تـحكـمـهـ الفـوضـىـ وـقـانـونـ «ـالـلـشـ»ـ (ـالـإـعدـامـ دـوـنـ مـحاـكـمـةـ قـانـونـيةـ)ـ وـقـانـونـ «ـالـشـوـغاـ»ـ . أـىـ مـتـهمـ بـالـقـتـلـ كـانـ مجـتمـعـ يـحاـكـمـ مـحاـكـمـةـ فـطـةـ ،ـ ثـمـ يـقـومـ النـاسـ الذـينـ حـاكـمـوهـ بـإـعدـامـهـ . ولـوـ أـنـهـ كـانـ قدـ اـرـتكـبـ جـرـيـةـ القـتـلـ

بالفعل ، لكان يمكن اعتبار ذلك عدلا ، لكن احتمال أن يكون الاتهام غير حقيقي ويدفع من الغيرة أو الحقد أو أي سبب آخر كان احتمالاً كبيراً ، وعندما تكون المحكمة مفتقرة إلى التنظيم المناسب ، فلابد من أن يطول الإعدام أبداً .

في المجتمع المنظم جيدا ، بالرغم من أن الشرطة قد تلقى القبض على شخص بريء وتهمه ، إلا أن العملية المنظمة للمحاكمة ستتضمن لا يكمن ضحية . والفكرة هي أنه بالرغم من أن التوافق مع النظام الاجتماعي قد يجد شكلان من أشكال القمع ، إلا أنه في النهاية الأمر جيد بالنسبة لأعضاء هذا المجتمع . بدون النظام الاجتماعي قد يصبح القتلة طلقاء لكي يرتكبو المزيد من الجرائم . ولا يعارض مفهوم المجتمع المنضبط غير الفوضويين الذين يرون أن البشرية لا يجب أن تحكم عن طريق التنظيم الاجتماعي أو الانضباط من أي نوع للنظريات التي قدمها فوضويون مثل «برودون» و«باكونين» و«كروليوكتين» . تقول إن ضمير الإنسان هو الذي يضمن تحقيق السلام والعدل في المجتمع ، ومن هنا فإن الحكومة (الإدارة) ليست مهمة ؛ لأن المجتمع الإنساني سوف ينقسم إلى جماعات صغيرة تكون موجودة بدون تنظيم وليس خاضعة لأي سلطة مركزية .

والماثير للسخرية أن أولئك الذين لا يؤمنون بالمجتمع المنظم ، يضطرون إلى تنظيم أنفسهم في جماعات من مختلف الأشكال لتعزيز فكرتهم ، وهذه هي الحركة التي أدت إلى ظهور النقابية والحركات العمالية والاشتراكية ثم الشيوعية في النهاية ، وكما نعرف فإن كل محاولات إقامة مجتمع فوضوي قد باءت بالفشل . وإذا كان هناك مجتمع في العالم هو الأكثر اقتراباً من الفوضى فهو الدولة الاشتراكية كما هي موجودة في بريطانيا اليوم ؛ فالحكومة هناك ليست فقط بلا حول ولا قوة للسيطرة على أثانية جماعات بعضها من العمال ، بل إنها حتى لا تستمع لزعمائهم . والنتيجة هي أن المجتمع مهدد دائماً بعدم ضمان توفر السلع والخدمات . الأسعار ترتفع ارتفاعاً جنونياً ، النقل البري والبحري والجوى لا يعتمد عليه ، العلاج الطبي ليس متوفراً بسهولة ، أشكال مختلفة من الإرهاب والظلم تقع

هكذا ببساطة ؛ حيث لا توجد سلطة تضمن إعطاء الأولوية لمصالح المجتمع ككل . النظرية الفوضوية التي ترى أن مجتمعا بلا حكومة أو قانون ، سوف يكون مفيدا لجميع أفراده ، هذه النظرية لم يثبت أنها صحيحة بناء على مظاهر الفوضى هذه في المجتمعات الاشتراكية ، بل إننا يمكن أن نفترض أو أن نستنتاج أن المجتمع الفوضوي غالباً يكون أكثر فوضى وأكثر تعرضاً لأشكال مختلفة من الظلم من المجتمع الاشتراكي .

وأيا كانت وجهة النظر ، فلا أحد يستطيع أن ينكر أن المجتمع الإنساني يحتاج إلى التنظيم والانضباط ؛ حتى أولئك الذين يؤمنون بالفوضى يضعون شكلاً من أشكال التنظيم والانضباط . المسألة ليست وجود أو عدم وجود تنظيم ، وإنضباط المسألة هي مدى وطبيعة النظام والانضباط ، هل تكون عند حدودها الدنيا كما يقول الفوضويون ، أو أن تكون جامدة كما في الدكتاتورية؟ قد تكون الإجابة موجودة عند نقطة ما بين الطرفين ، إلا أن هناك مجالاً واسعاً ودرجات من الاختلاف بين وضع معتدل ومفيد اجتماعياً وغيره . وقد يرى البعض أن الاشتراكية على الطريقة البريطانية صيغة معتدلة ، إلا أنها قريبة من الفوضى وتعزز كل مساوى وشروط الفوضوية . وقد يرى البعض أن الاشتراكية على الطريقة اليوغوسلافية صيغة معتدلة ، إلا أنها أقرب إلى الدكتاتورية . وبين الصيغتين هناك درجات مختلفة من الاعتدال ، لكل منها عيوبها . عندما تكون عناصر النظام والانضباط قوية فإنها يمكن أن تتشكل ملامح دكتاتورية ، ومن ناحية أخرى عندما يكون النظام أو الانضباط رخوا ، فإن عناصر الفوضى قد تهدد المجتمع .

ذلك هو مأزق المجتمع الإنساني في كل مكان ، ولكن مadam المجتمع في حاجة إلى أن يكون منظماً ومتضبطاً ؛ فاللهم هو توجيه الحكم نحو نوع من التنظيم والانضباط وفهمه عن طريق الممارسة العملية . ولو أن كل فرد في المجتمع فهم أهمية النظام والانضباط وقام بدوره بدافع من الشعور بالمسؤولية ، فإن المجتمع سوف يصبح مستمراً ومتقدماً ، ولكن لو أن كثيرين أو أن كل أفراد المجتمع رفضوا أن يكونوا متافقين ومتسكنين مع نظامه وانضباطه وأصرروا على

العمل خارج تلك المحدود المعينة ، فإن التمزق سيكون حتميا والأثار عكسية بالنسبة للمعنيين ، بل بالنسبة للمجتمع بأسره في الحقيقة .

الفصل الثاني عشر المفساد

المجتمع لا يحرم شيئاً أو يعتبره رديئاً بلا سبب ، والشيء نفسه ينطبق على الأمور التي تعتبرها جيدة . والقيمتان (الرداة والجودة) يصفهما المجتمع دائمًا نتيجة لتجربة السنين ؛ فالإنسان الذي خلقه الله مزودًا بالقدرة على التفكير ونقل الخبرة من جيل إلى جيل ، لا يحتاج إلى أن يقرر كل شيء طبقاً لخبرته الخاصة . والخبرة المترابطة التي تشكل الأفكار والقيم لا يشترك فيها المجتمع القائم في ذلك الوقت بكمته ، ولكنها تتنتقل إلى الأجيال التالية ، ويقبلها ويستوعبها جيل بعد جيل بشكل عادي باعتبارها جزءاً من التراث والثقافة ، ولكن يحدث أحياناً أن يضيع جيل جديد القيم القيدية موضوع المسائلة ، الأمر الذي قد يتوج عنه تشكيل قيم جديدة .

مفاهيم الجودة والرداة في كثير من الجماعات الإنسانية ، هي من بين القيم الباقية على مر الأجيال باعتبارها جزءاً من تقاليد الجماعة وثقافتها ؛ فالعرب - على سبيل المثال - كانوا ذات يوم يدقون بنطنن حديثات الولادة أحياها ، ولم يكن الذين مارسوا ذلك جيلاً واحداً ، وإنما أجيال كثيرة في زمن الجاهلية . واليوم يعتبر هذا الفصل عملاً وحشياً شديداً الحماقة ، وينظر إليه باعتباره انتهاكاً للمشاعر الإنسانية وشديد الظلم . والمؤكد أن الأمر لا يحتاج إلى المزيد من التفصيل لكي يجعلنا نشعر بذلك ؛ فهو عمل شرير بلا جدال . والحقيقة ، بالرغم من ذلك كله ، فإن هذه المشاعر تعتمد - سواء بوعي أو بدون وعي - على نظام القيم الحالى الذى يجعل القتل قيمة رديئة ، وخاصة إذا كان قتل المرء لأنسانه .

بيد أننا لو كنا نعيش في الجاهلية ، لكننا قد مارسنا ذلك الفعل الوحشى ، وذلك لأن المجتمع لم يكن يعتبره عملاً شريراً ، وما كانت « المشاعر الإنسانية » لتهمنا لأن وأد البنات لم يكن يعتبر انتهاكاً للمشاعر الإنسانية أو اعتداء عليها .

ولابد من أن تخيل أن البشر كانوا مختلفين قبل ألف وأربعين عام عما هي عليه الآن ، ولذلك كان يمكن أن يرتكبوا مثل تلك الأفعال الوحشية دون أي شعور بوخز من ضمير ، إلا أنها يجب أن تذكر أيضًا أن الأمهات في الصين قبل مائة عام كن يختفن بناهن حتى الموت ، وأن «السوتي» أو إحراق أرملة المتوفى حية كان مازال يمارس أحياناً في الهند إلى وقت قريب بالرغم من منه وتجريمه ، كما أن هناك جماعات أخرى في الهند يمكن أن تمارس ذلك أحياناً لو غفلت عنها الشرطة .

وربما كان مثل تلك الأفعال الوحشية - قتل الأطفال وإحراق الأرامل - قد استمر لوان قيم المجتمع كانت تتشكل جميًعاً بواسطة ذلك المجتمع نفسه في زمنه وحسب تجربته ، ولكن مادامت قيم الجودة والرداة تتقلّع عادة من جيل إلى جيل باعتبارها نظاماً أخلاقياً تقليدياً ودون أي تفسير للأسباب ، فإن القيم التي تحيي قتل الأطفال والأرامل يمكن أن تكون مقبولة ، وأن تمارس لفترة طويلة .

الفساد أحد الممارسات التي تعتبرها كل المجتمعات في العالم شيئاً رديئاً . والحكم على الفساد بأنه شيء أو ردئ تقرره التقاليد وليس الدراسة أو التجربة . الكل - وفي أي مكان - يدين الفساد باعتباره جريمة ، إلا أن ذلك لا يعني أن الكل يقبل التفسير نفسه لمعنى المصطلح «الفساد» أو يعرف حقاً العاقب السيئة له . ويعرف الفساد عادة بأنه ممارسة يمكن شخص ما من الحصول على مكافأة بوسائل غير مشروعة ؛ فالموظف الذي يحصل على مكافأة (راتب) بشكل منتظم نظير قيامه بأداء واجبات معينة مثلاً ، قد يقبل هدية من شخص ما في مقابلة أداء أحد هذه الواجبات . وبالرغم من أن سلوكاً من هذا القبيل قد يفسر على أنه فساد ، إلا أنه قد لا تكون له أي عواقب غير مرغوب فيها في البداية ، وربما يكون الشخص الذي قدم هذه الهدية قد فعل ذلك بمحض حرته ، وأن يكون الموظف يؤدى ذلك الواجب نفسه للآخرين من الذين لا يقدمون هدايا ، ولكن بمجرد تقديم الهدية فالمؤكد أنه سوف تكون هناك أفضلية لأن قدمها في المرة التالية ، الأمر الذي يعني أن من لا يقدمون هدايا

لن يلقو المعااملة نفسها دون إعطاء ، وحتى هذه المرحلة لن يكون هناك من يشعر بتأيي حرمان سوى أولئك الذين يحتاجون لخدمات ذلك الموظف ؛ لأن الجمهور والدولة ليسوا متورطين في الأمر بشكل مباشر ، وحيث إن المجتمع لم يشعر بالآثار السلبية للفساد ، فهو ليس على استعداد للتدخل ، وربما لا يكره بذلك ، وخاصة إذا كانت المكافأة المتزنة للموظف (راتبه) تعتبر منخفضة .

لكن الموظفين الآخرين ، الذين لاصلة لوظائفهم بالجمهور - من مقدمي الهدايا - بشكل مباشر ، سوف يشعرون بالغير من ذلك الموظف الذي يتلقى هدايا ، ولكن يحصلوا على نصيب منها فقد يلجؤون عمدا إلى سد الفتوحات التي يكون لها علاقة بواجبات ومهام ذلك «المغضوظ» الذي يتلقى الهدايا ، وهكذا يتقلل الفساد إلى مرحلة نشطة : القيام بعمل واضح أو خطوة فعلية لتنمية الفساد .

ويمكن أن نلاحظ ذلك في تطور نظام «البقيش». في البداية كان «البقيش» يقدم ، على سبيل المثال ، لعمال الخدمة في المطاعم ، الذين يخدمون الزبائن مباشرة . كان حجم «البقيش» يعتمد على جيب الزبائن والخدمة المؤذنة ، وفي البداية كان يتظر إلى «البقيش» على إنه شيء معتاد ، وكانت الخدمة تقدم بصرف النظر عنه ، لكن مواقف عمال الخدمة تغيرت بعد وقت قصير ، بمعنى أنه إذا لم يكن هناك «بقيش» فالخدمة لن تكون جيدة ، وربما لن تكون موجودة بالمرة . عند هذه المرحلة تحول «البقيش» إلى «وظيفة» ، وبعد أن كان يقدم في مقابل خدمة جيدة ، أصبحت الخدمة الجيدة الآن هي التي تقدم في مقابل «البقيش» ، ومن هنا انتقل «البقيش» إلى مرحلة أخرى فأصبحت نسبة تحدده . لم يعد من حق الزبائن أو العميل أن يقدم «البقيش» الذي يقرره أو يحدده هو ، بل عليه أن يتلزم بالنسبة المحددة والتي عادة ما تكون ١٥٪ ، ولأن عمال الخدمة في المطاعم كانوا هم المستفيدون الوحيدون منه ، دبت الغيرة في نفوس الآخرين الذين لاصلة مباشرة لهم بالزبائن ، وإن كان لهم دور في الخدمة المقدمة إليه ؛ فرئيس الطهاة المسئول عن

الأطباقي «الحلوة» مثالاً لم يكن يحصل على أي «بقيشيش» ، والواقع أن عمال كثيرين من مستويات مختلفة في المطعم مشاركون بشكل مباشر أو غير مباشر في الخدمة ولا يحصلون على «بقيشيش» ، جعلتهم الخيرة يلجؤون إلى أفعال سلبية تجعل الزبائن يشعر بذلك . وعندما حدث ذلك ، كان لا بد من إيجاد طريقة تضمن أن يكون لكل نصيبي في «بقيشيش» ، وأخذ ذلك شكل تقنين نسبة معينة تضاف إلى ثمن الطعام ثم تقسم الحصيلة على كل من لهم علاقة بخدمة الزبائن ، وهنا برب عاملان :

الأول : هو أن «بقيشيش» الذي يتم تحصيله بشكل رسمي يقسم على العاملين في المطعم (أو الفندق) طبقاً لمستوى الرواتب ؛ مما يعني أن أصحاب الرواتب العالية سوف يحصلون على نسبة أعلى من أصحاب الرواتب الأقل ، بينما أفراد المجموعة الثانية هم الأكثر احتياجاً للدخل الإضافي .

والثاني : أن أولئك الذين لهم صلة مباشرة بخدمة الزبائن ، ما زال لديهم الفرصة والوسائل للحصول على «بقيشيش» إضافي من الزبائن .

أى أنه حتى بعد تقنين «بقيشيش» بشكل رسمي فإن «بقيشيش» غير الرسمي يمكن أن يظل قائماً ، والأسوأ أنه سيظل مثيراً للأحقاد بين العاملين الآخرين من ليس لهم علاقة مباشرة بخدمة الزبائن أو العملاء .

وهكذا نعود إلى المربع الأولي ، ويصبح العمل التجاري مهدداً بمخاطر قد تسبب خسائر لصاحب العمل ، وفي النهاية يعاقب الزبيون مرة أخرى عن طريق رفع نسبة «بقيشيش» .

أما بالنسبة لحكومة أي دولة ، فإن الفساد له نتائج أسوأ بكثير ، ورغم أدى إلى سقوط الحكومة وإحداث حالة من الفوضى ؛ فلو أن موظفاً مسؤولاً عن تحصيل ضرائب انغمس في الفساد ، فلن يكون هناك عائد للدولة . نقص العائد القومي يعني عدم القدرة

على رفع رواتب وأجور العاملين ، وعندما تدفع الدولة الرواتب والأجور الكافية سوف يواصل الموظفون ممارساتهم الفاسدة ، ويمكن أن يتتحول الفساد إلى عادة لا اعلاقة لها بحجم الدخل القانوني للشخص .

الرغبات الإنسانية ليس لها حدود ، وأصحاب الدخول المخفضة قد يقولون إن دخولهم لو كانت أعلى لكانوا قد أصبحوا راضين قانونيين ، ولكننا لا بد من أن نذكر أن هناك بالفعل من يحصلون على رواتب يتحمّلها الموظفون من ذوي الدخول المخفضة ؛ فهل أصحاب الرواتب العالية قاتعون ولا يغريهم الفساد؟ الإجابة هي أنهم ليسوا فقط غير راضين ، بل إنهم يطلبون رشاوى أكبر لتناسب رواتبهم . وهكذا فإن زيادة الرواتب ليس وسيلة مؤكدة ليقاف الفساد ، وفي دولة أصبح الفساد فيها سلوكاً عاماً أو ممارسة عامة ، زيادة الأجور سوف تؤدي إلى زيادة مستوى الفساد ثلاث مرات ؛ أي أنه لو كان الفساد هو القانون ، فإن زيادة الدخل سوف تتشكل في إيقافه ، والحقيقة أنها سوف تزيد منه .

الفساد موجود في كل مكان . لأنوجد أمة أو دولة خالية منه ، والقضاء عليه بنسبة مائة في المائة أمر مستحيل ، إلا أنه يمكن التقليل من آثاره بشرط لا يكون قد وصل إلى مرحلتين حرجتين : المرحلة الحرجة الأولى عندما يظل الفساد سراً بينما تكون ضوابط الاتصال قد تكونت وامتدت بين المسؤولين الصغار والكبار . في هذه المرحلة سوف يقبل الموظف الصغير الرشوة ، وينهض لاقتسامها مع الكبير أو العكس ، وعندما يحدث ذلك سوف يحمي كل منهم الآخر صغيراً أو كبيراً . وقد يشمل أعلى المستويات بين فيهم وزراء وسياسيين ورئاسة القضاء والمسؤولين عن إنقاذ القانون ، وعواقب هذه المرحلة من الفساد واضحة . الشكوى من الطرف الضار لن يكون لها أي جدوى . والأسوأ ، هو أنه عندم تزيد الجماهير أن تطهر النظام ، فلن يكون هناك أحد لكي يتحرك ؛ حيث إن الكل متورط في الفساد . الوزراء والمسؤولون قد يستبدلون ، لكن من يجيئون مكانهم سوف ينجبون إلى الفساد على وجه السرعة ، وحتى لو أنهم رفضوا التورط في ذلك فسوف يكونون في حالة

شلل ؛ لأن من يعملون معهم لن يطيعوا أو ينفذوا تعليماتهم . فصل كل موظفي الحكومة أو استبدالهم جميعاً أمر مستحيل ، ولو حاول أحد أن يقوم بذلك ، ستكون الفوضى وشرور أخرى كثيرة هي النتيجة .

المرحلة الحرجة الثانية من الفساد هي عندما يصبح علينا ومقبولاً كمسلك عام من قبل المجتمع . أحياناً يعتبر الراتب غير الكافي سبباً لتقديم الرشوة . ولو كان ذلك صحيحاً ، لما قيل كبار الموظفين والوزراء الرشوة . الواقع أن أصحاب الرواتب العالية ، أيا كان علوها ، يطلبون رشاوى أكبر ؛ فالجشع الإنساني ليس له حدود .

عندما يمارس الفساد علينا ويصبح أمراً عادياً ، تكون آثاره على الدولة أكثر سوءاً .

أولاً: تصبح الحكومة ضعيفة ؛ لأنه في كل مرة تقبل فيها رشوة ، تخسر الحكومة عائداً أو تحرف عن المسار الصحيح للعمل . على سبيل المثال ، عند تحديد ضريبة على شيء معين فإن تقديم رشوة لا يؤثر على جيب من يقدّمها ، المبلغ الذي كان ينبغي أن يدفعه كضريبة ، يقتسم بين مقدم الرشوة ومن يقبلها ، ولو حدث ذلك في كل مرة عند دفع الضريبة ،لن تكون الحكومة قادرة على تحصيل العائد الكافي لإدارة البلاد ، وسوف يعطّل ذلك عملية دفع أجور منصفة للعاملين .

ولتعميّض الأجور غير الكافية ، سيقوم الموظفون بالبحث عن الرشوة بشتى الوسائل ، ولأن الجشع الإنساني لا حدود له ، والفساد ينظر إليه باستخفاف فسوف يتم قبول رشاوى أكثر وأكثر ، ليصبح العائد القومي أقل فأقل ، أما عواقب ذلك فلا تحتاج إلى تفصيل .

وعندما لا يكون لدى الحكومة التمويل الكافي ، لن يكون بالإمكان تقديم خدمات مثل التعليم والصحة والمرافق العامة وغيرها ، ولن تكون الدولة عاجزة فقط عن التقدم ، بل إن الفجوة بين الأغنياء والفقراً سوف تزداد اتساعاً ، وذلك لأن الخدمات العامة التي تقدمها الحكومة - عادة ، هي التي تساعد على تقليل النفقات التي يتحملها الفقراء .

وعندما يصبح الفقراء أكثر فقراً ، فإن الفساد سوف يزيد أحوالهم سوءاً ؛ لأنهم لن يحصلوا على خدمات من الموظفين بسبب عجزهم عن تقديم الرشوة ، وهذه الأحوال تزداد تدهوراً مع الوقت فيفقد العدل معناه وتفرق أغليمة الناس في اليأس .

الجشع الإنساني - كما قلنا من قبل - ليس له حدود ، وبالرغم من أن الفساد قد يدمر اقتصاد بلد ما إلا أن المسؤولين والمتورطين الآخرين في الفساد لن يتوقف ، وفي نهاية الأمر لن ينجح الفساد في أن يتحقق لهم الفوائد التي كانوا يحصلون عليها . وفي دولة يعيش فيها الشعب حياة رغدة ، يصبح من السهل الحصول على الثروة حيث يستطيع المستهلكون شراء ما يريدونه من سلع ، ولكن عندما يتدهور اقتصاد دولة أخرى (بسبب الفساد) فسوف يقل دخل المستهلكين وتتدهور الأعمال التجارية ، وعندما تتدهور الأعمال التجارية ، فلن يستطيع رجال الأعمال تقديم الرشاوى للمسؤولين سوف يعانون من جراء ذلك أيضاً . وفي الدولة التي يكون الفساد فيها عاماً ويعارض علينا ، حتى إذا كان المسؤولون يحصلون على كل أنواع الرشوة ، فإن معظمهم لا يعيشون حياة جيدة .

ومن المهم أن نعي هاتين المرحلتين المحرجتين للفساد ؛ حيث إنه بالوصول إليهما لن يكون هناك أمل في العلاج . العامة وجماعات بعينها في المجتمع سوف يهبون لإدانته الفساد ويذمرون ويحتجون على ممارسته ، ويهددون بالعمل ضد المسؤولين والحكومة إن لم يقض على الفساد ، ولكن ذلك كله سيكون بلا جدوى : حتى في حال استبدال المسؤولين والحكومة فإن الإصلاح سيكون إجراء مؤقتاً . عدو الفساد سوف تنتقل إلى من يحلون محلهم بالرغم من أنهم قد يكونون من الذين قد أدانوا الفساد وطالبوه بالقضاء عليه ، وفي وقت قصير جداً سوف يغشى المرض . الفارق الوحيد سيكون هو تغير المستفيددين ؛ حيث إن تغيير المسؤولين القدامى أو الحكومة لا يمثل شيئاً مختلفاً بالنسبة لعامة الشعب أو الدولة .

ويكفي أن نجد ذلك في أي مكان وصل فيه الفساد إلى مراحله المترفة ؛ حيث ترى حكومة جديدة ، ليس يعني تغيير الوجه فقط ، بل وأيديولوجياً جديدة ، وقبل مرور وقت

طويل سوف تهم هذه الحكومة بالتورط في الفساد أيضاً . وبشكل التصريح ولو التصرّح بأنه سوف يتم القضاء على الفساد ، وتنظم الحالات بينما الفساد مستمر ، وأحياناً توجه الاتهامات إلى الحكومة مراها وتكراراً والفساد يستشرى .

أما سبب عدم إمكانية القضاء على الفساد في هذه المراحل فهو أن يكون قد أصبح «أسلوب حياة» ولم يعد يعتبر جريمة ، أما الذين يديرونه باعتباره جريمة فإنما يعتبرونه كذلك لأنهم لا يجدون الفرصة لمارسته ، وعندما تباح لهم الفرصة والمقدرة فسوف يتغمسون فيه . ومثلهم مثل الذين يديرون الحسوبية والاحياء ، عندما يكتشفون أن شخصاً ما يعرفونه «يشغل مركزاً مهماً» يطلبون على الفور معاملة خاصة ، والسبب الذي يتطلبون به عادة هو أن الآخرين يحصلون على معاملة خاصة . أو بعبارة أخرى ، لأن الآخرين يرتكبون جريمة ما ، يصبح من حقهم ارتكاب الجريمة نفسها . معنى ذلك أن أي شخص يجد فرصة للفساد يكون من حقه ممارسته مادام الآخرون يفعلون ذلك . وإذا كان ذلك هو أسلوب تفكير الناس ، فلن يكون بإمكان المجتمع القضاء على الفساد ، كل ما يستطيعه هو أن ينقل الممارسات الفاسدة من فرد لأخر ومن جماعة لأخرى .

في بداية هذا الفصل من الكتاب ، قلنا إن المجتمع لا يصف شيئاً بأنه ردئ بلا سبب ، وعما يدل علينا أن الفساد أمر سيء فقط في نظر من لا يجدون الفرصة ولا الإمكانيـة لمارسته لكن يفـيدونـهـ ، أما الذين يجدون الفرصة فلا يـشعـرونـ بأـثـرـ سـيـءـ لهـ . وعـنـدـماـ يكونـ هـنـاكـ عـدـدـ كـبـيرـ مـنـ أـفـرـادـ الـجـمـعـمـ مـتـورـطـينـ فـيـ الـفـسـادـ وـيـفـيدـونـ مـنـهـ ، فـلـنـ يـكـونـ مـنـ السـهـلـ الـحـلـيـثـ عـنـ شـرـورـهـ وـمـسـاوـةـ ، فـإـذـاـ كـانـ عـدـدـ كـبـيرـ يـفـيدـ مـنـهـ ؛ فـكـيـفـ يـكـنـ اـعـتـارـهـ جـريـمةـ شـنـاعـاءـ؟

في الصين أيام حكم الأباطرة ، لم يكن ينظر إلى الفساد هذه النظرة . كان كل المسؤولين يحصلون على هبات مالية عندما يكون مطلوباً منهم عمل شيء ، وكان الدفع يتم علينا ، وغالباً ما كان سكان المدينة يجمعون الأموال لتقديمها إلى السلطات باعتبار ذلك أمراً

طبعياً؛ وكان كل الموظفين الحكوميين متورطين في هذه الممارسات كما كانت مخصصاتهم محددة . والحقيقة أن جمع الفوود لهذه الهدايا أو الهبات لم يكن يختلف عن دفع الضرائب ، كان الفارق الوحيد هو في أسلوب التعامل مع هذه الأموال التي يتم جمعها أو النصرف فيها ، فإذا كانت الضرائب تقدم للحكومة لكي يعاد توزيعها على العاملين على هيئة رواتب ، فإن أموال الرشوة كانت تقسم بطريقة الاقتطاع منها على طول الطريق ، يعني أن من يجمعها يحصل على نصيبيه قبل أن يقوم بتسليم المتبقى منها إلى المسؤول الأعلى منه ، وهذا المسؤول يفعل الشيء نفسه قبل تزويده إلى رئيسه ... الذي يفعل الشيء نفسه ... وهكذا . ويمثل هذا الأسلوب كان المسؤول يفید عن طريق هذه المكافأة المالية التي تضاف إلى أجره ، وكان ذلك الأجر ضئيلاً في العادة ، كما كان يفید الجمهور على هيئة الخدمات التي تقدم له ، وحيث إن الفرع كان يعود على الجميع ، إلا أن مساوى هذا الشكل من الفساد لم تكن ظاهرة . لم يكن حتى يسمى «فساداً» ، وإنما كانت تطلق عليه مسميات كثيرة مخففة .

على أن مساوى هذا النوع من الفساد يمكن أن تصبح ، لو أجرينا دراسة حتى على مثل تلك الأحوال . في الصين في تلك الأيام ، لم يكن المسؤول الحكومي فقط هو الذي ينبغي أن تقدم إليه الهداية أو الهبة المالية ، بل إن زعماء أو قيادات «العالم السفلي» كانوا أيضاً يتطلبونها . رابطة المتسولين ، الجماعات السرية ، عصبيات اللصوص ... كلهم كان لا بد من أن يحصلوا على هدايا مالية لتجنب شرورهم . ويوجد عدد كبير من الجماعات التي تظلم الناس الذين يريدون أن ينعموا بحياة كريمة ، لم يستطع المجتمع أن يقدم كما يجب . لا أحد يريد أن يذل أكثر من الجهد الضروري ؛ حيث إن ثمرة جهده سوف يجنحها المسؤولون وال مجرمون . معظم أفراد المجتمع سوف يقومون بالحد الأدنى من العمل الذي يكفي للحياة ، مادامت أى زيادة ستفيد غيرهم من يظلمونهم ، وهذا إلى جانب أن المجتمع كان دائماً مهدداً ويعيش في خوف ، والأمناء من الناس لا ينضمون بالعدل ؛ لأن العدل لا وجود له في مجتمع فاسد .

كما أن الهدايا المالية أيضًا تقدم أحياناً إلى المسؤولين بغرض تخفيض الضرائب القانونية المفترض دفعها للحكومة ، ومعنى ذلك أن الدولة لا تحصل على العائد المستحق من الضرائب كاملاً ، وبذلك لا تستطيع توفير الخدمات العامة بما في ذلك ما يساعد على مقاومة الفساد ، والتاليـة الختـمة لـذلك هو أن تضعف الدولة ، وربما تـعرض لـالاحتـلال استـنـدـلـ شـعـبـها .

الفساد والضعف الناجم عنه جعل الملايين عرضة ذات يوم لـالاحتـلال الأجنـبي . كان الـاحتـلال يتم عن طريق التهـديد وأحيـاناً أخـرى كان يـكـفـي الـوعـدـ بالـعـونـةـ ، وـيمـكـنـ أنـ فـجـدـ أمـثلـةـ وـاضـحـةـ عـلـىـ ذـلـكـ فـيـ تـارـيـخـ لـاـيـاتـ الـمـلـاـيـوـ . بدـأـتـ لـاـيـاتـ الـمـلـاـيـوـ تـشـيرـ اـهـتمـامـ الـأـجـانـبـ فـيـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ ، وـكـانـ مـنـ الـواـضـحـ أـنـهـ غـنـيـ بـإـمـكـانـيـاتـ الـثـرـوـةـ ، وـلـكـنـ الـحـكـامـ وـالـشـعـبـ لمـ يـكـنـ لـدـيـمـ الـاهـتمـامـ وـلـاـ الـقـدـرـ عـلـىـ إـلـقـادـ مـنـ هـذـهـ إـمـكـانـيـاتـ ، وـخـاصـةـ فـيـ مـجـالـ الـتـعـدـيـنـ . تـقـدـمـ كـثـيرـ مـنـ الـأـجـانـبـ باـقـرـاحـاتـ لـلـحـكـامـ الـحـلـيـنـ لـلـحـصـولـ عـلـىـ حـقـ تـعـيـسـ الـمـوـارـدـ الطـبـيـعـيـةـ . وـفـيـ وـقـتـ قـصـبـرـةـ كـانـ الـحـكـامـ الـحـلـيـنـ قـدـ حـصـلـواـ لـأـفـسـهـمـ عـلـىـ ثـرـوـاتـ طـائـلـةـ عـنـ طـرـيـقـ التـعـاـونـ مـعـ هـؤـلـاءـ الـأـجـانـبـ ، وـمـنـ الـطـبـيـعـيـ أـنـ مـاـ حـصـلـواـ عـلـىـ يـكـنـ يـعـتـرـ ضـرـابـ مـسـتـحـقـةـ لـلـدـوـلـةـ ، وـبـرـغـمـ مـنـ أـنـ الـأـرـضـيـنـ الـتـيـ تـمـ التـنـقـيـبـ فـيـهـاـ مـكـنـ مـلـكـاـ لـأـرـثـاـكـ الـحـكـامـ .

وـمـنـ الـتـعـدـيـنـ وـالـتـنـقـيـبـ اـمـتدـ الـتـعـاـونـ إـلـىـ مـنـحـ الـأـرـضـيـنـ لـأـغـرـاضـ أـخـرىـ ، اـحـتكـارـاتـ الـقـمـارـ وـتـجـارـةـ الـأـفـيـونـ ، وـرـبـماـ جـمـعـ الـضـرـابـ . دـخـلـ الـحـكـامـ النـاشـيـعـ عـنـ تـعاـونـهـمـ مـعـ الـأـجـانـبـ فـاقـ مـاـ يـحـصـلـونـ عـلـيـهـ مـنـ الـشـعـبـ ، الـأـمـرـ الـذـيـ جـعـلـ شـعـورـهـمـ بـالـمـسـؤـلـيـةـ تـجـاهـ الـشـعـبـ يـضـعـفـ ، وـمـنـ ثـمـ أـصـبـحـتـ الـأـولـوـيـةـ لـطـالـبـ الـتـجـارـ الـأـجـانـبـ .

وـعـنـ هـذـهـ الـرـحـلـةـ ، بـدـأـتـ أـطـرـافـ كـثـيرـةـ تـشـعـرـ بـالـغـيـرـةـ . الـأـجـانـبـ الـذـيـنـ لـمـ يـحـصـلـواـ عـلـىـ فـرـصـ مـيـالـةـ بـدـأـواـ يـنـذـرـونـ السـخـطـ وـيـسـعـونـ لـإـسـقـاطـ الـحـكـامـ الـأـثـرـيـاءـ بـأـيـدـىـ مـنـ يـسـتـطـعـ ذـلـكـ فـيـ مـقـابـلـ أـجـرـ ، فـكـانـ أـنـ دـبـ الـعـدـاءـ بـيـنـ الـحـكـامـ وـجـمـاعـاتـ الـأـجـانـبـ ، وـكـانـ يـتـفـجرـ

أحياناً على شكل صدام عنيف؛ فكانت النتيجة سقوط الولايات واحدة تلو الأخرى في أيدي البريطانيين على أثر التلويح بتقديم «المعونة».

ربما يسلو سقوط الولايات الملايو في أيدي البريطانيين مثلاً صارخاً على عواقب الفساد، إلا أن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن الفساد يمكن أن يصل، وقد وصل بالفعل، إلى هذه المرحلة. ويفرض استحالة القضاء على الفساد، أو أنه يمكن بالفعل أن يدمر مجتمعاً إنسانياً؛ فما الذي يمكن عمله إزاء ذلك؟

وجود الفساد، مثل أي جريمة أخرى، لا يعني أن المجتمع قد قبله باعتباره سلوكاً عاماً، إلا أنه بخلاف الجرائم الأخرى يمكن أن يصبح مقبولاً وأن يتشرّ، وأن يمارس علينا إذا ترك لينمو. وكما سبق أن أوضحنا فإن الفساد عندما يصبح سلوكاً عاماً فلن يكون من الصعب فقط القضاء عليه، بل إنه سيكون خطراً على الجميع. من هنا يتضح أنه بالرغم من أن المجتمع قد يقر باستحالة القضاء عليه تماماً، إلا أنه لا يمكن أن يسمح بأن يصبح سلوكاً عاماً ولا يحتاج لأن يظل سراً. ولما كانت الأسباب الحقيقة للفساد، فإنه يظل جريمة لا يبغى الاستهانة بها.

ولو افترضنا أن المجتمع ينظر إلى الفساد باعتباره جريمة لمجرد إدانته الظاهرة، فإن ذلك لا يكفي مهما كانت درجة الإدانة. الأهم من ذلك، والأكثر تأثيراً، هو أن المجتمع لا بد من أن يظهر نفسه من الفساد بشكل مباشر أو غير مباشر، ولكن نضمن ذلك بتبنّي أن يفهم الكل ما المقصود بالفساد. الفهم الشائع لمعنى الفساد هو إعطاء شيء ما بشخص ما يتمتع بفوائد ما، لكن يستغل سلطته لعمل شيء لصالح من أعطاه. الفساد يحدث، مثلاً، عندما يقدّم عدد من الناس للحصول على ترخيص ما، ويحصل عليه من يدفع أو يعطي شيئاً ما للمسئول عن الترخيص، بالرغم من وجود من هم أكثر منه استحقاقاً للحصول على الترخيص، لكن ماذا لو كان من حصل على الترخيص يستحقه فعلاً، ثم تجده يقدم هدية ما في مناسبة ما لموظفي الترخيصات كما يفعل الآخرون، هل يعتبر ذلك فساداً؟ لقد حصل

على الترخيص لأنه مستحق له ، ويقدم الهدية تقديرًا «لإنصاف» الموظف المسئول مثلاً ، فهل هذا فساد؟ على هذا النحو ، لابد من أن يعتبر تقديم الهدايا في المناسبات شكلاً من أشكال الفساد ، إلا أنه ليس من السهل الامتناع عن قبول كل الهدايا ؛ فالهدية التي يقدمها رئيس دولة أخرى يمكن أن تعتبر رمزاً للصداقة . . . وربما شكلاً من أشكال الفساد للإيعاز بموقف سياسي معين أو معاملة خاصة لمواطni تلك الدولة . كيف يرى الناس الهدايا التي تقدم في الأعياد والمناسبات؟

إن سوء استخدام موارد الدولة لابد من أن يعتبر فساداً مثل سوء استخدام السلطة . إذا كان من حق المسئول أن يعطي ما قام به من إتفاق أثناء قيامه بعمله ، ومع ذلك يتطلب أكثر من إتفاقه ، فلاشك في أن ذلك فساد .

وعندما يستخدم مسئول موارد الدولة لخدمة مصالحه ، كأن يقوم ببناء طريق عامة توصل إلى منزله ؛ فهذا فساد . عندما يستخدم وزير سلطاته لتغيير مخصصات لإثباتات أو تسهيلات يفيد منها هو وأسرته أو معاونيه ؛ فهذا فساد . عندما يصل طالب على منحة دراسية ثم يستخدم هذه المنحة لأغراض أخرى ؛ فهذا فساد . تلك كلها حالات فساد واضحة ، ولكن عند الشخص الدقيق فإن الأمر قد يبدو ملتبساً ، وربما على عكس ما يجدوا ؛ أي ما كان يعتبر فاسداً ، قد يبدو غير ذلك تماماً . الوزير الذي يحرص على أن يحصل معاونوه على تسهيلات معينة ، قد يفعل ذلك من باب الإنصاف أو لأنهم يستحقون ذلك بالفعل ، وربما لأنهم كانوا مظلومين . أليس من واجب الوزير أن يعالج الأخطاء؟ هل ينبغي أن يرفض الوزير طلباً عادلاً لمجرد أن يحمى سمعته؟ هل يجب أن يعاني كل من يعمل مع الوزير لأنه يريد أن يحافظ على صورته نظيفة؟ وقل الشيء نفسه عن كل المسؤولين الذين يملكون سلطات معينة ، لابد من أن يكون لهم علاقة بكل من يخدمونهم ، وهذه الخدمة ربما تأخذ شكل الطابة وربما لا .

وأوضح أن أي شيء يقدم أو يتم الحصول عليه سواء كان ترخيصاً أو منحة دراسية أو

أى شىء آخر سيكون هناك كثيرون قد تقدموا للحصول عليه ، وفي مقابل كل واحد من الحصول عليه سيكون هناك كثيرون من لم ينجحوا فى ذلك ويشعرون بالاستياء أو السخط . المسؤول قام بالاختيار ، ولكن هل من السهل أن يقول إنه قد جامل أحد دون وجه حق ؟ إن الذين لم ينجحوا فى الحصول على الترخيص أو الخدمة سوف يقولون ذلك ، ولو أنهم كانوا قد نجحوا لقالوا إنه كان عادلاً ومنصفاً . الأسوأ من ذلك هو أنهم لو كان لديهم الفرصة للاتصال بالشخص المسؤول لطلب معاملة خاصة ، فإنهم لن يتربدوا فى ذلك .

يلاحظ مما سبق أن تعريف الفساد بالرغم من سهولته في الحالات الواضحة ، إلا أنه لا يجد ذلك في معظم الحالات التي تستدعي مثل ذلك الاتهام . عندما يوجه أحد الأفراد الذين فشلوا في الحصول على خدمة معينة اتهاماته ، فإنها تصبح موضع شك ، ولكن من ذا الذي سيوجه الاتهام بالفساد إن لم يكن الشخص المعنى ؟ غير المعنين بالمشكلة لن يعرفوا شيئاً عن المعاناة أو مرارة الفشل أو تفاصيل ماحدث . ومقاومة الفساد لها مشكلاتها الورطة ، ليس فقط لأن مايوصف بأنه فساد ليس كذلك بالفعل ، وإنما كذلك لأن هناك ضرورة لإعطاء سلطات لدوائر معنية للقضاء على الفساد ، وهي سلطات أساسية ، ويع垦 أن يساء استخدامها مثل غيرها من السلطات ؛ يعني أن الأفراد الذين هم ضد الفساد سيكون عليهم أن يتغلبوا على محاولات إفسادهم ، وأن يواجهوها باستمرار لأنما كان موقعهم ، لأن الاتهامات سوف تطولهم سواء أكانوا أتقياء أم لا . وفي الوقت نفسه فإن الاتهام بالفساد سواء أكان له أساس من الصحة أو لم يكن ، فسوف يضعف من الجهد المبذولة للقضاء عليه . على أن الاتهامات قد يكون لها أساس ، وإن لم يكن ، فقد تحول آلية مقاومة الفساد إلى آلية تعزيزه . هذه هي الورطة أو المأزق ؛ حيث لا يمكن أن يستخدم أى نظام مقاومة الفساد دون أن يكون هذا النظام نفسه عرضة لضغط بهدف إفساده .

وللبحث عن مخرج من هذه الورطة ، لن يكون العامل الحاسم هو النظام أو الآية المستخدمة ضد الفساد ، المهم والمؤثر هو نظام القيم في هذا المجتمع . صحيح أن الجميع

مقرنون بأن الفساد جريمة ، وبأنه يجب ألا يمارس ، ويعد الاستخفاف بذلك ، الجميع مقرون بأنه مرض رهيب يصيب المجتمع ، ولكن بالرغم من ذلك عندما تلوح أى فرصة للإفادة منه نجد تباعنا كثيراً بين ما يقال وما يمارس بالفعل .

في الديمقراطيات مثلاً ، هناك فرص كثيرة جداً أمام الناس العاديين لكي يمارسوا الفساد وخاصة أثناء عملية الانتخابات . الهدف الرئيسي من الانتخابات هو اختيار قيادات قادرة ومؤهلة وأمنية ، ولذلك يجب أن يكون السؤال الأول هو :

هل يستطيع هذا المرشح وحزبه أن يديروا شئون البلاد جيداً؟

هل ستصبح الدولة والمجتمع أكثر تقدماً وسلاماً باختيار مرشح معين؟ هل ستحسن الأموال في هذه الدائرة الانتخابية؟ هل سيكون هناك عدل في توزيع جهود الحكومة على الناس؟ وباختصار ، فإن اختيار المرشح لا بد من أن يعتمد على أثره على رفاهية وتقدير الدولة من جميع الجوانب . ولكن ما يحدث عادة أثناء الانتخابات هو أن معظم الناخبين يولون أقصى اعتبار إلى المزايا الخاصة التي يمكن أن يحصلوا عليها في حال فوز المرشح الذي يطلب منهم التصويت لصالحه . الصالح أو المزايا الخاصة لا تنسق مع مفهوم الاستقامة والإخلاص ، وإنما هي في حقيقة الأمر هبات مباشرة للناخبين . وكلما كثرت الوعود بميزات ومنافع خاصة للناخبين (وهذا في حد ذاته ينطوي على عدم إنصاف لآخرين) ، زاد دعمهم وتأييدهم للمرشح .

المرشح ، منذ البداية ، يقدم الوعود للناخبين بتلبية مطالعهم سواءً كان ذلك عدلاماً ظلماً ، بل ربما يكون عليه أن يدهم بإهمال من يكرهونهم بالرغم من الإيجاب الواضح في ذلك . ومثلاً ما يكون على المتقدم للحصول على ترشيص معين أن يلبّي رغبات المستول عن منح الترشيص ، فإن المرشح الذي يطلب الأصوات ، يكون عليه أن يقدم وعوداً بتلبية رغبات الناخبين . وبعد الفوز سيكون عليه أن يفني بذلك الوعود ، وخاصة إذا كان يتبع إلى الحزب الذي شكل الحكومة ، ولا مكان للعدل أو الإخلاص أو التزاهة في الوفاء بذلك

الوعود ، إلا أن ذلك هو كل شيء ، فهو يدرك أن الأصوات يمكن الحصول عليها بتلبية رغبات الناخرين ، ويقوم بالتحضير للانتخابات القادمة بالعمل على تلبية تلك الرغبات مقدما . مرشحو المزب الحاكم يلجمون دائمًا منح أراضٍ ومزايا أخرى قبل الانتخابات مباشرة . وإذا كانت الأصوات قد أعطيت في البداية في مقابل وعود بمزايا خاصة ، تعطى الآن للحصول على الأصوات ، إلا أن مرشحي الحزب الحاكم ليسوا هم وحدهم الذين يفعلون ذلك . المرشحون الآخرون يلجمون إلى ممارسات مشابهة ؛ فهم يقومون بزيارات لدوائرهم الانتخابية لتقديم كل أنواع الخدمات ، يحضرون الأعياد والمناسبات البسيطة في المناطق الريفية ، يصلون في المساجد الصغيرة في المناطق الشعبية ، ويقومون بأشياء أخرى ما كانوا يقروا بها لولا أنهم ينونون التقدم للانتخابات التالية ، وذلك كله نفاق شديد ؛ لأن مثل هذه الخدمات سوف تتوقف لحظة أن يقرروا التقدم للانتخابات .

وإذا كان المجتمع لا يريد الفساد ، فينبغي ألا يخلق المناخ المؤدي إليه . إن حتى الناخب في التصويت يمثل السلطة في يد المستول . الأصوات الانتخابية يمكن أن تشكل مصير شخص ما إلى درجة أن يجعله رئيساً للوزراء ، وأحياناً يكون صوت واحد كافياً ليقرر مصير رئيس الوزراء . معنى ذلك أن الناخب يملك في يده سلطة هائلة . السلطة مفسدة ، والسلطة المطلقة مفسدة كبرى ، وسلطة الناخب يمكن أن تصبح سلطة مطلقة ، والسلطة المطلقة تؤدي إلى الفساد .

المجتمع الذي تكون لديه هذه السلطات الضخمة من السهل أن يفسد ، وهناك بالفعل دلائل على أنه بالرغم من أن الكل يدين الفساد ، إلا أنه فيحقيقة الأمر يدين شكلاً من أشكال يمارسه هو شخصياً . وإذا كان المجتمع يريد أن يقضي على الفساد ، فلا بد لأيمارسه على نحو مباشر أو غير مباشر في الانتخابات . إذا كان هناك فساد في التصويت ، فالاحتمالات كبيرة لأن تكون القيادات التي يتم اختيارها من النوع الذي يميل لاستخدام الفساد للترشح والفوز في الانتخابات . والقيادات التي تتجه لاستخدام الفساد ، سوف

يؤثر عليها الفساد بالطريقة نفسها . لابد من إمعان النظر جيداً في هذه المشكلة والتفكير فيها . كل مرشح وكل حزب عليه أن يتفق ملابيح الدولارات لكي يشارك في الانتخابات . هذا الأتفاق لم يكن ضرورياً ذات يوم ، حيث كان هناك كثيرون مستعدين لتقديم الخدمات طواعية ، كانوا يومنون بالمبادئ التي يتبعها الحزب أو بشخص معين ؛ لأن روح الخدمة العامة هي التي كانت تدفعهم لذلك ، واليوم لا يستطيع شخص فقير أن يتقدم للانتخابات إلا إذا كان وراءه حزب غني .

في وضع كهذا يصبح من السهل جداً أن يقوم الناخبون بالاختيار الخطأ ؟ فإذا كانوا يعتبرون ثروة الحزب مرادفاً للفساد دون إعطاء أي وزن لعوامل أخرى ، قرروا أن يتذبذبوا مرشحاً قفيراً كنوع من الاحتجاج .

هذا توجه سلبي ، إذ قد لا يكون المرشح الفقير جيداً ، أو قادرًا على عمل أي شيء مفيد مثل محاربة الفساد . مثل هذا التوجه السلبي بين لنا أن أعضاء هذا المجتمع ليسوا مستعدين لمواجهة هذه المشكلة بحسن .

المرض الذي يهاجم المجتمع هو الفساد الذي يمارسه المجتمع نفسه ، والعلاج هو تخلص المجتمع من الفساد وليس رفض ما قد يعتبر رمزاً للفساد ، أي ثروة المرشح أو الحزب . وللقضاء على الفساد وآثاره ، يتبعى على كل أو معظم أفراد المجتمع أن يتتجنبوا كل صوره . في إطار الانتخابات ، لابد من أن يكون الاختيار على أساس كفاءة المرشح وأمانته ، وليس على وعوده بأن يقدم لدائرته أو لناخبيه شيئاً ما . وكذلك ، على الذين يريدون أن ينجح مرشح جيد ، أن يكونوا مستعدين للعمل طواعية دون أن يطلبوا مكافأة عن ذلك أو وعد بخدمات أو مزايا خاصة .

قد أرأينا كيف تحطم الديموقراطية في الولايات المتحدة بسبب صور مختلفة من الفساد فضحتها قضية «وترجيت» . والحقيقة أن «لينكون» لم يكن هو الشخص الوحيد الذي بلأ إلى هذا الأسلوب ؛ إذ إن كل المرشحين لمنصب الرئيس والرؤساء الذين سبقوه

كانوا يفعلون الشيء نفسه بالضبط . وهذا نابع من حقيقة أن الانتخابات الرئاسية تتطلب إتفاق مبالغ فلكية ، بينما الغالية العظمى من المؤيدين والناخبين ليسوا مستعدين لتقديم إسهامات تطوعية في ذلك ، وأمام الفقير في التمويل لا يكون أمام المرشح وحزبه سوى قبول المساعدات من الدوائر المهمة (والغنية) . هذه المساعدات قد لا تكون بينها خطوط صلة ، لكن الذي لاشك فيه هو أن متلقيها سوف يشعر بأنه مدین . صحيح أن المجتمع خلع الرئيس ، ولكن المرض الحقيقى - الفساد الذى يمارسه وينميء ، باق ، وقد ثبت ذلك باكتشاف تورط الرئيس كارتر أيضاً فى فضيحة الفساد الخاصة بمستشاره المالى بيرت لاتس .

والفساد ليس مرضًا حديثاً . الفساد مرض قديم ومعروف كجزء من نظام القيم والثقافات في المجتمعات في كل مكان . ومثل كل القيم المتصلة في ثقافة ما ، فإن العبارات أو الأحكام التي تصف الفساد بأنه جيد أو رديء ، لا تدل على أي عمق في الفهم ، وليس ذلك فقط لأن هناك تقصيف فهم معين وأثار الفساد ، وإنما لأن كل شخص لديه معنى وقيمة لنفسه ، ومعنى وقيمة أخرى للآخرين . وهكذا فإن الشخص الذي يدين المحاباة يشعر بأى درجة من تأثير الصغير لمحاباة أو مجاملة له شخصياً عندما تكون هناك فرصة لذلك .

ليس من السهل كتابة فصل كهذا ؛ لأن رد الفعل سيكون محاولة لإثبات أن الكاتب أيضاً يمارس الفساد . على ضوء التفسير الفضفاض للفساد لا يمكن أن يكون أحد نظيفاً . أن يكتب سياسي مقلاً كهذا معناه أنه يؤكّد الفشل في المستقبل تقريراً . المساعدون المحتملون سوف يولون الأدباء خوفاً من الاتهام بالرغبة في المساعدة لأغراض فاسدة ، أو عندما يعرفون أنهم لن يحصلوا على مزايا شخصية نتيجة مساعدتهم . على أنه من المهم والضروري أن نفهم أن الفساد ليس مجرد جزء من الثقافة ، بل على أنه مرض له عواقب ونتائج محددة .

القضاء على الفساد يحتاج إلى الأمانة ، وأى شخص يحاول أن يستغل هذا الفصل من الكتاب لصالحه أو لصالح أهداف حزبه السياسي لن يكون غير أمين فقط ، وإنما هو

يمارس شكلًا من أشكال الفساد ، وهو سوء استخدام السلطة الناجمة عن المعرفة . الفساد الذي يتحول دون القضاء على الفساد هو أسوأ أشكال الفساد .

الفصل العاشر عشر أونتو، والتختدة

مصداقاً للكلمة «الاتحاد» في اسم المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو ، فإن تاريخ «أونتو» حاشد بالجهود المبذولة في سبيل توحيد أبناء الملايو في منظمة وطنية . الاتحاد هو موضوع كفاح هذه المنظمة ، وقد كان مؤتمر منظمات الملايو في «سلطان سليمان كلوب» و«كامبورج باهرو» في شهر مايو عام ١٩٤٦ هو الذي صنع وحدة الملايو من خلال «أونتو» ، وال العلاقة الوثيقة بين «أونتو» و «پاس» (الحزب الإسلامي الماليزي) في أوائل السبعينيات تبرهن كذلك على أن هدف «پاس» و«أونتو» هو وحدة الملايو . إننا نتفق عندما نتحد ، ونسقط عندما نتفرق . «أونتو» أو PEKEMBAR (الاسم المختصر للحزب بلغة الملايو) سوف يجد مكاناً في سجل التاريخ باعتباره قوة من أجل الاتحاد . وتوحيد أبناء الملايو ليس بالأمرسهل ، كما يدلنا التاريخ على أن أبناء الملايو في شبه الجزيرة والأرخبيل يتفرقون أكثر مما يتحدون .

النظام السياسي الملايو يؤدي إلى الشقاق . يعيش في شبه الجزيرة والأرخبيل ملايويون يتمنون إلى العرق نفسه ومتشاربون في اللغة والثقافة ، ومن الطبيعي أن تؤدي مثل تلك الظروف إلى قيام دولة واحدة تحت حكم واحد ؛ ففي أوروبا ، على سبيل المثال ، ظهرت الدول العظيمة والقوية إلى حيز الوجود نتيجة للهوية اللغوية والثقافية والجغرافية ، وبالرغم من وجود رؤساء أقاليم بالوراثة في بريطانيا وألمانيا وغيرهما من الدول الأوروبية ، إلا أن الدولتين تحت حكم واحد وعلم واحد ، كما أن الصين بالرغم من ضخامتها ووجود لهجات متعددة بها ، وإن كانت تشتراك في أصل واحد ، إلا أنها استطاعت أن تكون دولة واحدة ، والأمر نفسه ينطبق في اليابان وكorea وفارس (إيران) .

أما بالنسبة لأبناء الملايو في شبه الجزيرة والأرخبيل ، فإن تشابه اللغة والثقافة لم يؤدي إلى ظهور دولة واحدة . النظام السياسي الملايو يشجع على وجود ولايات صغيرة تتمتع

بالحكم الذاتي . كانت آشن Achen في سومطره مثلاً مفتتة إلى ما يزيد عن ٣٠٠ ولاية صغيرة ، وكان لكل منها ملك عندما قام الهولنديون بغزوها واحتلالها . أما بالنسبة لشبه الجزيرة فليس معروفاً على وجه الدقة كم كان عدد الولايات الموجودة بها قبل الاحتلال البريطاني . كانت «سونجاي أوجننج» ولاية ذات يوم ، وكذلك «ناخنج» ، وفي «كيداه» ت molt «بيرلس» إلى ولاية مستقلة ، كانت «كريانج باسو» ولاية مستقلة أيضاً لها ملكها الخاص .

بعد غزو القوى الأجنبية من هنا وهناك ، أصبحت الولايات الملايوية أكثر انتساماً . كان هناك دائماً ملك على استعداد لأن يساعد القوى الأجنبية تحقيقاً لكسب شخصي ، فقد برزت سنغافورة إلى حيز الوجود ؛ لأن أحد الملوك كان على استعداد لتسليم ذلك الجزء من إمبراطورية «چوهور» ، كما أن ترقى كيان «چوهور-ريان» يرجع إلى حدث مشابه ، وهو استعداد أحد الملوك لقبول الحكم الهولندي .

حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، كان أبناء الملايو في شبه الجزيرة ما زالوا يضيقون الأفق في تفكيرهم ، ويدلون بالولاية لولائهم وحكامهم ، وكانت جنسية الدولة تعرف في كثير من الدساتير باعتبارها مواطنة في الولاية ، لم تكن هناك مواطنة عامة لكل الولايات شبه الجزيرة ، كما أن المواطنة لم تكن مجرد إجراء شكلي ؛ إذ لم يكن مواطن ولاية ما يتمتعون بأى حق في ولاية أخرى . كانت المنح الدراسية في «كيداه» مثلاً مقصورة على «أبناء أو مواطنى كيداه» ، وفي حال عدم وجود مواطن من «كيداه» كان يتم قبول أي بريطاني أو هندي من المتقدمين للوظيفة ، بينما لا يستطيع أحد آخر من أبناء الملايو من ولاية أخرى أن يحصل على منحة أو وظيفة .

كما يتضح لنا من تاريخ الملايو أن الفرقه والعزلة كانت من الأمور العتادة ؛ حيث لم يكن هناك تشجيع على الوحدة ولا كان ذلك بالأمر العتاد ، كان الموجود في الجزيرة والأرخبيل نظام يعتمد على التقسيت والتجزئة أي التقسيم إلى وحدات أصغر فأصغر ، وقد توقف هذا الأسلوب في الممارسة في عام ١٩٤٦ عندما شكل مؤتمر المنظمات الملايوية في

شبه الجزيرة حزبا سياسيا باسم المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو ، وكان اختيار هذا الاسم بسبب أن العالم في ذلك الوقت كان لديه إيمان قوي بمنظمة الأمم المتحدة كوسيلة لإيقاف الحرب وبناء عالم جديد ، عالم متعدد وليس منقسم .

فإذا كانت دول العالم تؤمن بالاتحاد ، فإن أبناء الملايو أيضاً لا بد من أن يصتعموا آمالهم على الاتحاد لمقاومة خطر التحرك البريطاني لوضع ولايات الملايو تحت الحكم البريطاني المباشر ، وهكذا ولدت «أومنو» أو PEKEMBAR ، وهي منظمة لتوحيد طاقات أبناء الملايو «تفق عندما تتحد» ، وقد حقق أبناء الملايو الوحيدة في المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو ، ووقفوا بقوة .

ومع صيحة «عاش أبناء الملايو» بدأ الملاييون يعيشون باعتبارهم دولة وليس كمواطنين في الولايات صغيرة ضعيفة ، كما أصبح هذا الشعار «عاش أبناء الملايو» هو شعار «أومنو» و«الاتحاد» هو التطبيق ، ولكن بالرغم من أن روح الاتحاد كانت قوية إلا أنه لم يكن من السهل القضاء على ضيق الأفق واللامات الضيقية للتنظيمات المختلفة في «سلطان سليمان كلوب» ، وأن «أومنو» هو اتحاد فيدرالي للمنظمات الملايية ، فإن مصلح «الاتحاد» لا يشير إلى «الوحدة» ، وإنما إلى اتحاد فيدرالي في إطار «أومنو»؛ حيث إنه كانت هناك منظمات مستقلة واقتصرت على التعاون . كان هناك في كل ولاية على حدة منظمتها ، كما كانت هناك كيانات شبه حزبية ، مستقلة عن التنظيم السياسي للولاية ومتسبة إلى «أومنو» .

في كیداه ، كان «كيساتوان ميلابو كیداه» هو الحزب السياسي الوطني للولاية ، ولكن «سيبروكاس» ، التي لم تكن منظمة سياسية مائة بالمائة أصبحت أيضاً عضواً في «أومنو» ، كما كانت هناك مواقف مشابهة في الولايات الأخرى مع منظمات مختلفة تمثل أبناء الملايو في إطار «أومنو» .

وكان الصراع ضد اتحاد الملايو بقيادة «أومنو» التي كانت ماتزال اتحاداً فيدرالياً وليس

كيانا كاملاً بذاته ، وقد أثبت نجاح «أومنو» في هذا الجهد الأولى مزايا الوحيدة - عن العمل بشكل مت Fletcher - في التضليل السياسي الذي لم يكن يشمل أبناء الملايو فقط ، وإنما الولايات كلها . ولو كانت الولايات الملايو قد عملت متفرقة في معارضة اتحاد الملايو ، لما كان البريطانيون استسلموا ورضخوا ، ولكن الوحيدة التي تجلت في «أومنو» جعلت منه قوة لم يستطع البريطانيون تجاهلها (بالرغم من أنهم كانوا راقية علمية في ذلك الوقت) .

و بعد النجاح في إزاحة اتحاد الملايو ، وجدت «أومنو» نفسها بلا هدف ، كما فقد الاتحاد رونقه كهدف أيضاً ، ولكن بعد أزمة قيادة ، بدأ الوجهون مرة أخرى من أجل الاتحاد ، فكانت النتيجة أن المنظمات التي كانت مجرد أعضاء متسبة في «أومنو» نجحت في توحيد نفسها في إطار «أومنو» واحدة تمثل كل أبناء الملايو من المؤمنين بقضية المنظمة . وحلت أحزاب «أومنو كيداه» و«أومنوبراك» و«أومنو سنغافورة» محل منظمات مثل «كيساتوان ميلابيو كيداه» و«بيراك مالاي ليج» و«كيساتوان ميلابيو سنغافورة» ، وبقي «سيبير كاس كيداه» لبعض الوقت منظمة مستقلة عن «أومنو» ولكن داخل الإطار ، وفي النهاية لم يعد هناك وجود «سيبير كاس» .

على أن عملية توحيد «أومنو» لم تنته بتوقف المنظمات المنسبة إليها . كان حزب «أومنو» في كل ولاية له استقلاليته القوية ، وغالباً ما كان يعمل دون تنسيق مع الكيان الرئيسي . كانت الفيدرالية موجودة على هذا الشكل ، ولكنها انتهت عندما بدأت الأقسام كلها تعامل مع المركز ، وأصبحت المنظمة التابعة للولاية مجرد هيكل اتصال ، وبهذه الخطوة النهائية أصبح «أومنو» كياناً حقيقياً . جميع الأعمال والسياسات يتم إقرارها في المركز عن طريق هيئة تمثل كل الأعضاء ، وكان المجلس الأعلى لـ «أومنو» هو الهيئة التي لها كل هذه السلطات ، التي كانت بدورها تتبع الجمعية العامة ، أكبر الهيئات جمبيعاً ، والتي تمثل وحدة الأعضاء في «أومنو» .

إلا أن حزب «أومنو» لم يوجد لذاته فقط ، «أومنو» موجود من أجل أبناء الملايو ،

والاتحاد المنشود هو اتحاد أبناء الملايو ، إلا أن وحدة «أومنو» لاتعني ، بعد ، وحدة أبناء الملايو . الاسم هو اتحاد الملايو ، إلا أن أبناء الملايو كانوا مازالوا متفرقين في منظمات سياسية مختلفة ، بعضها يعارض الآخر .

وبالرغم من أنها كانت رأينا كيف تحققت الوحدة تدريجيا في داخل «أومنو» ، إلا أن مؤتمر منظمات الملايو في ١٩٤٦ فشل في إقناع أحد أحزاب الملايو السياسية الرئيسية ، وهو الحزب القومي الملايو - MNP بقبول مفهوم «أومنو» عن الوحدة . الحزب القومي الملايو رفض الوحدة دون أيديولوجيا ، وحيث إنه كان يضع الأيديولوجيا قبل الوحدة الوطنية ، فإنه لم يتضمن إلى الاتحاد المسمى «أومنو» بالرغم من أن كل الكيانات المتسبة كان يمكنها الاحتفاظ بهويتها .

بعد ذلك اتجذب أبناء الملايو إلى أحزاب مختلفة نشأت لأسباب متعددة ، وكان من بين تلك الأحزاب «حزب استقلال الملايو - IMP» و«حزب نيجارا - PN» والحزب الإسلامي PAS ، والأخير هو الذي بقي حزبا رئيسيا بدعم قوى من أبناء الملايو . لم ينجح «أومنو» في أن يجعل كل أبناء الملايو يتضمنون إليه مهما كانت الرغبة التي يقدمها . ظل البعض على تأييدهم للحزب الإسلامي ، ولم تتحقق وحدة أبناء الملايو ، ولم يتمكن يكيمبار أو «أومنو» من تحقيق هدفه الأساسي وهو وحدة أبناء الملايو . وفي نهاية الأمر ، قبل قادة «أومنو» هذه الحقيقة ، عندما أدركوا أن وحدة الملايو ينبغي الاتساع بالضرورة الوحدة داخل «أومنو» ، وحيث إن «أومنو» لم يوجد من أجل «أومنو» وإنما من أجل كل أبناء الملايو ، عندما بذل ذلك واضحا ، بدأ التوجهات تتغير ، وكان ذلك التغير هو الذي جعل التعاون بين «أومنو» و«باس» ممكنا ؛ أي بين أبناء الملايو بعضهم البعض .

لم تتحقق الوحدة داخل «أومنو» ، ولكن وحدة الملايو تحققت ، وتحققت هذه الوحدة تغيرت دولتنا ، وببدأ ما كان مستحيلا بالنسبة لأبناء الملايو ممكنا في ظرف عامين ،

ولاح أمامهم مستقبل أفضل لأنهم متهددون . الحزب السياسي مجرد وسيلة . المهم هو الوحدة ، وهي التي تحقق النجاح .

لقد حقق «أونتو» هدفه الأساسي وهو توحيد أبناء الملايو ، كما تام تحقيق أحد الطموحات الأساسية للمنظمة الوطنية لاتحاد الملايو . كان «أونتو» من البداية يسعى من أجل الوحدة ، إلا أن ممارسة الديمقراطية ، بما فيها من انتخابات ، قد نحت الوحدة جانبها أو ربما أهملتها ، وتختضت أحدهات ١٩٦٩ عن صدمة ووعي ، ونتيجة لهذا الوعي انبعثت من جديد جهود توحيد أبناء الملايون ، وتحقق التعاون بين «أونتو» و«پاس» ، وكان هذا التعاون هو ذروة نضال «أونتو» بقيادة رئيسه الثالث «تون عبد الرزاق» .

بيد أنه ليس من السهل دائمًا التغلب على العادات والتقاليد ، إذ بينما كان أبناء الملايو من ذوى التفكير السليم ، والذين يشكلون الأغلبية ، بينما كانوا سعداء بالوحدة من خلال تعاون «پاس—أونتو» ، إلا أنه كانت هناك جماعات بعينها تنظر إلى هذا الإنجاز بعين الحسد .

لم يكن لهم دور في هذه الوحدة ، ولم يلفتوا انتباه العامة إليهم ، ومثليما كان هناك ذات يوم ملوك بلا عروس مستعدون لخيانة شعوبهم بسبب الجشع من أجل السلطة ، كانت تلك الجماعات هي الأخرى مستعدة للجوء إلى أي وسيلة لتخريب وحدة أبناء الملايو خدمة لأهدافهم الخاصة ، واستخدمو العرق والدين واللغة وغيرها من أجل تحقيق ذلك .

إن وحدة أبناء الملايو مهددة مرة أخرى قبل أن يتحقق لهم الأمن والسلام ؛ فهل يستطيع «أونتو» أن يتغلب على هذا التحدى الجديد؟ هل يستطيع مواصلة النضال من أجل الوحدة؟ أم ترى ستنهزم الملايو التي احتلت على مدى أربعين عاماً ، وتستبعد مرة أخرى لأن الاتحاد ليس عادة ملايوية؟

الفَصْلُ الْتِرْبَعُونَسُمَالِيَّةِ .. إِلَى أَيْنَ

أعطى فوز حزب التحالف في الانتخابات العامة في عام ١٩٥٥ الفرصة لـ«تنكرو عبد الرحمن» لكي يكون رئيساً لوزراء اتحاد الملايو، وتبع ذلك قيام وفد، ترأسه هو شخصياً، بزيارة إلى المملكة المتحدة للتفاوض مع البريطانيين على استقلال ولايات الملايو. غادر الوفد إلى سريلانكا بحراً ومنها إلى أوروبا جواً، حاملاً تفويضاً من الشعب ومن حكام الملايو للمطالبة بالحصول على الاستقلال في عام ١٩٥٩، وبالرغم من أن «أونمنو» هو الذي كان قد حدد التاريخ، إلا أن شباب الحزب «أونمنو» كان يبحث «تنكرو» على المطالبة بالاستقلال في ١٩٥٧، أي قبل الموعد المحدد بعامين.

وعندما عاد وفد «ميرديكا» إلى البلاد، أعلن «تنكرو عبد الرحمن» في استقبال تاريخي في «ميلاكا»، أعلن أن البريطانيين قد وافقوا على منح الاستقلال لشبه جزيرة الملايو في عام ١٩٥٩، ثم أضاف قائلاً «وكما كان يطالب شباب أونمنو» إن الاستقلال سوف يتحقق في ١٩٥٧ «إن أمكن». وبالرغم من أن الاستقلال قد تحقق بالفعل في ١٩٥٧، إلا أن استخدام «تنكرو» لعبارة «إن أمكن» قد عكس بوضوح تلك الشكوك التي كانت تساور جماعات كبيرة من في ذلك قادة الملايو آنذاك بخصوص استقلال ولايات الملايو.

والحقيقة أنه كانت هناك منظمات سياسية في الملايو تعارض الاستقلال صراحة، وجعلت من ذلك برنامجاً لها في انتخابات عام ١٩٥٥.

هذه الشكوك من الصعب أن يفهمها الجيل الحالي الذي نشأ في ماليزيا مستقلة، لكن الشكوك في إمكانية أن يبقى اتحاد الملايو ويظل مستمراً بعد الاستقلال، كانت شكوكاً حقيقة عند المطالبة بالاستقلال. أما أسباب تلك الشكوك فكانت هي التطورات السياسية في شبه الجزيرة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية والأوضاع العرقية والاقتصادية آنذاك.

إن تاريخ الاحتلال البريطاني للملابي حافل بالاستغلال؛ فقد جاءوا بأعداد ضخمة من العمال غير المهرة والخماليين من الهند والصين لبقاء العمل في المزارع والمناجم، واحتذت سياسة الهجرة المفتوحة على مصراعيها الأجانب لدرجة أن عددهم زاد عن إبناء الملابي الأصليين.

وعندما احتل اليابانيون شبه الجزيرة في عام ١٩٤٢ كان سكانها مقسمين بالفعل - وبشكل ثابت - إلى ثلاث جماعات رئيسية هي: إبناء الملابي الأصليون، والصينيون، والهنود. ولم تكن الوحدة هي المفتقدة فقط بين هذه الجماعات، بل إن العلاقات بينها كانت ضعيفة لدرجة أنهم كانوا يتحولون إلى أعداد بسهولة شديدة، وكل ما فعله الحكم الياباني هو أنه وسّع الهوة بين هذه الجماعات.

هزعة اليابانيين وتآخر البريطانيين في إرسال قوات لتولى زمام السلطة في ولايات الملابي، أعطى الفرصة للعصابات الشيوعية، والتي كانت مكونة من صينيين بنسبة مائة في المائة، أعطاها الفرصة لارتكاب كل الفظائع والأعمال الوحشية ضد إبناء الجماعات المختلفة، الأمر الذي عمق كراهية إبناء الملابي للصينيين، كما كان الصينيون بدورهم يحملون المشاعر نفسها لإبناء الملابي. وقعت أحداث دامية كثيرة بينهم، في الوقت الذي كان فيه الهند مستغرقين في النضال من أجل استقلال الهند؛ ف quo خارج الحركة السياسية في الملابي، وكانتهم غير موجودين بالمرة. الاقتراح البريطاني، في ظل هذه الظروف، بيعطى وضع شرعي متساو لكل الجماعات في مستعمرة بريطانية تسمى اتحاد الملابي، هذا الاقتراح الذي كان من بنات أفكار «وايت هول - لندن»، عمل فقط على تعميق الانقسام العرقي وزيادة التوتر في شبه الجزيرة، ثم زادت الأمور سوءاً عندما شن الشيوعيون - وكانوا كلهم من الصينيين - حرب عصابات في عام ١٩٤٨ لانتزاع السلطة من يد البريطانيين.

في خضم كل هذا التوتر، وفي ظل حكم الطوارئ، كان على ولايات الملابي أن تعيد إحياء الخدمات العامة والمرافق التي دمرت على مدى ثلاث سنوات من الحكم الياباني

والسياسي ، وزاد عدد الموظفين البريطانيين عما كان عليه بعد الحرب ؛ فكانت التسليمة أن أصبحت كل الأمور الإدارية المهمة في أيدي موظفين أجانب ، بينما أبناء البلاد لا يجدون فرصة للتدريب أو لإظهار كفاءتهم .

والواضح أن الأحوال في ولايات الملايو في شبه الجزيرة كانت غير مستقرة وملوأة بالمشكلات ، وعند تقديم طلب الاستقلال كانت تلك المشكلات قد فاقمت ، وأصبحت أكثر خطورة . كانت المشكلات كلها متصلة ببعضها ، يید أنه يمكن تصنیفها إلى أربعة أقسام :

أولاً : كانت مشاعر الاتساع للجماعة قوية والعلاقات بين الجماعات شديدة التوتر .

ثانياً : كانت العصبيات مازال نشطة ، ولم تكن الحرب في حاجة إلى قيادات كفء فقط ، بل إنها كانت مكلفة مادياً وتحتاج إلى طاقة ، بالرغم من أن المعونات البريطانية كانت مازال موجودة . معظم المناطق بعيدة عن المدن الكبيرة نسبياً ، كانت باعتبارها «مناطق إسلام» ، أي أن حرية الحركة والعمل فيها كانت مقيدة .

ثالثاً : كان اقتصاد البلاد ضعيفاً ، ومن الصعب إنشائه بسبب عدم توفر الظروف السلمية ، لم يكن هناك مصانع ، بل إن الصناعات التقليدية نفسها مثل صناعة القصبier والمطاط لم تكن قد عادت إلى العمل بالكامل ، كما كانت أعمال الاستيراد والتصدیر وغيرها من أشكال التجارة في بدايتها ، ولم تحقق شيئاً للحكومة على شكل عائدات أو ضرائب .

وأخيراً ، كان عدد العاملين المحليين في الحكومة ضئيلاً ، ولا توجد أمامهم فرص لشغل مراكز مهمة . المراكز والواقع المهمة كان يشغلها موظفوون بريطانيون مسئولون فقط أمام حكومة الاستعمار وليس أمام الشعب . وفي حال ترك الموظفين البريطانيين للعمل ، كان يمكن أن يصاب الأداء الحكومي بالشلل .

في ظل هذه المشكلات الرئيسية ، ليس من الغريب أو ما يدعو للدهشة إلا يكون اليمان بالاستقلال قوياً بين كل الجماعات باستثناء شباب «أونتو» . كان المسؤولون البريطانيون ورجال الأعمال وعدد كبير من سكان شبه الجزيرة يعتقدون أن اتحاد الملايو سوف يشهد أيام سوداء ، وربما لحق به الدمار لو أنه أصبح مستقلاً . كانوا ، على وجه التحديد ، يتوقعون حرباً عرقية واضطراباً في كل الأنشطة والأعمال التجارية والصناعية . في مثل هذه الحالة من الفوضى ، كانت آليات الحكم تحت قيادة الموظفين المحليين ، وخاصة أبناء الملايو منهم ، لابد من أن تضعف ويعريها الفساد ، وألا يصبح لها الفعالية والاحترام التي كانت تتمتع بهما حكومة الاستعمار البريطاني بدعم من «وليت هول-لندن» .

لم تكن توقعات دمار اتحاد الملايو المستقل مفعوس خيال ، كانت هناك أمثلة كثيرة على دول خرجت من تحت الاحتلال البريطاني لكي تواجه أزمات كبيرة . حكومة الدولة المستقلة حديثاً إما أن تكون عديمة الكفاءة أو أن تتجه إلى الدكتاتورية والاستبداد . الاقتصاد ينهار ، وتصبح أحوال الناس أكثر سوءاً مما كانت عليه في الفترة الاستعمارية ، وقد حدث ذلك بالفعل بالرغم من أنه لم يكن من الضروري التكيف مع المشكلات التي كان يواجهها اتحاد الملايو في الوقت الذي كان يريد فيه الاستقلال .

وكان المشكلات الأربع لم تكن كافية ، فقد فرض البريطانيون نظاماً ديقراطياً للحكم شرعاً للاستقلال . لم تكن الديقراطية معروفة باعتبارها نظاماً للحكم في هذه المنطقة من العالم ، كما لم يكن قادة المستقبل لاتحاد الملايو على دراية أو خبرة ببعضها . نظام حكم الملايو البريطاني نفسه لم يكن ديقراطياً ، ولم يصح غواصاً لقيادات الملايو ، ولم يكن من السهل إدارة دفة الحكم أو أن يأخذ بالاعتبار والآراء المختلفة للناس كما كان الأمر سهلاً بالنسبة للحكم الشمولي في الفترة البريطانية . وبالرغم من ذلك لم يفرض البريطانيون هذا الشرط فقط ، بل إنهم وضعوا في دستور اتحاد الملايو شرطاً ينص على ديقراطية كاملة كما تمارسها وتطبقها الدول الأوروبية التي كانت تعرف الاستقلال قبل قرون .

وبالرغم من إقبال كاهله بهذه المشكلات الهائلة ، إلا أن اتحاد الملايو أصبح مستقلا دون معاناة من العواقب المترقبة ، فلم تقع صدامات عرقية ، بل إن هجمات العصابات الشيوعية ضعفت وتم سحقها تماما بعد الاستقلال بثلاث سنوات . كانت هزيمة الشيوعيين إنماز غير عادي ، وهو ما لم يحدث في فيتنام ودول أخرى بالرغم من المعونات الشاملة من الولايات المتحدة وهي قوة عالمية عظمى . لم تنجم هزيمة الشيوعيين عن وجود القوات البريطانية ، وقوات الكومونولث ، وإنما كانت جذور الهزيمة مخروسة في قدرة الحكومة المستقلة لاتحاد الملايو على تشكيل التوجهات وحشد الجهد بكفاءة .

ويعد انتهاء فترة الطوارئ ، ركزت الحكومة اهتمامها وجهدها على التنمية بالمعنى الكامل للكلمة . ولأول مرة أعطى اهتمام تقديم التسهيلات الحديثة مثل الطرق وإمدادات الماء والكهرباء والمستشفيات والمدارس إلى آخره . وفي المدن تم تشجيع الصناعة والتجارة بشكل إيجابي عن طريق الحواجز المختلفة ، كما أسهمت الحكومة نفسها برأس المال ، وشاركت في الصناعة والتجارة ، وبذلك انتشرت المصانع بمعدل سريع . أبناء الملايو الذين لم يكونوا يملكون محلاصغيرا واحدا في المدن ، أصبحت أمامهم الفرصة والمعونة ، وقد نجح كل من أفاد من تلك الفرص بدرجة أثارت الغيرة في تفوس الآخرين .

لكن الإنماز الذي نادرا ما يتم تقديره حق قدره أو تسلیط الضوء عليه ، فكان هو إدارة شؤون البلاد بواسطة مسئولين محليين ، في ظل نظام ديمقراطي شديد التعقيد . بعيدا عن توقيع الانهيار كبر الجهاز الإداري وأصبح أكثر تعقيدا بعد إيهام خدمات الموظفين الأجانب . المسؤولون الحكوميون ، ليس عليهم اليوم فقط أن يولوا اهتماما خاصا للرغبات الناس كما يعبر عنها مثلهم المنتخبون ، بل إن عليهم - إلى جانب ذلك - أن يواجهوا تحديات مرؤوسيهم عن طريق اتحادات العمال التي ازدهرت من الاستقلال .

لابد من أن يسجل ذلك كله ؛ حيث إن ذاكرة الإنسان ضعيفة ، بينما هذا البلد مستقل الآن منذ ثلاثة عقود . في خلال هذه العقود الثلاثة ، كبر كثيرون من كانوا صغارا

قبل الاستقلال ولم يكونوا مدركون لما حولهم من فوران . لم يجربوا مراراً وألم الحياة كشعب تحت الاحتلال ، ولا كانوا على وعي بالشكوك في مستقبل الاستقلال . لم يكن الاحتلال من قبل دولة أجنبية يعني شيئاً بالنسبة لهم ، ولا يمكنهم أن يعقارنوا بين أن يحكمهم أبناء وطنهم أو قوة استعمارية ، وحيث إنهم لا يستطيعون عقد مثل تلك المقارنات ، فمن الصعب أن يقدروا ما لديهم الآن حق قدره . كل ما يستطيعونه هو المقارنة بين الظروف القائمة وما يصبوون إليه ، وحيث إن المرء لا يستطيع دائماً أن يتحقق ما يصبو إليه ، فلا بد من أن تكون تلك المقارنات مجيبة .

هذا الإحباط هو الذي يوسع الفجوة بين الأجيال ، الأمر الذي يؤدي إلى سوء الفهم وتصادم الآراء ، وكلما اتسعت الفجوة قوى الصراع والصدام . هذا الصراع ، أو المواجهة الناجمة عن سوء الفهم من المؤكد أن ضررها أكثر من نفعها . الجيل الأكبر مستول عن تدريب الجيل الجديد وتشكيل توجهاته ، ذلك الجيل الذي سوف يتسلم منه ذات يوم زمام الأمور ، والجيل الأصغر يرى في جهود الجيل الأكبر ظلماً ، ويصارع من أجل القضاء على ذلك الجيل المختلف من وجهة نظره .

وفي ظل القيادة المحلية التي تضم أغلبية من أبناء الملايو ، فإن ولايات شبه الجزيرة بالإضافة إلى «صباح» و«سارواواك» قد حفقت تقدماً فاق كل التوقعات . الرأي العام في الداخل والخارج مجمع على أن ماليزيا لديها الإمكانيات والقدرة على أن تظل قوية ومتقدمة لو أنها حافظت على استقرارها الحالي . والسؤال هو : هل يكون هذا الصراع بين الجيلين القديم والمحدث في ولايات الملايو في شبه الجزيرة سبباً في إضعافها؟ هل تدمير الأفكار اليسارية واليمينية بين الأجيال الجديدة النظام الذي نجح طويلاً في الحفاظ على وحدة واستقلال ماليزيا؟ وبصيغة أخرى . . . إلى أين تتجه ماليزيا؟

بالرغم من أن المشكلات التي ذكرناها قبل قليل لم تؤثر على نجاح ماليزيا المستقلة ،

إلا أنها لم تختف . كل العوامل التي تهدد البلاد ما زالت موجودة ، صحيح أنه قد تم التقليل من آثارها أو وضعها تحت السيطرة حتى لا تعرق التقدم ، إلا أنها ما زالت موجودة .

ما زال الولاء المتعصب للجماعة الاجتماعية خطراً يهدد السلام ، وأى عمل آخر من قبل أي جماعة يمكن أن يثير أحداث شغب ، ولابد من أن تكون شديدة الانتهاء للسيطرة على الأعمال التي تتطوى على توجهات متعصبة للجماعة الاجتماعية . أما إذا كانت تلك السيطرة شديدة الصرامة أو شديدة التراخي فإن المشاعر الجماعية يمكن أن تستيقظ . الاعتدال مطلوب ، ولكن ماذا يعني الاعتدال؟ إن الإجراء المعتدل من قبل الحكومة تجاه جماعة اجتماعية ما ، قد يعتبر إجراء متطرفاً في نظر تلك الجماعة ، أو ضعيفاً في نظر جماعة أخرى .

الأخطاء الشيوعية ما زالت تهدد الدولة ، وإذا كانت ماليزيا قد استطاعت في وقت ما أن تحصل على مساعدة البريطانيين لقاومة العصابات الشيوعية ، فإن هذه المساعدة ليست موجودة اليوم ، علاوة على أن المناطق التي يدافع عنها الماليزيون قد اتسعت . لم يعد بين الشيوعيين أنصاف المتعلمين ، لقد أصبحوا أفضل تعليماً ، ويستطيعون التخطيط لتحرر كفهم وصنع أسلحتهم واستخدام الوسائل الحديثة وشق طريقهم خلسة في كل مستويات المجتمع . لقد أصبحت مقدرة وكفاءة الحكومة على إحباط جهود العصابات الشيوعية وإفشل مخططاتها ، أصبحت أكثر أهمية عن ذى قبل ؛ فهل هذه المقدرة والكفاءة موجودة؟ وهل يمكن أن تتقدم على نحو أسرع من تكتيكات العصابات؟

أما في مجال الاقتصاد فقد زادت المشكلات عدداً وتعقيداً . عدد الذين يتخرجون في المدارس ويبحثون عن عمل يتزايد بمعدل سبع عاماً بعد عام ، ولواجهة ذلك لابد من توسيع مجال التجارة والصناعة ، لكن التجارة والصناعة لابد من السيطرة عليهما بما يتفق مع سياسة تنمية اقتصادية متوازنة بين الجماعات الاجتماعية ولضمان أن تكون المخصصات

الصناعية محتكرة في يد الأجانب ، بالإضافة إلى ضرورة السيطرة على نشاط اتحاد العمال لإزالة مخاوف المستثمرين الجدد .

وإذا كانت النواحي الاقتصادية قد كدست ذات يوم لإصلاح صناعات المطاط والقصدير ، فإن قطاعات أخرى جديدة يتم إصلاحها اليوم بشكل مباشر أو غير مباشر . وبين الحاجة لتوسيع الأنشطة الاقتصادية لزيادة فرص العمل والعائد القومي من جانب ، وتحقيق أهداف السياسة الاقتصادية الجديدة من جانب آخر ، أصبحت إدارة اقتصاد البلاد أكثر تعقيدا منها في الدول المتقدمة ، وبالرغم من ذلك ، فإن ماليزيا لا تستطيع أن تتجنب المنافة مع تلك الدول .

وحيث إن المشكلات التي ذكرناها قد أصبحت أكثر تعقيدا وتداخلا ، يصبح من المهم جدا أن يكون هناك إدارة أكثر كفاءة وسلامة . أصبح من الضروري زيادة عدد الموظفين الإداريين وتوسيع مجالات الإدارة ، كما أن المؤسسات والهيئات شبه الحكومية التي أنشئت لتطبيق سياسات اقتصادية - سياسية ، قد أخذت أدواراً أوسع وأشمل لم تكن تقوم بها من قبل . في الماضي ، كانت الإدارة معزولة عن الناس ، واليوم مطلوب من رجال الإدارة أن يكونوا أقربين من الناس ، وأن يهتموا بمتطلبيهم ، وأن يتقبلوا النقد من الجميع .

من الواضح أن المشكلات والتعقدات التي تواجهها ماليزيا اليوم قد تصاعدت عنها في تلك السنوات التي أعقبت الاستقلال . الدول التي حصلت على استقلالها مع ماليزيا إما أنها تحطم了一 أو تغيرت طبيعتها ، بعضها انتهى إلى دولتين والبعض الآخر لم يعد كيانات قومية مستقلة ، كما أن البعض أصبح أداة في يد القوى الأجنبية . كل هذه الدول الجديدة تقريبا رفضت أو توقفت عن ممارسة أشكال الديمقراطية التي ورثتها واختارتها عند حصولها على الاستقلال .

هل تتخذ ماليزيا أيضا هذا التوجه؟ هل ستكون الحكومة الديمقراطية ضعيفة لدرجة العجز عن التغلب على تلك المشكلات التي ذكرناها ، وهل تحمل محلها دكتاتورية؟ أم ترى

سوف تصاب ماليزيا بالشلل ثم تفسخ في النهاية لأنها لا تستطيع أن تحل مشكلاتها؟ أم ترى أن تحقق ذلك كله سوف يجعل الماليزيين وقيادتهم يعملون معاً للحفاظ على سلامه وسيادة ماليزيا والمواصفات التي جعلتها إلى الآن أمة متعددة الأعراق ، ناجحة ومتقدمة بالمعنى الصحيح؟ ماليزيا .. إلى أين؟

فَرَس

الأَغْلَامُ

- ابن بطرطة . ص ، ٣٥ .
- ابن خلدون . ص ، ٣٥ .
- ابن رشد . ص ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤١ .
- ابن سينا . ص ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ .
- ابن الهيثم . ص ، ٣٥ .
- أبو موسى . ص ، ٣٥ .
- باكونين . ص ، ١٦٦ .
- برودون . ص ، ١٦٦ .
- البيروني . ص ، ٣٥ .
- توكو عبدالرحمن . ص ، ١٩٣ .
- ثالوم كيتاكاثورن . ص ، ١٤١ .
- حنين بن أسحق . ص ، ٣٥ .
- خديجة . ص ، ١٢٨ .
- الموارزمي . ص ، ٣٥ .
- الرازي . ص ، ٣٥ .
- عثمان . ص ، ١٢٨ .
- غاندي . ص ، ١٦١ .
- الفزالي . ص ، ٤٠ .
- القرطبي . ص ، ٤١ .
- كروپوتkin . ص ، ١٦٦ .
- المأمون . ص ، ٣٤ .

- النبي محمد . ص ، ٨١ ، ٢٩ ، ٤١ ، ٩٣ ، ٨٩ ، ١٠٤ .
- هاشم توا . ص ، ١١ .
- هتلر . ص ، ١٦٢ ، ١٦٣ .
- يوسف على . ص ، ٢٩ .

٤- الآلات الماكينة

- آسيا . ص ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٤٧ ، ٩٥ ، ٩٦ .
- إسبانيا . ص ، ٣٥ ، ٤٧ ، ٣٦ .
- أفريقيا . ص ، ١٥٧ .
- أوروبا . ص ، ٣٢ ، ١٨٧ ، ١٢١ ، ٣٧ ، ٣٥ ، ٣٤ ، ١٩٣ .
- باكستان . ص ، ٦٦ .
- بريطانيا . ص ، ١١ ، ١٠ ، ٢٠ ، ١٦٣ ، ١٤٩ ، ١٤٨ ، ١٢٢ ، ١٠١ ، ٨٣ ، ٨٠ ، ١٨٧ .
- تايلاند . ص ، ٦٦ ، ١٤١ ، ١٥٧ .
- چاکرتا . ص ، ١٤٠ .
- روما . ص ، ٣٤ ، ١١ .
- سريلانكا . ص ، ١٩٣ .
- ستغافوره . ص ، ١٨٨ ، ١٩٠ .
- الشرق . ص ، ٣١ ، ٥٨ ، ٥٧ ، ٦٤ ، ٦١ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٤ ، ٦١ .
- الصين . ص ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٣ ، ١٥٠ ، ١٧٦ ، ١٥٧ .
- الغرب . ص ، ٣١ ، ٣١ ، ٥٨ ، ٣٣ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ٧٠ ، ٧٩ .
- فارس . ص ، ١١ .
- فيتنام . ص ، ٦٦ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٤٠ .
- قرطبة . ص ، ٣٥ .
- كيداه . ص ، ١٨٨ .

- مالطا . ص ، ٧ ، ٨٩ ، ٨١ ، ٧٠ ، ٦٦ ، ٥٤ ، ٥٣ ، ٥٠ ، ٢٠ ، ١٧ ، ١٣ ، ١ ، ١٠١ ، ١٠٢ .
- مصر . ص ، ١٢٥ .
- الملايو . ص ، ٧ ، ٩ ، ٧ ، ٥٤ ، ٥٣ ، ٤٨ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٢٩ ، ١٢ ، ١١ ، ١٠ ، ٩ ، ١١٤ ، ١١٣ ، ١٠٦ ، ١٠٣ ، ١٠٢ ، ١٠١ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ٧٠ ، ٥٥ .
- ميلاكا . ص ، ١١ ، ٥٩ .
- الهند . ص ، ٣٦ .
- هوئيچ كويچ . ص ، ٦٤ .
- الولايات المتحدة . ١٤٠ ، ١٢٣ .
- اليابان . ص ، ٥٩ ، ١٨٧ ، ١٦١ ، ١٦٠ ، ١٥٧ ، ١٤٠ ، ٧٠ .
- اليونان . ص ، ١١ ، ٣٤ .

٣- الأحزاب والتنظيمات

- اتحاد الملايو . ص ، ١٦١ ، ١٩٦ .
- أومنوبراك . ص ، ١٩٠ .
- أومنوستنافوره . ص ، ١٩٠ .
- أومنوكيلاه . ص ، ١٨٨ ، ١٩٠ .
- حزب استقلال الملايو . ص ، ١٩١ .
- الحزب الإسلامي . ص ، ١٨٧ ، ١٩١ .
- الحزب الشيوعي . ص ، ١٠١ ، ١٥١ .
- حزب اتحاد العمال البريطاني . ص ، ٧٧ .
- حزب نيجارا . ص ، ١٩١ .
- سيركاس . ص ، ١٨٩ ، ١٩٠ .
- الكومونولث . ص ، ١٠١ .

- كيساتوان ميلاديو كيداه . ص ، ١٨٩ ، ١٩٠ .
- المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو (أومنو) ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٢ .

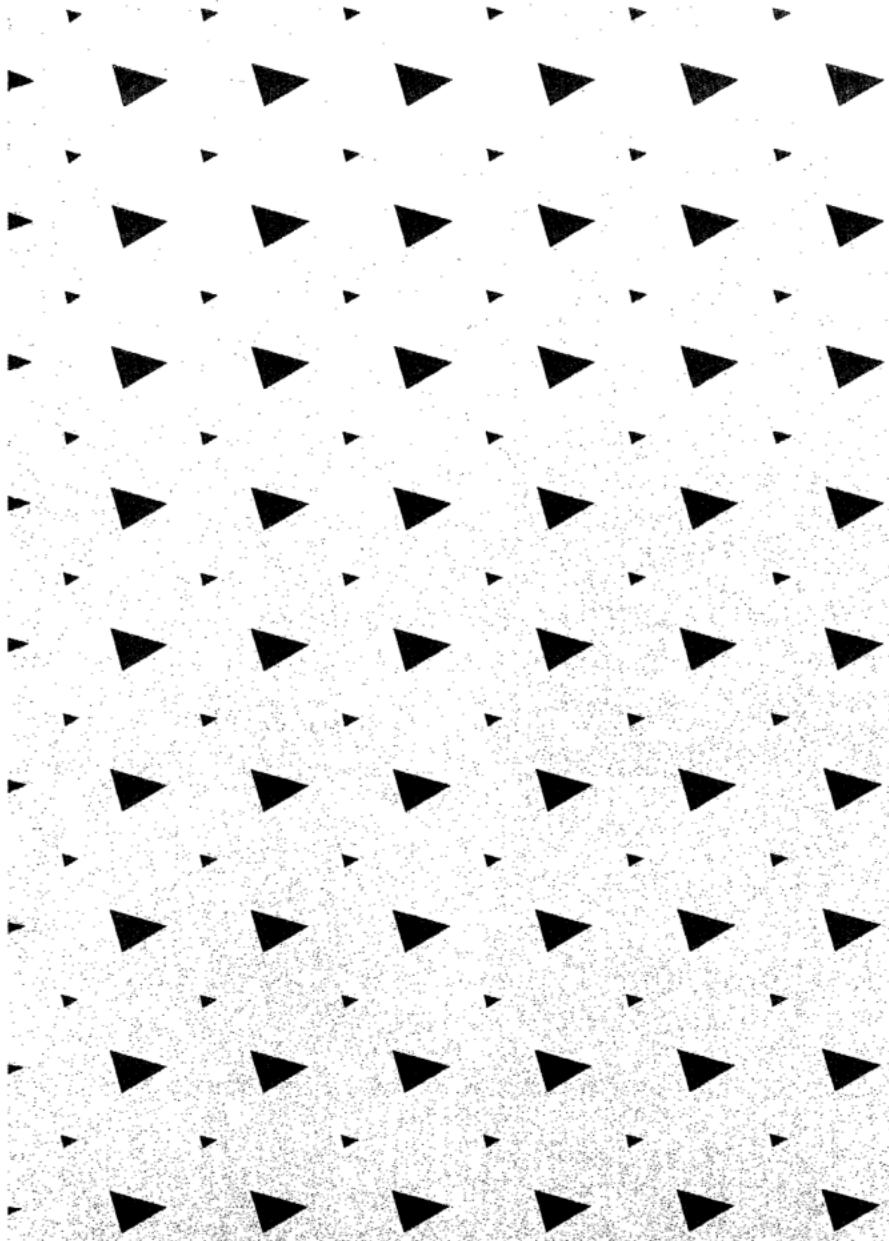
٤- الأخذات الكبّرى

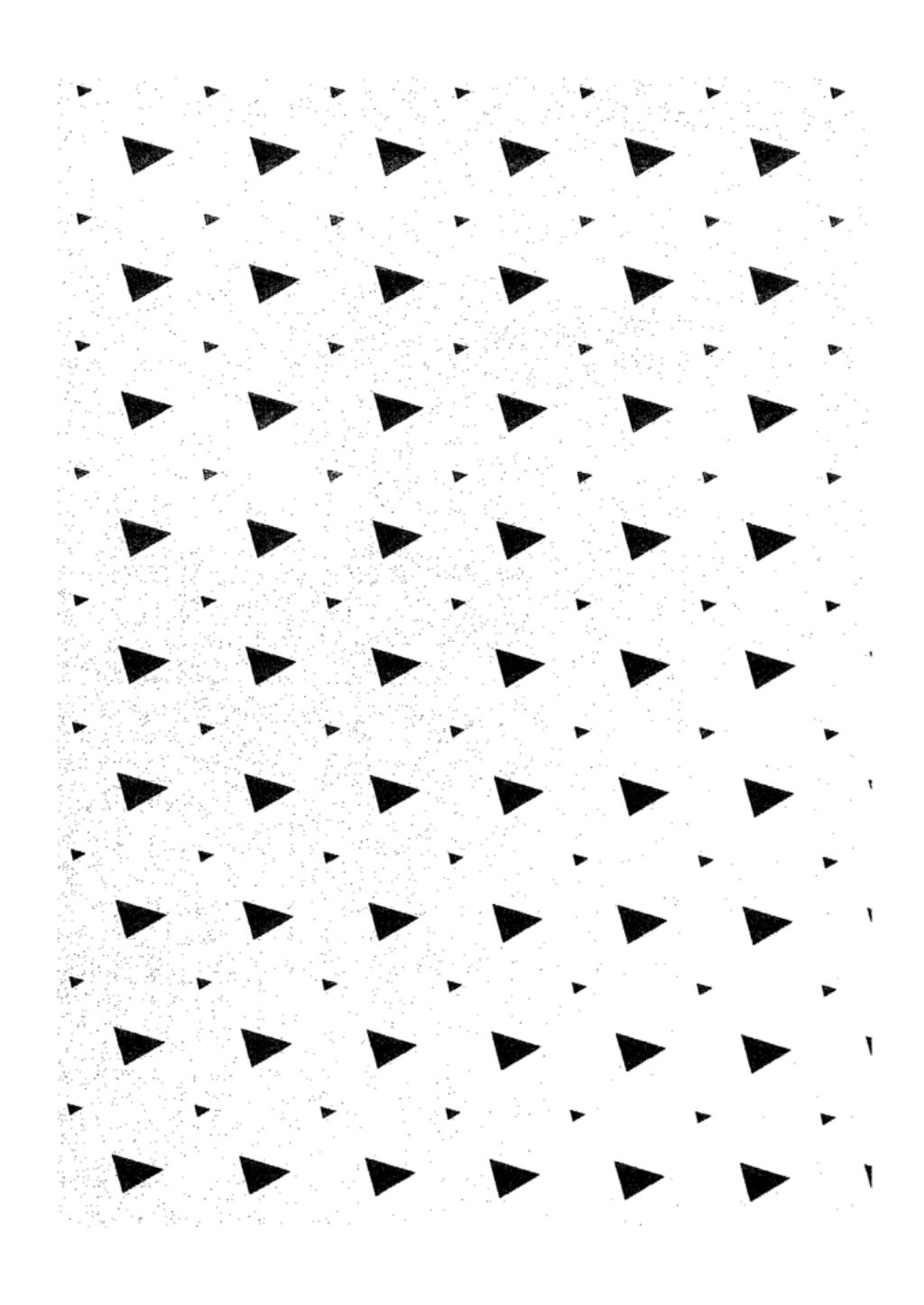
- الاحتلال البريطانى للملايو . ص ، ٥٤ .
- أحداث ١٩٦٩ . ص ، ١٩٢ .
- استقلال ولايات الملايو . ص ، ١٩٣ .
- الثورة الصناعية . ص ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ .
- الثورة الفرنسية . ص ، ٨٣ ، ٨٤ .
- الحرب العالمية الثانية . ص ، ٥٩ ، ١٨٨ ، ١٦٣ ، ١٩٣ .
- حرب فيتنام . ص ، ٦٠ ، ١٤٠ .
- غزو أحد . ص ، ١٦٤ .

٥- مصطلحات وعبارات مُهَمَّةٌ

- المادية . ص ، ١٤ ، ١٦ ، ٩١ ، ٩٠ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٧٨ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٢٤ ، ٢٢ ، ١٦ ، ١٤ .
- جماعات الضغط . ص ، ١٣٩ .
- الروحانية . ص ، ٧ ، ١٣ ، ٩١ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٨٢ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٢٥ ، ١٣ ، ٩٨ ، ٩٥ .
- الدليل العقلى . ص ، ٨ .
- الدليل التلقى . ص ، ٨ .
- القيم الإنسانية . ص ، ٧٣ .
- الفساد . ص ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧١ ، ١٧٩ ، ١٧٦ ، ١٧٥ ، ١٧٤ .
- الشيوعية . ص ، ٧ ، ١٣ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٧ ، ١٠١ .

- . ١٦٦، ١٤٨، ١٣٥، ١٣٢، ١٠٦، ١٠٣
 التأمين . ص ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٣ ، ١٥٠ .
 - الرأسمالية . ص ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٩٧ .
 - الإسلام . ص ، ٧٦ ، ٣٧ ، ٣٦ ، ٣٤ ، ٣٣ ، ٣١ ، ٢٩ ، ٢٥ ، ٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤١ ، ٤٠ ، ٤٤ .
 . ١٢٥، ١٠٤، ١٠١، ٩٨، ٩٤، ٩٣، ٩٢، ٩٠، ٨٢، ٧٩، ٤٨، ٤٧
 - تعاطي المخدرات . ص ، ١٠٤ ، ٣٨ ، ١٠ ، ٣٨ .
 - القرآن . ص ، ٨ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٨ .
 - الشريعة الإسلامية . ص ، ٣٤ ، ٩٧ ، ٩٦ .
 - المسيحية . ص ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٩٨ ، ٤٧ ، ١٢٩ .
 - عصر النهضة . ص ، ٣٧ .
 - الاشتراكية . ص ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٢٣ ، ٢٢ ، ٢١ ، ١٧ ، ١٦ ، ١٥ ، ١٤ ، ٧ ، ٧٩ ، ٧٥ .
 . ١٠٥، ٩٧، ٨٧، ٨٢، ٨٠
 - التعليم الديني . ص ، ٣٧ .
 - وأد البنات . ص ، ١٦٩ .
 - المصايبات الشيعية . ص ، ١٩٤ ، ١٠١ .





مَقْسُوْتٌ وَعَلَيْهِ

الدكتور

شَعْبَرْ كِنْجَيْ

رئيس وزراء ماليزيا

الطبعة الأولى

0439077

Bibliotheca Al-Malikiyya